بنیاد پژوهشهای اسلامی
آستان قدس رضوی

الأستاذ الشهيد مرتضى مطهري

الإسلام ومتطلبات العصر

تصوير الكتاب
حسين الخزاعي

تعريب





الأستاذ الشهيد مرتضى مطهري

الإسلام ومتطلبات العصر

تصوير الكتاب

حسين الخزاعي

تعريب

علي هاشم

استاد شهيد مرتضى مطهرى

اسلام و مقتضيات زمان

قم، انتشارات صدرا، ۱۳۶۲

مطهری ، مرتضی ، ۱۲۹۹ ـ ۱۳۵۸.

الاسلام ومتطلّبات العصر / مرتضی مطهری ؛ ترجمه علی هاشم . ـ مشهد : آستان قدس رضوی ، بنیاد پژوهشهای اسلامی ، ۱۳۷۵.

۲۹۵ص.

عنوان اصلی : اسلام و مقتضیات زمان .

۱ . اسلام ـ مقاله ها و خطابه ها. الف . هاشم ، علی ، مترجم . ب . عنوان

BP ۱۰/۵ ۲۹۷/۰۸



الكتاب : الاسلام ومتطلبات العصر

المؤلف : الاستاذ الشهيد مرتضى مطهري

تعريب : علي هاشم

مراجعة : الدكتور محمود البستاني ـ ناصر النجفي

الناشر : مجمع البحوث الاسلامية ، ايران ، مشهد ، ص ، ب ، ٣٦٦ ـ ٩١٧٣٥

الطبعة الأولى : ١٤١١هـ

العدد : ٣٠٠٠ نسخة

الطبع : مؤسسة الطبع والنشر في الاستانة الرضوية المقدسة

فهرس المواضيع

تمهيد

الكتاب الـذي بين يديك ـ أيها القارىء الكريم ـ وهو تحت عنوان «الاسلام ومتطلّبات العصر» مجموعة محاضرات ضمّت ست وعشرين محاضرة اسلامية للاستاذ الشهيد مرتضى مطهري كان قد ألقاها في شهر رمضان المبارك من احدىٰ السنين . ولا نعرف تأريخها بالضبط ، غير انّ الذي نطمئنّ اليه ، وما نستشفه من المحاضرات نفسها ، انها تعود الى سنين متقدمة ، وأنها أُلقيت في وسط عام ، علماً انّ أشرطتها غير متوفرة فعلاً ، وليس عندنا الآ نصوصها التي تم استخراجها من أشرطة التسجيل في نفس تلك الفترة . وما هذه المحاضرات الآ مجموعة منظّمة مأخوذة من تلك النصوص . وللاستاذ الشهيد بحوث اخرىٰ تحمل نفس العنوان ألقاها في الجمعية الاسلامية للاطباء ، وتختلف عن هذه المحاضرات في حداثتها ورفعة مستواها ، وستشكّل الجزء الثاني من هذا الكتاب بعون الله تعالى .

وانا إذا صدّر الكتاب بهذه الكلمة القصيرة اودّ أن أنبّه على جملة امور لا مناص من التذكير بها ، وهذه الامور هي : أولاً : لقد تم انتخاب عناوين هذه المحاضرات من قبلنا ما عدا المحاضرات الاربع الاولىٰ ، وقد حاولنا ـ جهد الامكان ـ اقتباسها من المواضيع المطروحة في المحاضرات نفسها . ثانياً : بما انّ تأريخ هذه المحاضرات يعود الىٰ فترة غابرة فالامثلة المذكورة في بعض المواضع متناسبة مع تلك الفترة الزمنية . ثالثاً : بما انّ اسلوب هذه المحاضرات خطابي لهذا فقدت ـ في بعض المواطن ـ وحدة الموضوع واستطردت فيه الى بحوث جانبية ، لكنها بقيت محافظة جميعها على ارتباطها بالعنوان الاصلي «الاسلام ومتطلبات العصر» . رابعاً : كما ذكرنا سلفاً من انّ اشرطة هذه المحاضرات غير موجودة ، لهذا يُلاحَظ حذف جزئي لبعض الجمل والعبارات حيث بقي على

حاله كما هو، لكنّه قليل جدّاً ولم يؤثّر على تركيبة الموضوع . خامساً : لقد رُوعيت الأمانة ـ في أحسن صورها ـ لدى تنظيم هذه المحاضرات ، ولم تحصل الّا تعديلات طفيفة لبعض العبارات بالشكل الذي حافظت فيه على أُسلوبها الخطابي . سادساً : تلي هذا التمهيد مباشرةً مقدّمة قصيرة للكتاب بقلم الاستاذ الشهيد نفسه ، تتعلق بعنوانه «الاسلام ومتطلبات العصر» . في الختام نأمل أن تساهم هذه المحاضرات ـ كبقية نتاجات فقيدنا الراحل المفكر والفيلسوف والفقيه الكبير الشهيد السعيد مطهري ـ في رفد الرصيد الثقافي للثورة الاسلامية وتعزيزه .. ونحن على يقين انّها ستكون كذلك ! ولم لا ؟ وامامنا العزيز السيد الخميني ـ طاب ثراه ـ أثنى على الشهيد بما يستحقّه قائلاً : «إنّ جميع كتاباته ومحاضراته دون استثناء ذات طابع تعليمي توجيهي ، يمنح الروح أُنساً واطمئناناً . ولقد كانت مواعظه وارشاداته النابعة من قلبه الطافح بالايمان والعقيدة مفيدة ونافعة للعارفين وغيرهم ، ومسرّة لكلّ قلب تباشره ...» .

الناشر

مقدّمة المترجم

بسم الله الرّحمن الرّحيم وله الحمد والمجد والصّلاة والسّلام على المربّي الأوّل للبشريّة سيّدنا محمّد وآله الميامين .

عندما نقرأ التاريخ ، ندين أُولئك الـّذين تطاولوا على القيم الانسانيّة ، وعملوا كلّ ما في وسعهم من أجل مسخ العقول ، وتسميم الأفكار إرضاءً لنزواتهم الشّخصيّة الطّائشة ، بيد أنّا إذا اكتفينا بالإدانة ، فلا نحققّ أيّة نقلة للبشريّة في عالم القيم والمثل الرفيعة ، ولا نعطي لقراءة التاريخ مفهومها الصّحيح ، لذلك علينا أن نكون هادفين واعين عندما نتعامل مع التّاريخ والحياة ، فندرك انّنا عندما ندين ذلك التطاول وأصحابه ، أو نستنكر تلك المحاولات الدّنيئة من لدن اولئك الـّذين أفرغوا الحياة من محتواها ، وصادروا من الانسانيّة هويّتها ووجودها ، أو نمتعض من التربّي في عالم الرّذيلة ، فانّنا لانكتفي بذلك ، بل نكرّس كلّ لحظة من لحظات عمرنا لتوطيد دعائم الجانب الترّبوي في المجتمع ، لكي لاتتكرّر كلّ تجربة مرّة أذاقت الضمير الانسانيّ لوعة وألماً ، ولا تعاد كلّ سيرةٍ ساذجة حمقاء تظلّ أعراضها ممضّة موجعة .. ولكي لايطلّ على الحياة ثانية ، شخص متطاول على القيم ، أو آخر عديم الضمير ، أو ثالث معلّم للرذيلة .. فاذا قمنا بذلك فقد حقّقنا ما نرنو إليه ، وإلاّ فسوف نبقى نجترّ الشّجب والإدانة ، ونعيد الاستنكار والامتعاض دون تحريكٍ لساكن حتّى إذا غفونا على هذه النغمات ، فوجئنا بنفس تلك النماذج المرفوضة المنبوذة الّتي نكيلها شجباً وإدانة واستنكاراً ، ونبقى نعيش أزمة مزمنة ، كلّنا نعرف نتائجها وأعراضها حتّى كأننا لم نسمع كلام الله عزّوجلّ حين يستصرخنا لتكون اهتماماتنا في ضوء مايريد ، بقوله الحكيم : «ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر . .» لا سيّما وانّ اعداء

الاسلام من صهاينة وصليبيّن و وهّابين يبذلون قصارى جهودهم لتعزيز الجانب الترّبوي ، و يولونه اهتماماً خاصّاً لكي تفتح الأجيال عيونها على أجواء موبوءة كما يشتهون ، وتلك ـ لعمر الله ـ الطّامّة الكبرى حيث انّنا نراوح في مكاننا ، وهم مليئون حيو يّة وحركيّة ، فلنعبّأ الجهود ، لنملأ الأجواء بالطّهر والصّفاء والفضيلة ، ولنتحف الحياة بالمفاهيم الخيّرة الانسانيّة ، ولنردّد قول القائل : «انّ اعظم شعب هو الشّعب الـّذي يشغل نفسه بالجانب الترّبوي و يرى انّ السّباق في مضماره» .

ومن هذا المنطلق كانت هذه المحاضرات الترّبو يّة القيّمة لعلمٍ من معلّمي الانسانيّة كان يرى ان وجود المجتمع من خلال العامل الترّبويّ الصّحيح ، وهذا المعلّم هو الأُستاذ الشّهيد العلاّمة مرتضى مطهّري الـّذي ختم الله له حياته بوسام الشّهادة بعد أن كان نعم المربّي للبشريّة ، ولم يطق الجهلة الحمقى وجوده لانّهم علموا عظم خطره على براجهم وتوجّهاتهم المحمومة .

تشرّفتُ بتعريب هذه المجموعة من المحاضرات لتكون أحد الروافد الّتي تفيض على الحياة خيراً و بركة ، مع اعتذاري من القارىء الكريم إذا وجد فيها شيئاً من التقصير ، فلسنا مبرّئين ولا أجدني بحاجة إلى ان اذكر المشقّات التي يواجهها المترجم ، وعسر مهمّته ، فقد سبقني الكثيرون من أساتذة هذا الفنّ إلى ذلك ، وذكروا ما يكفي بيد انّي لابدّ ان اذكّر بانّ أُسلوب هذا الكتاب خطابيٌّ ، مع افتقار الكتاب نفسه إلى ذكر المصادر ، وفقدانه التماسك المطلوب ، وخلله في نقل الأحاديث والروايات ، وهذا ممّا ضاعف صعوبة العمل ، وزاد في مشقته ، بيد انّ ذلك قد ذُلّل بفضل مراجعة الأخ ناصر النجفي للكتاب . فلا يسعني إلّا ان اقدّم جزيل شكري مع عظيم امتناني لجهوده راجياً له الخير والنّجاح في جميع ميادين الحياة .

كما أشكر مجمع البحوث الاسلاميّة على إتاحته هذه الفرصة الثمينة لي ، ولا غرو فهو المركز العلميّ التحقيقيّ المعطاء الـّذي لايتوانى عن رفد الباحثين والمترجمين لحظة واحدة ، مع ترحيبي بكلّ ملاحظة على الكتاب الـّذي هو باكورة أعمالي على صعيد تعريب الكتب ، واستقبالي لكل نقدٍ مفيد ، فما أنا إلّا «متعلّم على سبيل نجاة» ، ولله الحمد اوّلاً وآخراً .

علي هاشم

ربيع الثّاني ١٤١١هـ


المقدمة

المقدّمة

إنّ قضية «الاسلام ومتطلبات العصر» من القضايا الاجتماعية المهمّة التي تشغل بال الشباب المثقف في عصرنا الحاضر، وهم أرقى شريحة اجتماعية من حيث المستوى، كما انّ عددهم ـ من حسن الحظ ـ جدير بالملاحظة.

هناك ضرورتان ملحّتان تفرضان على هذه الشريحة مسؤولية ثقيلة ورسالة جسيمة. الاولى: ضرورة المعرفة الصحيحة للاسلام الحقيقي كفلسفة اجتماعية وايديولوجية الهيّة، ونظام فكري واعتقادي بنّاء، وشامل، و باعث على السعادة. الثانية: ضرورة معرفة ظروف العصر ومتطلباته، والتفريق بين ما هو ناشيء عن التطور العلمي والصناعي، و بين ظواهر الانحراف وأسباب الفساد والانحطاط. ولا شكّ ان باخرةً تريد ان تمخر عباب المحيطات، قاطعة المسافات الطويلة، متنقلة من قارة الى اخرى لابد لها من بوصلة لمعرفة الاتجاه، ومرساة ثابتة لحفظها، والحيلولة دون غرقها، واجتياز الاخطار الناجمة عن المد والجزر، كما انّ معرفة وضع البحر وموقعه جغرافياً أمر لا محيص منه في كل لحظة من اللحظات، ونحن علينا ـ من هذا المنطلق ـ أن نتعرّف على الاسلام بوصفه دليلاً في السفر كالبوصلة، ومرساة ثابتة تعصمنا من الغرق خلال المدّ والجزر. ونتعرف كذلك على الظروف الخاصّة لكل عصر بوصفها منازل على الطريق ينبغي الوصول اليها أو المرور عليها تباعاً حتى نستطيع أن نصل الى غايتنا المنشودة في محيط الحياة المتلاطم.

وليس هناك معضلة من وجهة نظر الشريحة آنفة الذكر الّا عدم الاطّلاع على الحقائق

الاسلامية الناصعة ، وغياب قابلية التمييز والتفريق عندهم بين اسباب الرقي والتقدم ، و بين التيارات والظواهر المنحرفة التي هي من طبيعة البشر، إذ لعلّهما يعكسان القضية كلغز محيّر! لكن لا ننكر وجود أفراد وجماعات ينظرون الى القضية وكأنها ـ واقعاً ـ لغز محيّر معتقدين انّ «الاسلام» و «متطلبات العصر» نقيضان لا يجتمعان ، و وجودان لا ينسجمان ، ولا بد إذاً من اختيار أحدهما ، فأمّا أن نتسمك بالاسلام وتعاليمه مبتعدين عن كل نوع من أنواع التحديث والتجديد ، ومعطّلين الزمن عن حركته التطورية ، وامّا أن نستسلم لمتطلبات العصر التي هي في تطور مستمر مطلّقين الاسلام باعتباره ظاهرة تتعلق بالماضي السحيق واضعين إياه في ملفات التاريخ القديمة ... وحديثنا في هذا المقال يرتبط بهذه الآراء المطروحة وأصحابها .

انّ الدليل الذي يطرحه هؤلاء هو كالآتي : بما انّ الاسلام دين ، وانه آخر الاديان وتعاليمه خالدة ، وانه يجب ان يبقىٰ الى الأ بد حاملاً نفس المواصفات التي كان عليها يوم ظهوره ، فهو اذاً ظاهره ثابتة لا تقبل التطور، اما الزمن فهو متطور بذاته ، وطبيعته تقتضي التجديد والتغيير، وكلّ يوم يأتي بشيءٍ جديد يختلف عن سابقه ، فكيف يمكن التوفيق بين شيئين : احدهما ثابت في ذاته لا يتغيّر، والآخر متغيّر في ذاته لا يثبت ؟

وهل يمكن أن تلتقى أعمدة الكهرباء والهاتف المنصوبة على الطرق مع السيارات التي تسير علىٰ تلك الطرق باستمرار ولا يتفق لها أن تجتمع في نقطة واحدة خلال لحظتين ؟ وهل يمكن أن يظلّ الطفل ذو العامين يستعمل نفس ثوبه حين يصير عمره عشرين سنة في حين انّ جسمه في نموّ متزايد ، والثوب هو نفس الثوب الذي كان يستعمله خلال ذلك العمر ؟

علينا الاذعان إذاً بأنها مشكلة لا يمكن علاجها بتلك البساطة ، وهذه المشكلة تذكّرنا بمشكلة اخرىٰ طرحها الفلاسفة الالهيّون وعالجوها ، وهي : «ربط المتغير بالثابت» و «ربط الحادث بالقديم» . وتبدأ مشكلتهم من قولهم : يجب ان تكون علّة المتغير متغيّرة وعلّة الثابت ثابتة ، وكذلك علّة الحادث حادثة وعلّة القديم قديمة ، اذاً كيف تنتهى جميع المتغيرات والحوادث في العالم الىٰ علّة ازلية لا تقبل التغيير؟ يجيب الفلاسفة هنا بقولهم : انهم اكتشفوا «رابطاً» : ثابتاً أزليّـاً من جهة ، ومتغيّـراً حادثاً من جهة اخرىٰ ، و يعتقدون انّ مهمّـة هذا الرابط هي ربط المتغيرات والحوادث بالذات القديمة الكاملة الازليّة .

وهنا يتبادر الى الذهن هذا السؤال وهو: هل انّ هذا الرابط الذي يذكره الفلاسفة

موجود في قضية اجتماعية كقضية «الاسلام ومتطلبات العصر» ، ولو كان كذلك ، فما هو هذا الرابط ؟ ومن أين ينطلق ؟

في الحقيقة ، إنّ الاستدلال الذي تذرع به اولئك حول عدم امكان اجتماع الاسلام مع متطلبات العصر يحمل في طيّاته مغالطة في كليهما . امّا على صعيد الاسلام : فخلود قوانينه وثباتها ، هو أمر مفروغ منه بل ومن ضروريات الاسلام ، مع صفة المرونة التي تخصّ نظامه التشريعي ، والتي يتحلىٰ بها الاسلام ذاتياً بحكم طبيعته الحركية الفاعلة ، التي هي من خصائص نظامه التشريعي ، قد اعتبرتا واحدة في حين انّهما منفصلتان تماماً . ولقد أثارت عظمة الفقه الاسلامي في قابليته الفذّة على تلبية حاجات كل عصر إعجاب البشرية جمعاء ، علماً ان المسائل المستجدّة لا تخص عصرنا فحسب بل كانت تظهر في كل عصر منذ بزوغ فجر الاسلام حتىٰ القرن السابع والثامن حيث كانت الحضارة الاسلامية في توسع مضطرد ، و يتمخض عن مسائل مستحدثه وحاجات مستجدة ، ادّىٰ فيها الفقه الاسلامي دوره الخطير خلالها محافظاً علىٰ اصالته دون الاستعانة بمصادر غير اسلامية . وانّ فقدان التوجّه الاسلامي الهادف خلال القرون الاخيرة لدى المتصدّين في العالم الاسلامي من جهة ، وانبهار المسلمين بتقدم الغرب وتطوره من جهة اخرىٰ ، قد أفضيا الى التصور الموهوم بانّ الاسلام لا يصلح لعصرنا الجديد هذا .

واما على الصعيد متطلبات العصر : فانّ المغالطة فيها تكمن في اعتبار الزمن قادراً على أن يبلى كل شيء بما فيها الحقائق الكونية الثابتة ، في حين ان الذي يبلى و يتجدد في الزمن هو المادّة والتركيبات المادية مثل : الجماد ، النبات ، الحيوان ، الانسان .. وهذه كلها محكومة بالفناء والزوال ، أما الحقائق الكونية فهي ثابتة لا تتغير .

أجل .. هل يستطيع أحد ان يقول : ان جدول فيثاغورس قد بلى ولم يعد مفيداً وذلك لمرور ألفي سنة على وجوده ؟ وهل يمكن لأحد أن يدّعي عدم جدوى كلام الشاعر الشهير سعدي حين يقول : «الناس كأعضاء الجسد الواحد» وذلك لمرور سبعمائة سنة عليه ؟ وهل دُرست المفاهيم الخيرة كالعدل والمروءة والوفاء والاحسان التي تتناقلها الألسن منذ الآف السنين لقدمها ؟ إذن ، القول : ان جدول فيثاغورس أو شعر سعدي قد بليا لمرور الفترة الزمنية الطويلة عليها خطأ محض ، وذلك لانّهما ناديا بحقائق ازليّة وأبديّة ، وما فيثاغورس أو سعدي الآ مبيّنان

لتلك الحقائق وكفى . يقولون : ان قوانين عصر الكهرباء والطائرة وغزو الفضاء لا يمكن ان تكون نفسها قوانين عصر المصابيح النفطية والخيول والبغال والحمير ، وهذا صحيح ، إذ لا شكّ انّ مستجدّات كثيرة تظهر في عصر الكهرباء والطائرة علينا أن نجد لها جواباً ، لكن لا يعني هذا إحداث تغيير كلّي في القضايا الحقوقيّة المتعلّقة بالبيع والشراء والغصب والضمان والوكالة والرهن تبعاً لتبديل المصباح النفطي بالكهرباء والحمار بالطائرة . أو إحداث نفس التغيير في حقوق الآباء على الابناء أو حقوق الابناء عليهم ، أو حقوق الرجل على زوجته أو حقوقها عليه ، بناءً على ان الماضين منهم كانوا يسافرون على الحمار ، أمّا الموجودون فعلاً فانّهم يسافرون بالطائرة .

انّ الاسلام طريق ، وليس منزلاً على الطريق ، أو موقفاً من مواقفه ، وقد عبّر عن نفسه بنفسه بانه الصراط المستقيم ، فمن الخطأ إحداث تغيير في هذا الطريق بسبب تغيير منازله وذلك لان لكلّ حركة منظّمة عنصرين أساسين هما : التغيير وهذا يحصل في المواقف على التوالي ، والثبات وهو صفة الطريق ومحور الحركة .

هذا اوّلاً ، وامّا ثانياً : فينبغي ان نتساءل : هل انّ الاسلام وحده فقط كايديولوجيّة وفلسفة اجتماعيّة ودليل سفر حركة متكاملة يدّعى الخلود ؟ وهل انّ الافكار الاجتماعية الاخرى التي تضرب على وتر التطور أكثر من غيرها ، وتعتبر كل ظاهرة في الحياة غير ثابتة ، وفي تطور ، هل هي تعتقد أن مبادئها أيضاً غير ثابتة وفي تطور ؟ نحن نعلم ان النظرة الكونية للماركسية قد ابتنيت أساساً على مبدأ التطور وعدم ثبات كلّ شيء في الطبيعة ، لكن هل يُقرّ الماركسيون أنفسهم بقدمها . لا ، هم يرفضون فهماً يصوّر ماركسيتهم ظاهرة بالية ، كما لا يحكمون عليها بالموت والفناء بسبب موت مؤسّسها (كارل ماركس) ، وانّما هم يشيدون بها دائماً كمبادىء فولاذيّة رصينة لا تقبل الخلل .

يقول لينين في الماركسية :

[إنّ فلسفة مارس كقطعة الفولاذ المحكمة ، ولا تستطيعون ان تسقطوا منها ولو فرضيّة واحدة من فرضيّاتها الاساسيّة أو جزءاً ذاتياً من أجزائها الّا ان تتنكروا لحقيقة واقعية ملموسة أو تكونوا قد ارتميتم في احضان الرجعيين البرجوازيين وتخرّصاتهم] (١) .

---

(١) بعثت وايدئولوجي (البعثة والعقيدة) ص ٤٢ ، مقتبس من كتاب ماديت وانتقاد تجربي (المادية وانتقاد التجربية) .

ولم هذا ؟ هل طرأ استثناء على العالم ؟ أو انّ الماركسية تدّعى بذلك بوصفها فلسفة وليست ظاهرة ، وفلسفة قد استوعبت القوانين الحقيقية في حياة الناس على حدّ زعمها ؟

من البديهي انّ ادّعاء الماركسية لا يقتصر عليها ، ولا تستطيع أن تنفرد به وحدها ، بل كل فلسفة اجتماعية تستطيع ان تدّعى بذلك وتأتى بالدليل عليه ، فلا يمكن الحكم على اي مدرسة اجتماعية بالفناء والزوال بسبب قدمها وتاريخ انبثاقها .

وانطلاقاً من هذه الحقيقة اننا اذا أردنا الحكم على الاسلام ومتطلبات العصر، فالسبيل الوحيد الى ذلك هو ان نتعرف على الاسلام نفسه ، ونستوعب روح قوانينه، ونطّلع على نظامه الخاص في التشريع ، حتى تتضح الصورة جليّة عندما يثار هذا السؤال : هل ان الاسلام يصلح لعصر معيّن أم هو لكل القرون والأعصار، يقود الناس و يهديهم نحو الكمال ؟

من الطبيعي اننا نعلم بانّ للماركسية نظرية حول التأريخ يطلق عليها «المادية التأريخية» اي انّ التأريخ ـ بحكم ماهيّته ـ مادي مائة بالمائة ، والقوّة التي تحرّكه هي العلاقات الاقتصادية للمجتمع البشري ، وما بقيّة الشؤون والعلاقات الثقافية والدينية والقضائية والاخلاقية الاّ عوامل ثانوية ، وتوابع متغيرة و بنى فوقية أساسها العامل الاقتصادي الذي يشكّل البنية التحتية لها ، فالتغيير الحاصل في العلاقات الانتاجية والاقتصادية يؤدى الى تغيير كافة شؤون الحياة الأُخرى . ولو صحّت هذه النظرية فانّ كلّ شيء سوف يتغير تبعاً للتكامل الحاصل في وسائل الانتاج والعلاقات الاقتصادية .

لا مجال عندنا الآن الى نقد هذه النظرية التي تحتاج الى تفصيل أكثر، ونكتفى بالقول : انها عجزت عن اعطاء تفسير صحيح للتأريخ ، وفشلت في كسب تأييد أصحاب الافكار المستقلة .

انّ التأريخ صنيع الانسان وعلاقاته مع بني جنسه ، وهناك عناصر ثابتة كثيرة تقوّم وجود الانسان وعلاقاته ، لم تتأثّر بالتطوّرات الحاصلة في العلاقات الاقتصادية بل حافظت على ثباتها و وجودها .

والآن حان دور الحديث عن خصائص النظام التشريعي في الاسلام ، تلك الخصائص التي جعلت التشريع مرناً ومستوعباً لكل ظروف التطور في الحياة دون حدوث تغيير في أصول القوانين الاسلامية ، أو خلل ينال من خلودها .

منشأ تطوّر متطلبات العصور

منشأ تطور متطلبات العصور

قال تعالىٰ : «انا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولا» [1] .

انّ هذه الآية الكريمة هي من الآيات العميقة المحتوىٰ في القرآن الكريم . أقول عميقة المحتوىٰ مع انّ كل آيات القرآن هي كذلك ؛ لان بعض الآيات تطرح الموضوع باسلوب مثير بحيث يرغم الناس على التفكّر والتعمق . وهذه هي سجيّة القرآن الكريم إذ يدعو الى التفكر كثيراً بصورة مباشرة أو غير مباشرة . ودعواته المباشرة قد تجسّدت في الآيات التي حثّت على التفكر وأثنت عليه ، وانحت باللائمة على كلّ لون من ألوان البلادة والجمود الفكري . قال تعالىٰ : «انّ شرّ الدوابّ عند الله الصمّ البكم الذين لا يعقلون» [2] .

من هم شرّ الدوابّ عند الله ؟ هل الدواب التي نعتبرها أعياناً نجسة ؟ أو تلك التي تضرب بها الامثال في الغباء ؟ والجواب هو: لا تلك ولا هذه ، بل كما صرّح القرآن الكريم ، وحسب مقياس الحقيقة ، انّ شر الدواب هم اولئك الناس الصُمّ ولهم آذان ، والبكم ولهم ألسن ، والسرّ في أنهم شر الدواب ، لانهم وهبوا عقلاً لم يستعملوه ، وفكراً لم يستفيدوا منه علماً انّ امثال هذه الآية ، الداعية الى التعقل ، في القرآن كثيرة .

وهناك دعوات غير مباشرة وردت في القرآن لها أيضاً دورها في حثّ الناس على التأمل

---

(١) سورة الاحزاب / ٧٢ .

(٢) سورة الانفال / ٢٢ .

والتدبر ، وهي علىٰ أقسام ، لا انوى التطرّق لها جميعاً كي لا ابتعد عن صلب الموضوع الأصلي الذي يدور في خلدي ، واكتفى باشارة عابرة بالقول انّ قسماً منها يضمّ آيات تتحدث عن الموضوع بشكل يثير في العقل روح التفكر والتأمل ، وقد استعمل هذا الاسلوب خاصّة لتحريك دفائن العقول .. والآية التي ذكرناها في بداية المحاضرة هي واحدة من هذه الآيات التي تثير كثيراًمن الاسئلة أمام قارئها . «انّا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولا» .

ما هي هذه الأمانة ؟ من أي نوع من الامانات هي ؟ كيف عرضناها ؟ على من عرضناها ؟ على السموات والارض والجبال ! ياللعجب ! كيف يمكن ان تعرض هذه الامانة على تلك الاشياء ؟ يقول : انّا عرضناها على السموات والارض والجبال لكن أبين وامتنعن عن حملها . فأيّة أمانة هذه إذاً ؟ يبدو انّ هذه الامانة المعروضة على تلك الاشياء هي من النوع الذي ينبغي ان يتحمل و يطاق بعد القبول به ، وليس القبول وحده . و بعبارة اخرى : ان هذه الموجودات يجب أن تطيق حمل هذه الامانة ، وليس فقط انها تقبل بها ، علماً اننا في الامانات العادية نقول : فلان قبل أمانة فلان ولا نقول : تحملها ، في حين يقول القرآن الكريم ان تلك الاشياء قد امتنعن عن تحمل الامانة ..

وقد ذكر موضوع حمل الامانة في الادب العربي والفارسي ، وفي هذا الصدد يقول الشاعر الايراني المشهور «حافظ الشيرازي» «لقد عجزت السموات عن حمل الامانة ، فكانت نتيجة الاقتراع : اسمي أنا الانسان المجنون المغفّل»[1] .

و يتابع القرآن الكريم الكلام بقوله : «وحملها الانسان» فيثار هذا السؤال وهو: اننا نرىٰ الناس جميعهم ولا نرىٰ على أكتافهم شيئاً يحملونه ، فأي عبءٍ وضع على عواتقهم ؟ والجواب هو: انّ هذا العبء ليس ماديّاً يعرضه الله على السموات والارض والجبال فيرفضنه ، و يعرضه على الانسان فيعلن استعداده لحمله . بعد ذلك يقول : «انه كان ظلوماً جهولا» اي ان هذا الانسان ، الذي تبرّع وحده بحمل الامانة ، ظلوم ، و (ظلوم) من الظلم ضد العدل ، وهي صيغة مبالغة تعني : كثير الظلم ، وكذلك جهول وهي : من الجهل ضدّ العلم ، وهي صيغة

(١) البيت في اللغة الفارسية كالآتي : آسمان بار امانت نتواست كشيد قرعهٔ فال بنام من ديوانه زدند .

مبالغة ، وتعني : كثير الجهل .

وفي ضوء هذه المعاني تتوارد الاسئلة على الذهن ومنها : هل عرض الله ـ تعالىٰ ـ الامانة على تلك الموجودات ليقبلنها ويحملنها ؟ أو عرضها لكي لا يحملنها ؟ والجواب هو : ليحملنها بلا شك كما بحكم العقل والمنطق .

لكن كما عرفنا انهن قد أبين حملها ، ولم يجرأ أحد على ذلك ذلك الآ الانسان فانه بادر معلناً استعداده ، فلِمَ يوصف انه ظلوم جهول بعد اعلانه استعداده لحملها ؟ وهذا الشق في الآية بعد ذكر الامانة من أعقد المواضيع التي شغلت فكر علماء المسلمين والمفسّرين واهل العرفان على مرّ الدهـــور ، وهـــم يرومـــون معـــرفة المقصود من معـــنىٰ هاتين الصفتين : « ظلوم وجهول » .

ولما ذكرت في بداية المحاضرة انّ هذه الآية هي من الآيات العميقة المعنىٰ في القرآن فان قصدي هو انها قد طرحت الموضوع باسلوب يثير بنفسه اسئلة متعددة تحرّك العقل الانساني نحو التأمل والتدبر . ولا يخفىٰ فانّ رأى جمهور المفسّرين والاخبار الواردة عن طريق أتباع مدرسة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ وغيرهم من المسلمين تبيّن ـ بما لايقبل الشك ـ ان هذه الامانة ليست مادية بل معنوية حيث انّ الله ـ تعالىٰ ـ اختار شيئاً من بين مخلوقاته وسمّاه (أمانة) ، ولكن لماذا هذا الاسم ؟ هذا ليس محل بحثنا الآن بل نرجئه الى محله إذ لعلّ الله يوفقنا مستقبلاً ونتحدث عنه ، والمهم انّ هناك شيئاً سمّاه الله ـ جل شأنه ـ « أمانة » ، وقد عرض هذه الامانة على مخلوقاته في عالم التكوين فعجزت عن حملها لانعدام القابلية لديها .

ولنا أن نتساءل عن معنىٰ العرض ، نعم ، ما معنىٰ هذا العرض الوارد في الآية ؟

والجواب هو : انّ هذا العرض يعني ان كلّ ما يصدر عن الله ـ تعالىٰ ـ من كمال وفيض يترسخ في النفوس المستعدة ، امّا النفوس غير المستعدة فلا تتقبل ذلك لما هي عليها من مواصفات . والشواهد على ذلك كثيرة ، منها : النبوة ، الامانة ، العلم ، وغير ذلك . فهل انّ هذا العطاء الذي يحمل اسم الرسالة يعرض من قبل الله تعالىٰ على بعض الناس ولا يعرض على آخرين ؟ أعني : النبوّة حيث عرضت على النبي فقبلها لكنها لم تعرض على غيره ، ولو كانت قد عرضت على غيره ، هل كان يقبلها ؟ أو لا ، هذه الحقيقة التي يطلق عليها اسم الوحي أو الرسالة أو النبوّة ، هي حقيقة ثابتة من الله تعالىٰ يمكن ان تعرض على الجميع ، ولو تقبلها الجماد

لعُرضت عليه لكنه لا يستطيع ، وكذلك الحيوان ، والانسان بدوره لايستطيع اللهم الآ بعض الافراد على نحو مخصوص . وقد عرضت الامانة التي ذكرها الله تعالىٰ على جميع المخلوقات فعجزت بأسرها عن حملها الآ الانسان .

الى هنا نكون قد فهمنا انّ في الانسان استعداداً يفقده غيره من المخلوقات ، و بسبب هذا الاستعداد تمّ عرض الامانة عليه . والآن ما هي تلك الامانة ؟ وفي الجواب نقول : نستطيع أن نفهم تلك الامانة من خلال كلمة « يحملنها » فمن المؤكّد انّها من الاشياء القابلة للحمل مع انها غير مادية . وعندما نستقرىء الاخبار والروايات الواردة في تفسير الامانة نراها تنطبق على ما ذكرنا ، فما هي هذه الامانة ؟

لقد ذكروا : انها التكليف والمسؤولية والقانون ، اي : انّ حياة الانسان ينبغي ان تتكيّف في ظلّ التكليف والمسؤولية ، و بعبارة اخرى : تناط به مسؤولية حمل التكليف والقانون ، وهو بدوره يتحمل عبئها . وهذا هو الذي يميّزه عن سائر المخلوقات اذ انّها تؤدي أعمالها قسراً و بدون تحمل لمسؤولية معينة . والانسان هو الموجود الفريد الذي يمكن ان يوضع له القانون ، وتترك له حريّة الاختيار . ثمّ قيل له : انّ هناك طريقين لا ثالث لهما وهما : طريق السعادة ، وطريق الشقاء ، فاذا اردت السعادة فاسلك طريقها ، واذا اردت الشقاء فاسلك طريقه .. وفي كلتا الحالتين تكون انت صاحب الاختيار . وهذا هو ما **يطلق** عليه اصطلاحاً « التكليف » .. وهذا الموضوع الذي تحدثت عنه الى الآن كان تمهيداً سأواصل البحث فيه إن شاء الله .

ينبغي ان اذكر قبل كل شيء اني كنتُ متردداً في انتخاب الموضوع الذي اروم الخوض فيه خلال هذه الليالي ، وهذه هي سجيّتي دوماً حيث اني اطيل التفكير في انتخاب الموضوع الذي يحتاجه الناس أكثر لأ توسع في إشباعه بالحديث عدّة ليالٍ حتىٰ احقق مرادى في إيفاء الغرض المطلوب منه ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرىٰ أُفضّل أن اتعرض الىٰ مواضيع يندر التفكير فيها والتطرّق اليها .

اود ان اقول لكم : اني قد اخترت موضوعاً يسترعى الانتباه اكثر من بين كثير من المواضيع ، ولو رأيت عدم استجابة الحاضرين له ، واقترحوا غيره ، فسوف أعرض عنه الى مواضيع أخرىٰ أبدأ بها اعتباراً من الغد ، ولكن بما أنّ هذه الليلة هي أوّل ليلة فلا مانع من طرح

الموضوع الذي اخترته وهو «متطلبات العصر» ، وهذا هو من المواضيع المهمّة التي تثير انتباه كثير من المثقفين فيبدأوا بطرح أسئلتهم حول هذا الموضوع . وبما اني كثير الا تصال بهذه الشريحة فاني اشعر انهم يعانون من عقدة روحية مدهشة ، وهي : هل يمكن للانسان ان يكون مسلماً ، وفي نفس الوقت يكيّف نفسه مع متطلبات العصر؟ هل في وسعه التفاعل مع هذه المتطلبات وهو مسلم محافظ ؟ وأحياناً يسألون : ان هذه المتطلبات في تطور على مر الزمان ، فكيف يمكن للمسلم الثبات ، ودينه يوجب عليه التقيد بتعاليمه في مواجهة متطلبات العصر التي هي في تطور لامحيص عنه ؟ واحياناً اخرىٰ يثيرون سؤالاً حول الطريقة التي يكيّف بها الانسان نفسه . فالبعض يرى انّ التكيف ضد الدين ، وآخرون اتخذوا من هذا الموضوع ذريعة لهم لمهاجمة الدين ، و يقولون : ينبغي ان لايتمسك الانسان بالدين لانّ الدين ضد التطور والتجديد ، ولو أراد الانسان التقدم والرقى في هذا العالم فعليه أن يكون من أنصار التجديد والتطور، ومن أعداء كلّ فكرة قديمة بالية ، و بالتالي ينبغي ان لا يكون متديناً لهذا السبب نفسه .

ولعل هناك من لا يعير أهمية لهذا الموضوع ولا يحسبه شيئاً يستحق الاهتمام ، لكن على هؤلاء ان يكونوا يقظين من انّ الموضوع اذا لم يكن مهماً بالنسبة اليهم فسيكون مهمّاً لأ بنائهم ، واذا لم يكن مهمّاً لهؤلاء هذا اليوم فسيكون مهمّاً لهم غداً ، إذاً من المناسب بمكان أن نفصّل فيه اكثر لننظر ما هو رأى الاسلام بالنسبة الى متطلّبات العصر، وماذا يتطلب المنطق الصحيح منّا لو صادفنا شخصاً أو أشخاصاً يتشدقون بقولهم : يجب مسايرة الزمان وتطوراته ، و يطلبون من علماء الدين انّ يكيّفوا أنفسهم مع متطلبات العصر، فهل إنّ اقتراحهم هذا صحيح ؟

لقد فضّلت ان اتحدث عن هذا الموضوع عدّة ليالٍ لأهميّته ، ومن الطبيعي ان مواضيع كثيرة ستتشعب منه لا بد ان نستوفيها بحثاً . . ومن هذه المواضيع : موضوع «الاخلاق» ففريق من الباحثين يرى انّ الاخلاق مسألة نسبيّة ، وهذا ما يلاحظ من خلال الكتابات المتداولة التي يذكر أصحابها انه لا وجود لاخلاق جيّدة ورديئة بشكل مطلق ، اي ان الاخلاق الجيدة تبقىٰ جيّدة دائماً ، والاخلاق الرديئة تبقىٰ رديئة دائماً ، ولكن الامر ليس بهذا الشكل ، لان بعض الاخلاق قد تصلح لافراد معينين في زمن معين في حين تكون رديئة عند آخرين ، فالاخلاق نسبيّة ، ولا وجود لأخلاق تصلح لجميع الناس وفي جميع العصور .

وهناك قضية اخرى يجب مناقشتها في هذا المضمار، وهذه القضية تتعلق بأساس التأريخ أي : ما هو أساس التأريخ ؟ وهي قضية بحثها الماركسيون وغيرهم ، ولهم نظريات حولها ، وهذا هو ما يدعونا الى أن نتناولها في محاضراتنا .

أما الآية التي تلوناها في بداية المحاضرة فلكي يتّضح مفهومها جليّاً لاحظوا هذا الموضوع : انّ الانسان اجتماعي بالطبع ، اي : لابد له ان يعيش مع المجتمع وإلّا ينقرض ، لكن ليس الانسان وحده يحتاج الى الحياة الاجتماعية اذ هناك حيوانات كثيرة لها حياتها الاجتماعيّة الخاصّة بها ، ولا يخفى فاننا لانقصد من الحياة الاجتماعية العيش معاً ، لان العيش معاً وحده لايعطى معنى الحياة الاجتماعية ، فمثلاً الغزلان ، نراها تعيش بشكل جماعي ، وترعى جماعياً ، وتتحرك كذلك ، لكن لايمكن القول انها ذات حياة اجتماعية لانها تفتقر الى تقسيم الأعمال والوظائف ، وكذلك تفتقر الى التنظيم ، فالحياة الاجتماعية اذاً تعني تقسيم الأعمال والمسؤوليات ، كما تعني التنظيم ، علماً انّنا لاننكر وجود حيوانات لها حياتها الاجتماعية ذات التنظيم وتقسيم الأعمال كالذي يُلاحظ في المجتمع البشرى .. ونلاحظ وجود الانتاج والتوزيع بين تلك الحيوانات إذ تنتج ما تحتاجه،و بعدذلك تقسمه وفق حساب معيّن .

صدر كتاب قبل عدّة سنين وهو تحت عنوان «سر خلق الانسان» لأحد الكُتاب الامريكيين وكان كتاباً رائعاً للغاية اعتمدتُ عليه في بعض كتاباتي ، وقد ترجم الى اللغة الفارسية . في هذا الكتاب يقول المؤلف : «انّ كثيراً من الحشرات الصغيرة كالنمل تمارس نشاطاً معيناً في حقل الزراعة والتدجين . وهناك حشرات تربى حشرات اخرى لها سائل يُشبه الحليب ، تستفيد منه تلك الحشرات وتوزعه بين أعضائها في مقابل تربيتها لها» فكما أنّ التنظيم يسود المجتمع البشري فهو يسود مجتمع تلك الحشرات حيث لها خلاياها المنظمة . ولها رئيسها وجنودها . علماً انّ الكتب التي اُلّفت حول تلك الحشرات جديرة بالملاحظة والاهتمام . اذاً لاتخص الحياة الاجتماعية عالم الانسان فحسب بل تتعداه الى عالم الحيوان لكن يبقى هناك بون شاسع بين العالمين ، فالدراسات العلمية التي قام بها عدد من العلماء تدلل على ان الحياة الاجتماعية للانسان تلازمه منذ أن يفتح عينيه على الحياة حتى لحظة مفارقتها ، اي على العكس فانّ تأريخ المدنية والحضارة الانسانية قد مرّ بمراحل مختلفة كثيرة ، فهناك انسان عصر الغابة ، وانسان العصر الحجري ، وانسان عصر الحديد ، وانسان عصر

البخار، وانسان عصر الذرة .. امّا الحيوانات فهي ليست كذلك لان لكل نوع من انواعها حياته الخاصّة به ، ولا تتطور او تتكامل حياة كل نوع من تلك الانواع الآ اذا تغيّر النوع ذاته وحلّ محلّه نوع آخر، و بتعبير آخر: ان حياة الحيوان تفتقر الى الابداع والتجديد ، فلا يستطيع ان يغيّر الوضع الذي هو عليه الى ما هو أحسن منه على عكس الانسان الذي تتميز حياته بالابداع والتجديد . فالتجديد صبغة الانسان وليست صبغة الحيوان ، ولكن لماذا ؟ فجوابه : هو تلك الآية الكريمة «انّا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال ....» وجوابه هو: ان الانسان كائن عاقل ناضج سليم التكو ين . وان الطبيعة سلبت منه حماية نفسه وتولى أمرها لتعوّضه عن ذلك بمنحه نعمة الحرية والاختيار والابداع والاستعداد لتحمل المسؤولية ، كما وضعت على عاتقه ان يتسلق سلّم الكمال بنفسه . ولا يخفى فانّ هذا الانسان العظيم في عقله وابداعه هو أضعف من جميع الحيوانات تكو ينياً وذلك بحكم قوله تعالىٰ : «وخلق الانسان ضعيفاً» [1] اي هو من الناحية الفعلية عاجز ضعيف ، اما من ناحية الاستعداد والطريق الذي يستطيع ان يطو يه بحريته فهو أرقىٰ من تلك الحيوانات واكثر منها استعداداً ، ولقد اوتي قابلية الانتخاب والاكتشاف والابداع ، كذلك فهو قادر على تغيير اشكال الانتاج والتوزيع وتطو يرها ، وعلى اختراع وسائل وآلات احدث وافضل من السابق ، و يتفوق هذا الانسان على غيره بقدرته على تغيير نظامه الحياتي ، واعادة النظر في علاقاته الاجتماعية وأساليب تر بيته وأخلاقه ، وتكييف الوضع الاجتماعي والظروف البيئية بما يخدم مصالحه ..

و بهذا نفهم انّ متطلبات العصر متغيرة بالنسبة الى الانسان وثابتة بالنسبة الى الحيوان . ومن هذا المنطلق يطرح هذا التساؤل وهو: ما موقف الاسلام بوصفه ديناً ونظاماً وقانوناً للحياة من متطلبات العصر؟ هل يوجب الاسلام التصارع مع متطلبات العصر ومحاربتها ، ويحول دون تفجر الطاقات البشرية المبدعة ، و يعطّل الزمن عن التطور والتجديد ؟ أو العكس هو الصحيح ، وهو: ان يستسلم لتلك المتطلبات و يذعن لها ؟ أو انّ هناك رأياً ثالث له تفصيلا ته الخاصّة به ؟

هذا ما سنبحثه في محاضراتنا القادمة ان شاء الله حيث ان قضية الاسلام ومتطلبات العصر تبدأ من هذه النقطة .

---

(١) النساء / ٢٨ .

تطوّران في عنصر الزمن

تطوران في عنصر الزمن

«انّا عرضنا الامانة على السمٰوات والارض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولا »[1] .

لقد اتّضح لي ليلة أمس انّ للاخوة رغبة في الحديث حول متطلبات العصر وذلك من خلال المناقشات التي دارت والاتصالات الهاتفية التي تلقيتها بعد المحاضرة .

ذكرتُ في الليلة المنصرمة انّ الانسان وحده له حياته المتطورة والمتكاملة من بين الكائنات الحيّة ذات الصبغة الاجتماعية ، اي ان الله خلق تلك الكائنات على وتيرة واحدة دون تغيير. ومنذ اليوم الاول الذي فتحت فيه عينها على الدنيا رافقتها حياتها الخاصة بكل نظمها وتشكيلاتها ، والعجيب انه كلما مر عليها الزمان لايطرأ أي تغيير في تلك النظم والتشكيلات . ولو أخذنا النحلة كمثال فان **الدراسات** التي قام بها عدد من العلماء حول هذا الكائن ذي النظام الاجتماعي العجيب قبل ألفي سنة ، والدراسات التي اجريت في عصرنا هذا لاتدل من قريب ولا من بعيد ان تطوراً قد حصل في حياة هذا الكائن الحي ، إذ ان التنظيم الذي يسود خلاياه اليوم هو نفسه التنظيم الذي كان عليه منذ آلاف السنين ، امّا الانسان فانّ آلاف التطورات قد برزت **في** حياته منذ ألفي سنة وحتىٰ اليوم .

علينا ان نعرف اولاً : ما هو السبب الذي جعل الانسان بهذا الشكل ، وجعل تلك الكائنات بشكل آخر؟ والجواب هو: ان تلك الكائنات تنطلق من الغريزة في بناء حياتها

---

(١) الاحزاب / ٧٢ .

وممارسة أعمالها لا من العقل . اي : انّ الله ـ تعالىٰ ـ أودع فيها قدرة خفيّة محفوفة بالأسرار ، عجز العلم عن اكتشافها ، وحين اقول ذلك فانما اقصد : ان تلك القدرة غامضة غير قابلة للمعرفة والكشف من الناحية المادية الآ ما ذكره القرآن الكريم في قوله تعالىٰ : « واوحى ربّك الى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتاً »[١] والوحي هنا هو الالهام والتفهيم عن طريق خفي يختلف عن تلك الطرق المتداولة . وهذه القدرة المودعة في النحل هي التي يطلق عليها العلم « الغريزة » واطلق عليها القرآن « الوحي » .. وهي ملازمة له دوماً وأبداً ، وتتولى توجيهه وارشاده . اما الانسان فهو ليس كذلك لانه اوتي قدرة عظيمة نسيمها « العقل » او « الابداع » فالانسان يتمتع بقابلية الابداع في حين يفتقد الحيوان هذه القابلية ، وهنا يكمن صلب الموضوع .

انّ الابداع يعني التجديد ، وابتكار خطط جديدة في الحياة ، كما يعني الا تيان بشيء جديد غير موجود فعلاً ، وهذا شيء يفتقر إليه الحيوان لانه يعرف فقط تلك الغريزة المودعة فيه عن طريق الايحاء ولا يتخطاها بابداع شيء من عندياته لفقده القدرة على ذلك ، اما الانسان فقد اودعت فيه قدرة عجيبة على التجديد والابداع ، وسلبت منه تلك الغريزة التي تحمل المواصفات الحيوانية ، وكأنه قد اوحى له انه لا يستطيع الحياة الآ في ظل قوة العقل والابداع . ومن الطبيعي انّ للانسان وحياً . واقصد بذلك نزول الوحي على بعض أفراد النوع الانسان وهم الانبياء ليسعفهم في القضايا التي يعجز الحِسّ والعقل عن علاجها ؛ فيأتي الوحي ليقود الانسان و يوجهه علماً ان هذا الانسان لم يسلب قوّة الابداع التي تؤدي دورها في المجالات التي تتمكن فيها ، وهنا يتعطل دور الوحي ، أعني : عندما تمارس قوّة الابداع عملها لا يتدخل الوحي أبداً .

ربما انّ هذا الانسان ذو قدرات وقابليات فان حياته على الصعيد التكويني يجب أن تبدأ من الصفر ، وقد بدأت من الصفر فعلاً ، بعد ذلك تطور شيئاً فشيئاً بفضل قوّة الابداع التي اودعت فيه ، واستطاع ان يُحدث انقلاباً في أوضاعه الحياتية متنقلاً من مرحلةٍ الى اخرىٰ ومن عصر الى آخر . والنتيجة هي ان ما يسمّىٰ بالحياة الحضارية للانسان هي ذات مراحل مختلفة . اما حياة الحيوان فهي ليست كذلك . وعندما يقال انّ متطلبات العصر في تطور ، فان هذا القول

---

(١) النحل / ٦٨ .

صحيح ، وذلك ان سبب تطورها يرتبط بالخلقة التكوينية للانسان .

انّ متطلبات العصر لا تتبدل عند الحيوان في حين تتبدل عند الانسان ، وليس في الحيوان نزعة نحو التجديد والتطور، امّا في الانسان فهي موجودة ، والزمن في حساب الحيوان واحد لكن في حساب الانسان ليس كذلك . وليس على الحيوان تكليف إذ هو يعمل كالماكنة الآلية ، اما الانسان فهو مكلف ومسؤول عن عمله . والتكليف والمسؤولية وأمثالها هي الاشياء التي أطلق عليها القرآن اسم الامانة التي عرضت على السموات والارض والجبال فأبين ان يحملنها لعدم استعدادهن . (ولا يخفىٰ فان هذه الاشياء التي ذكرت هي كأمثلة فقط لانّ المقصود هنا جميع المخلوقات والكائنات) . ولم يك هناك الّا الانسان الذي تبرع بحمل تلك الامانة وكأنه اجاب ربّه قائلاً : ياربّ انا أتحمل هذه المسؤولية ، وانا بنفس ارتقى سلّم الكمال والسعادة بفضل ما مننتَ به عليَّ من قابلية عجيبة ألا وهي قابلية الابداع ، و ببركة ما تفضلت به عليّ من قوّة عظيمة ألا وهي قوّة العقل .

وفي حديثنا عن الانسان والحيوان ومواصفات كل منهما ، يبرز فرق آخر بين الا ثنين ، وهذا الفرق هو كما تكون حياة الحيوان معدومة التطور والتقدم ، فهي كذلك منعدمة من التردي والانحراف ، وكذلك ليس فيها معنى للسمو والوضاعة ، اي : انكم لا تستطيعون ان تعثروا على خلية فاسدة أو منحرفة من خلايا النحل ، أو ان اخلاق هذه الخلية أو تلك رديئة منحطّة ، او انّ خليّة غيّرت تنظيمها وتنسيقها أو خالفت نظام عملها الجاري وانقرضت بسبب هذا الخلاف . امّا عالم الانسان فهو حافل بهذه الاشياء ، اي : انّ الفساد والانحراف محتملا الوقوع في حياته ، وكما يمكنه أن يسمو فكذلك يمكن ان ينحدر الى الحضيض ، فكلا الاحتمالين واردان ، وكما يمكن ان يرتقى نحو الافضل بفضل استعداده العقلي والعلمي ، فكذلك يمكن ان يقع من هاو ية التردي بسبب انانيته وهوى نفسه ، فاحتمال السقوط والانحراف لدى الانسان ينبثق عن طريقين : احدهما : الظلم وسحق حقوق الآخرين والخروج عن جادّة العدالة ، والثاني : الجهل .

ما هو هذا الجهل ؟ الجهل يعني ارتكاب الخطأ .. وهذا ما ليس له وجود في عالم الحيوان ولعله يحدث في بعض الاحيان لكن حدوثه قليل جداً ، وليس كما عند الانسان الذي يمكن ان يفسد عالماً بكامله وقوماً بأجمعهم . وعندما ذكرتُ ان ارتكاب الخطأ يندر وقوعه في

عالم الحيوان فاني ادعم كلامي بما يقوله بعضهم : من انه يمكن لمجموعة العمال من بين خلايا النحل ان ترتكب خطأً ، وهو، مثلاً ، تكلف هذه المجموعة بالبحث عن الورود والازهار اللطيفة ذات الرائحة الطيّبة . لتتغذى عليها وتنتج العسل ، لكنها ـخطأًـ تتغذى على ورود وازهار كريهة الرائحة .. فهذا خطأ صغير جدّاً ويمكن تلافيه فوراً . وهناك مأمورون في الخلية مسؤولون عن هذه المجاميع فاذا ما ورد أحد أعضائها من العمّال يشمّونه و يرون هل ادّى مهمّته على النحو المطلوب أولاً ؟ فاذا شعروا انّ هذا العامل أو مجموعة العمّال قد قصّروا في مهمتهم ، فانهم يصدرون أمراً بتشكيل محكمة ميدانية فوراً و يقتلون اولئك العمّال بما عندهم من أسلحة .

ولهذا نجد انّ القرآن الكريم بعد أن يبيّن عرض الامانة على المخلوقات ، و يذكر امتناعها عن حملها ، وسبق الانسان اليها ، يعقّب على ذلك مباشرة بقوله : «انّه كان ظلوماً جهولا» فالانسان كثير الجهل علماً انّ **الإستعدادين،** استعداد السمو والتطور من جهة ، واستعداد السقوط والانحراف بسبب الظلم أو الجهل من جهة اخرىٰ لا ينفصلان عن بعضهما الآخر .

وفي القرآن آيات اخرىٰ تحمل نفس المضمون ، وهي الآيات الواردة في أول سورة الدهر: «هل اتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا . انّا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيرا . انّا هديناه السبيل إمّا شاكراً وامّا كفورا»[١] .

ما معنى هذا الابتلاء ؟ وكيف يتحقق ؟

لا ريب انّ هذا الابتلاء يتحقق عن طريق التكليف والمسؤولية . أي كما ذكر الباري تعالىٰ بقوله : انّا نبتلى الانسان بتفويض المسؤولية اليه ، وجعله مكلفاً تاركين له حرية الاختيار وقائلين له : انّ هذين طريقان ، احدهما هو الطريق المستقيم ، والثاني هو الطريق المنحرف ، فان سلكت الاول فانك ستصل الى ذروة السعادة ، وان سلكت الثاني فسيوقعك في الحضيض .. و بعد ان يذكر القرآن الكريم قضيّة الابتلاء يعقّب بقوله : «وجعلناه سميعاً بصيرا» ، و بعدها : «انّا هديناه السبيل امّا شاكراً وامّا كفورا» وفيه **يتبيّن** انّ الانسان هو الكائن الفريد الذي يتمتع بذلك التكوين العجيب ، والتركيب الغريب الذي يؤدّي به أن

---

(١) الدهر/ ١-٣ .

يتقدم تارةً ، و يتخلف تارة أخرىٰ .. و بعبارة اخرى : ان الانسان هو الذي يصنع عصره ، وهو الذي يؤثّر على زمانه بالاحسان أحياناً والاساءة أحياناً اخرىٰ .. وهو بهذه الصفة على خلاف الحيوان الذي يعتبر صنيع الزمان وتابعه ، عديم الارادة ، ومفتقراً الىٰ التصميم ، فهو ربيب الزمان مائة بالمائة .

ومن هذا نصل الى موضوعنا الذي ذكرناه وهو ان التطورات الحاصلة في حياة الانسان تنقسم الىٰ قسمين : احدهما : صحيح . والآخر غير صحيح ، والاول : يتعالىٰ نحو السمو والثاني : يتسافل نحو الدنوّ.

اذاً نستنتج من هذا التقسيم موضوعاً آخر وهو اننا لو سئلنا عن موقفنا من التطورات الحاصلة من الزمن ، هل نسايرها أو نعارضها ؟ وجوابنا هو: لانسايرها تمام المسايرة ولا نعارضها كذلك ؛ والسبب هو ان الزمن صنيع الانسان ، وبما انّ الانسان يستطيع ان يكيّف زمانه نحو الأحسن كما يستطيع تغييره نحو الأسوأ ، اذاً ينبغي مسايرة التطورات الحاصلة في الجهة الافضل ، وعدم مسايرة بل الاجدى معارضة التطورات الحاصلة في الجهة الأسوأ .

وهنا يثار سؤال آخر وهو: ما هي التطورات التي يمكن اعتبارها تقدماً وصلاحاً ، وما هي التطورات التي يمكن اعتبارها تخلفاً وفساداً ؟ من أين نفهم ان الأوضاع التي تتطور جيّدة و ينبغي علينا مسايرتها ، أو رديئة ويجب معارضتها ؟ ما هو المعيار في التشخيص ؟ انّ العقل دليلٌ حاذق للانسان . هذا العقل منحه الله تعالى للانسان ليميز بين النور والظلمات ، بين طريق الكمال وطرق الانحراف . والطبيعة البشرية للانسانِ تدل على انه قد يسلك الطريق الصحيح بحكم عقله ، وقد لا يسلك هذا الطريق بحكم خطأه وجهله واتخاذه هواه الهاً فيسير نحو الانحراف والتردى .

ان المعيار العام هو ان نلاحظ بدقه ما هي جذور أو اسباب بروز الظواهر المختلفة في كل زمان ؟ وما هي أهدافها ؟ و بعبارة اخرى : ايّ من استعدادات الانسان المختلفة تكون سبباً لبروز ظاهرة من الظواهر ؟ وما هو هدف بروزها ؟ وما هي نتائجها ؟ علينا أن نلاحظ ما يحدث في زماننا هل هو نتاج العقل والعلم البشري أو نتاج شيء آخر ؟ ولو فكّر أحدنا مليّاً بكل ظاهرة من الظواهر الحادثة في عصرنا فقد يجد انها حقاً من نتاج العلم والعقل مائة بالمائة ، وقد لا يجد ذلك بل يجد انها من نتاج العلم لكن ليس العلم الطليق الحر بل العلم البائس المكبّل ،

فعلى سبيل المثال لو أخذنا علم الفيزياء الذي بذل بعض العلماء أقصى جهودهم حتى طورّوه ، فانّ من مواضيعه موضوع «الضوء» هذا الموضوع الذي طالته دراسات الانسان منذ آلاف السنين بالبحث والتحقيق لمعرفة كنهه وحقيقته ، تثار حوله أسئلة كثيرة منها مثلاً : ما هي حقيقة الضوء ؟ عندما يشاهد الانسان الاشياء ، فكيف يشاهدها ؟ كيف يحدث انعكاس الضوء وانكساره ؟ ما هي قوانين الضوء ؟ مِن بين العلماء الذين بحثوا في الضوء : العالم المسلم الشهير: الحسن بن الهيثم الذي كان فلكياً ، ورياضياً ، وعالماً طبيعياً ذا عقلية جبّارة ، وله دراسات عجيبة حول الضوء أذعن لها الاوربيون أنفسهم حيث اعترفوا ان اكثر نظرياتهم حول الضوء أخذوها من هذا الرجل العملاق . وكتابه المشهور في البصريات «علم المناظر» متداول هذا اليوم . و يعتبر روجر بيكون ـوهو أحد عباقرة اوربا وكان يعيش في القرن الثاني عشر الميلادي ـ نفسه مديناً لابن الهيثم ،و يذكر انّ كل ما عنده من علم ، أخذه من ابن الهيثم و بلاد الاندلس ، و ينقل عنه و يل ديورانت في كتابه «تاريخ الحضارة» وكذلك غوستاف لوبون في كتابه «تأريخ الحضارة الاسلامية والعربية» قوله بكل صراحة ان استاذه الاصلي في علم الطبيعيات هو ابن الهيثم ، وانه قد استفاد من كتبه كثيراً .. ولا يخفىٰ فان الكثيرين من الذين جاؤا فيما بعد طوّروا هذا الموضوع أعني موضوع «الضوء» وعملوا على تقدمه كثيراً .

و بفضل معرفة الضوء وكيفياته ، تعلم الناس كيفية التقاط الصور والافلام . وهنا يتجلى دور العلم . فهل العلم هنا تقدم أو لا ؟ من الطبيعي انّه قد تقدّم ، فماذا في وسع الانسان هنا أن يعمل ليستفيد منه ؟

والآن لاحظوا بدقة ، فبينا العلم يؤدي دوره بالاكتشاف والاختراع يُفاجأ بظهور انسان أناني جشع يتخذ منه وسيلة لسلب الناس ونهبهم وافساد اخلاقهم .. وكذا يستغل هذا العلم فينتج افلاماً ماجنة هدّامة تؤدي بالناس الى الانحراف .. وهنا يكمن معنى كلامي الذي ذكرته من وجود علم غير حر بل مكبّل ، فيجعل ذلك الانسان العلم أسيراً تحت سيطرته اذ يعد افلاماً منحرفة تكون نتيجتها فساد أخلاق الناس ، فهل يمكننا والحالة هذه ان نقبل بالفلم السينمائي الفلاني بحجّة انه من مخترعات العصر ومتطلباته ، وانه من نتاج العلم ؟ وهنا **نجيب** بالنفي ، لانّ هذا الفلم ليس نتاج العلم فحسب ، بل هو خليط منه ومن الشهوة التي يعمل أصحابها على تسخير ذلك العلم ليصب في خدمة مصالحهم الذاتية ، و ينتج شيئاً كهذا .

وهناك مثال آخر وهو علم الكيمياء ، العلم الذي يبيّن خواص تركيبات الاشياء ، وتمكن الانسان من تحضير مركبات عجيبة من تلك العناصر كالادو ية مثلاً .. هذا العلم يتقدم و يتطور و يقدّم لبني الانسان مختلف المركبات مع خواصّها ، فهو عند هذا الحد علم ورُقيّ وتطور لصالح البشرية ، فهل علينا ان نساير هذا العلم ونتابع تطوراته ؟ نعم ، علينا أن نسايره ونؤيده لكن لو وصل هذا العلم إلىٰ مرحلة يكون فيها أداة بيد بعض المنحرفين لخدمة مآربهم الخسيسة كالذي حصل عند بعض الاشخاص الذين درسوا وتخصصوا في هذا العلم وأصبحوا على معرفة بخواص تركيب الاشياء والعناصر فصنعوا مادّة قتّالة فتاكة كالهيروئين الذي هو أخطر من الترياك نفسه أضعافاً مضاعفة من ناحية التخدير وفقدان الشعور ، ومن ناحية الارتخاء والفتور الذي يصيب البدن ، فموقفنا هنا يختلف عن سابقه اي لا نساير علماً كهذا حيث يحمل في طياته بذور دمار البشرية وفسادها .

ولو قدر لأشرف واعف امرأة في الدنيا ان تُدمن على تعاطى الهيروئين -لا سمح الله- فانها عند الحاجة تبيع شرفها وتستسلم لمن يلبّى لها طلبها باعطائها مقداراً منه لاشباعها ، مقابل بيع شرفها . وهذا هو حقيقة البلاء الذي منيت به البشرية . ولنا أن نسأل هنا : هل للعلم دور في تحضير الهيروئين أو لا ؟ نعم ، للعلم دور في ذلك لكن ليس العلم بحقيقته المجرّدة صنع ذلك بل الرغبات الشهوانية الشيطانية هي التي صنعته .. لانّ العلم كالمصباح بيد الانسان اين ما أخذه أضاء له ذلك الحيّز الذي اصطحب معه المصباح اليه . فالمهم هنا هو هدف حامل المصباح وغايته . فمثلاً صيدلاني ما حائز على شهادة عالية في الصيد له وله خبرة في تحضير الادو ية يفكر في نفسه انه بدل ان يفتح صيدلية حيث يكون دخله الشهري ثلا ثة أو ار بعة آلاف توماناً ، يقوم بصنع الهيروئين ليكون دخله الشهري عشرين أو ثلا ثين ألف توماناً ، فهل يمكننا هنا اعتبار الهيروئين السام نتاج التطور الزمني والتقدم العلمي في هذا القرن ، ونقر به ، ونتعاطاه على انه من متطلبات العصر ! ؟

إذاً العلم المطلوب هو العلم النافع المفيد للبشرية ، والذي يكون بيد العناصر الخيّرة في المجتمع ، وما أعظم القرآن حين يذكر استعدادين عند الانسان في آن واحد اي متحدّين معاً وهما : استعداده للابداع ، وقد تمثل في قوله تعالىٰ : « إنّا عرضنا الامانة » واستعداده للظلم ، وقد تجسد في قوله تبارك اسمه : « انّه كان ظلوماً جهولا » فهما لا ينفصلان عن بعضهما الآخر ،

اي : ان وجود الاستعداد للظلم قد جعل الابداع البشري في خدمة توجهه . والنتيجة هي : عندما تصب قابلية الابداع في خدمة النزوات الشخصية الشهوانية ، فمن الطبيعي ان تكون هناك افلام مدمّرة هدّامة ، و يكون هناك هيروئين .

واود ان اقدّم مثالاً آخر حول الموضوع .

انّ افضل تسمية تطلق على هذا العصر هي انه «عصر الذرة» لكن لما صمم الانسان أن يستفيد من الطاقة الذرية بأقل ما يمكن لسد بعض حاجياته الضرورية ، راح المتسلطون على الناس يعملون على ارغام العلماء لصنع القنبلة الذرية لتكون أداة بيدهم من أجل كم أفواه كل من يرغب في استنشاق نسيم الحرية ، فهل يمكن القول انّ هذه القنبلة من نتاجات الاكتشاف الذري في هذا القرن وانّها صالحة وتنطبق عليها صفة متطلبات العصر ؟ فان كان ولا بد من مسايرة التطور، فلماذا تئنُّ البشرية من موضوع «سباق التسلح» الذي ملأ الآفاق صداه ، وأصبح شبحاً مخيفاً بحيث أُرغم دعاة الخير أن يقولوا : هيّا ! لنحرّم صنع السلاح ! لنقاطع صنّاع السلاح !! وسلاح كهذا اي : السلاح الذري . لماذا اذاً يوجّهون نداءاتهم لمكافحتها ؟

هذا هو منهج العلم لكنه كما ذكرتُ آنفاً ليس العلم الحر. وهنا أيضاً تبرز قابلية الابداع وهي تحت تصرف ذوي الجاه والتسلط بكل جلاء و وضوح و بعبارة اخرى : انّ الابداع أسير ذوي الجاه .

ينقل انه اقيم حفل تكريمي على شرف الفيزيائي الاميركي الشهير البرت اينشتاين وكان حاضراً فأثنى عليه العلماء بذكر مآثره من خلال كلماتهم التي ألقوها ، ولما حان دوره للحديث قال : انكم تقيمون حفلكم التكريمي لهذا الرجل الذي أصبح سبباً في صنع القنبلة الذريّة في العالم !

ولا يخفى فان هذا الرجل عندما حقق تلك الاكتشافات في حقل الفيزياء لم يدر في خلده أبداً أنّه ستصنع قنبلة ذريّة من وراء اكتشافاته وانما كان يطمح ان تصب اكتشافاته في خدمة البشرية لكن لم يتحقق ذلك الطموح إذ لا زال في باكورة أعماله ، ففوجىء باولئك الرجال الطامعين المتسلطين من أمثال روزفلت ، ستالين ، خروشوف ، ايزنهاور، تشرشل ، وهم يستغلون ذلك العلم المفيد ليصبّوا جام غضبهم وعنجهيتهم على البشرية المسكينة تحقيقاً لنزواتهم الشخصية في حب الجاه والتسلط . والذي اخترع جهاز التسجيل ، كان هدفه خدمة

المجتمع وتقديم دروس مفيدة له من خلال تسجيل الخطب والكلمات ووقائع الجلسات والندوات والدروس المختلفة حتى يستفيد منها الناس أكثر، ولكن حدث العكس اذ لم تسجل خطبه او وقائع جلسة وندوة أو درس أو درسان بعد، واذا بالاغاني المبتذلة المثيرة للشهوة تملأ الدنيا بضجيجها .. وما هذا ؟ هذا يبيّن لنا ان عبادة الشهوة الكامنة في الانسان تترصد الامور لتستغلّ العلم في خدمة مصالحها .

اذاً نفهم من هذا كله ان الانسان كما يمكنه ان يتقدم و يتطور، كذلك يمكن ان ينحرف ، ولقد أخبرنا معلّمو الاخلاق منذ أقدم العصور بهذا الأمر اذ ذكروا ان وجود العلم عند الانسان لا يدل على انه سيجعله في خدمة البشرية اذ يمكن ان يكون هناك عالم لكن يسخّر علمه في خدمة شهوته .

يقول امير المؤمنين (عليه السلام): «... ها انّ هاهنا لعلماً جمّاً (واشار بيده الى صدره) لو أصبتُ له حَمَلَةً ! بلى أصبتُ لقناً غير مأمونٍ عليه ، مستعملاً آلة الدين للدنيا ، ومستظهراً بنعم الله على عباده ، و بحججه على أوليائه ، او منقاداً لحملة الحق ، لا بصيرة له في أحنائه ، ينقدح الشك في قلبه لاول عارض من شبهة ، ألا لا ذا ولا ذاك ! أو منهوماً باللّذة ، سلس القياد للشهوة ، أو مُغرماً بالجمع والادّخار.....» .

و يقول الشاعر سنائي : «يجب أن تخشى من علم تتعلمه لاجل الحرص والطمع لانّ مثلك في ذلك مثل السارق الذي يدخل داراً ليلاً و بيده مصباح فانه ينتقى افضل الا ثاث وأحسنه» .

وهذا الكلام صحيح جداً إذ لا يكفي ان يدّعي الانسان بالعلم و يعمل ما يشاء حتى يقول القائل : ان كل ما يعمله صحيح .. كلاّ بل علينا أن نتعرف على حقيقة العلم الذي يحمله هل هو علم حر أو أسير؟ وهل يسخّر الانسان علمه في الطريق الذي يستصوبه عقله أو في طريق آخر، وعلى حد تعبير أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ «مستعملاً آلة الدين للدنيا» .

هذا فيما يخصّ فرداً واحداً فكيف بالمجتمع الذي يعمل جمع من العلماء على تطويره وتقدمه ، وجمع آخر من الناس المستغلين يتحيّنون الفرص لاستغلاله ؟

اذن هذا معيار يمكن ان نحصل عليه لنحكم على التطورات التي تطرأ في كلّ عصر، أيّ منها تطورات مفيدة نافعة ، وأيّ منها مضرّة ورديئة . وفي التطورات التي تصب في خدمة

النزوات الشخصية المغرضة ، لاينبغي مجاراتها على انها من متطلبات العصر لان هذه المجاراة تعني السقوط والتردي .

ولو قلتم ان هذا العصر هو عصر العلم . فنقول : نعم انه عصر العلم ولكن هل العلم وحده ؟ وهل نضبت مناهل الوجود الانساني الاخرىٰ ليبقىٰ العلم وحده ؟ وهل يكفى ان يكون الانسان عالماً فقط ؟ ألم تكن عند هذا الانسان طاقات اخرىٰ ؟

ومن الملفت للنظر انّه لم يسترق العلم في عصر من العصور كما استرق في عصرنا هذا ، لذلك لاينبغي ان نطلق على هذا العصر «عصر العلم» بل عصر استرقاق العلم ، وعصر أسر العلم ، أي لم يترك العلم حُـرّاً كما هو ، ولم يطلق له العنان ان يؤدي دوره المطلوب في خير البشرية ونفعها كما كان في الأعصار المنصرمة حيث كان أكثر انطلاقاً .. ولم تمر عليه فترة لقى فيها من التعاسة والاستغلال والتكبيل كما لقى في واقعنا المعاصر هذا .

ولو تابعتم الاحداث لوجدتم انّه بمجرد ظهور عالم حاذق في حقل من الحقول كحقل الاختراع مثلاً أو علم النفس فانّ القوى السياسية المتسلطة تبادر فوراً الى كسبه ووضعه تحت تصرفها ، مطالبةً ايّاه أن يسخر علمه في خدمة أهدافها وتوجهاتها . ولا حيلة له عندئذٍ ، ولعل افضل مثال على ذلك هم «علماء الذرّة» الذين هم أتعس حظاً من الآخرين في عالم اليوم ، ففي كل مكان يبرز فيه عالم ذرى من الطراز الاول فانّ تلك القوى المتمكنة تبادر الى اعتقاله ليضع علمه تحت تصرفها لئـلاّ يطّلع على ذلك الأعداء . وتنظم تلك القوى برنامجاً معيناً وتطلب من ذلك العالم ان يعمل في ضوئه وليس له أن يخرج عليه أو يحيد عنه بل ليس له حق الحياة دونه علماً انّ العلماء من الطـراز الاول حيثما وجدوا فانهم يعلمون أسراراً من العلوم الطبيعية لايعلمها غيرهم . ولعل في الاتحاد السوفيتي لفيفاً من هؤلاء (ولا يعلم احد عددهم لانه من ضمن الأسرار) وكذلك في الولايات المتحدة الاميركية . ولكل من هؤلاء العلماء مائة مرافق ومراقب حتى لايفشى الاسرار للآخرين ، أو لا تُـسرق منه تلك الأسرار ، فمن أتعس من هؤلاء العلماء الفاقدين للحرية ، التي نتمتع بها نحن ، والذين ليس لهم حق الا تصال حتى باخوتهم ! والسبب معروف كما نعلم اذ ربما يفشون لهم شيئاً من تلك الاسرار ، واذا فعلوا ذلك فانّ هؤلاء يذهبون و يقدّمون تلك الاسرار الى حكومة اخرىٰ ، وربما تحصل مواجهة بين الحكومتين .

اذاً ايّ عصر علم هذا ؟ نعم ، قد نعبّر عنه انه عصر العلم ، ولكن ليس عصر حريّة العلم ، بل استرقاق العلم وأسره .. انه عصر سيطرة قوى اخرى غير قوّة العلم على مقرّرات الشعوب ومصائرها ، وكذلك استغلال تلك القوى لقابليات العلماء كوسيلة لتحقيق أهدافها .

ولو قلنا عندئذٍ : اننا لاينبغي ان نساير متطلبات العصر وتطوراته بشكل تام مطلق ، فانّ هذا لايعني تعارضاً مع العلم والتطور . وانما يعني اقراراً بالواقع حيث ان سبب ما ذكرنا هو اننا نعلم انه لم يحن لحد الآن عصر يكون العلم فيه حُرّاً أو العقل حُرّاً ، او تكون للاثنين سيطرة على شهوات الناس وحبّهم للجاه والشهرة ، و بعبارة اخرىٰ : لم يأنِ عصر يكون فيه اينشتاين حاكماً وروزفلت محكوماً ، بل العكس هو الصحيح . ولافلاطون نظرية معروفة هي نظرية « المدينة الفاضلة » حيث يقول فيها : ان العالم لايرىٰ السعادة الاّ في زمان يكون فيه الحكماء حُكّاماً ، والحكّام حكماء ، امّا اذا كان الحكماء شريحة ، والحكّام شريحة اخرىٰ فلا يرىٰ سعادة أبداً .

ونعتقد نحن المسلمين ولا سيّما اتباع أهل البيت ـ عليهم السلام ـ انّ عصر السعادة الحقيقية للبشرية هو عصر ظهور الامام المهدي ـ عليه السلام ـ وهو عصر العدالة بكل ما للكلمة من معنىٰ . وهو نفسه العصر الذي تكون اول ميزاته تحكم العقل لا الهوىٰ في مختلف الميادين ، وكذلك هو عصر تكون للعلم فيه منزلته الخاصّة به حيث لن يكون مسترقاً مكبّلا ، ولا بد ان يكون كذلك . و يعبّر امير المؤمنين ـ عليه السلام ـ عنه بانه عصر يرتشف فيه الناس كأس العلم والمعرفة حيث يقول ـ عليه السلام ـ « و يُغْبَقون كأس الحكمة بعد الصَّبوح » [١] .

وورد في الكافي : انّ في عصر الظهور ، يضع المهدي يده على رؤوس الناس فتزداد عقولهم .

واود ان احيطكم علماً اني قد لا اكون حقّقت مرادي في شرح هذا الموضوع و بيانه ولكن كونوا على علم انه من الخطأ بمكان ان نعبر عن هذا العصر بانه عصر العلم ، او عصر العقل ، أو عصر الفكر ، لانه لاحرية للعقل والفكر والعلم فيه حيث العالم لازال عالم الشهوات وحب الجاه والظهور .

---

(١) نهج البلاغة / الخطبة ١٥٠ . يُغبقون : يُسقون بالمساء . الصَّبوح : ما يُشرب وقت الصباح .

سافرتُ في الشهر الماضي الى خوزستان وكان قد اقيم هناك احتفال بمناسبة النصف من شعبان يوم ولادة الامام المهدي -عليه السلام- فالقيتُ كلمة خاطبتُ الحاضرين بها قائلاً : اذا اردتم ان تعرفوا في ايّ عصر نعيش ، واي شيء يتحكم بمصائر الشعوب ، فلاحظوا وضع الهيبيّين التافهين الذين أثاروا في العالم ضجيجاً مفتعلاً ليوجهوا الانظار نحوهم . وقد ذكرت صحفنا انّ هؤلاء لمّا ذهبوا الى اميركا غطّوا على كافة الاحداث السياسية حيث سلطت الاضواء عليهم دون غيرهم ، ويحكي لنا هذا عن الروح العامة التي تسيطر على الشعب الاميركي . وذكرت الانباء ان و يلسون رئيس وزراء بريطانيا عندما وصل اميركا لم تكتب الصحف المهمّة مثل نيو يورك تايمز عن قدومه الآ اربعة أسطر في حين خصّصت صفحات كثيرة منها للحديث عن هؤلاء الهيبّيين ، وقد ذاع صيتهم في الآفاق حتىٰ قالوا هم عن انفسهم انهم اكثوا شهرة من السيّد المسيح -عليه السلام- . فهل يترجم لنا هذا التوجه ان هذا العصر هو عصر العلم والعقل ؟

وقد ذكرتُ انه يبدو انه عصرنا لا زال عصر الهيبيّين وليس عصر و يلسون ، وقلتُ : حتىٰ لو كان عصر و يلسون ، فما عسانا أن نفعل ؟ فينبغي علينا اذاً ان لا نصدق مائة بالمائة بكلّ ما يحدث في العالم ، و بكلّ ما يظهر فيه من جديد ، وكذلك لا نخدع ببريق متطلبات العصر ، حيث لا زال هناك بون شاسع بيننا و بين الوقت الذي تكون فيه جميع تطوراته صحيحة ومفيدة ... والى هنا اكتفى بهذا المقدار منهياً محاضرتي لهذا اليوم .

المجتمع النّامي

المجتمع النامي

«ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزرّاع ..»[1] يذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة مثلاً للمسلمين الذين يتبعون التعاليم النبوية الشريفة، وهذا المثل له علاقة وطيدة مع موضوع بحثنا.

يقول القرآن الكريم: ان هؤلاء المسلمين قد ذكروا في الانجيل كالزرع الذي يخرج ورقه بادىء ذي بدء وهولا شك رقيق (أخرج شطأه)، لكن لا يبقى هذا الورق على حاله، اذ كلّما انتشر في الارض واصبح له سويق، قوي وكانت له صفة اخرى اي: يقوى الورقة الاولى التي بدأت في الظهور (فآزره)، بعد ذلك يقوى اكثر ويكون سميكاً (فاستغلظ) ثم ينتصب قائماً على سويقه (فاستوى على سوقه) وحينما ينظر اليه الزرّاع يغمرهم العجب وينبهرون. وهذه هي نفسها حاله النمو والاستقلال والسمو التي تغضب الاعداء وتكون شوكة في عيونهم، وحينما ينظر الكفار الى تلك الفئة المؤمنة فانهم يزدادون غيظاً.

ما هو هذا المثل المذكور؟ - يجيبنا القرآن نفسه انّ هوية أصحاب هذا المثل، انهم «اشدّاء على الكفّار رحماءُ بينهم تراهم رُكّعاً سُجّداً».

ارجو منكم ان تنتبهوا لهذا الموضوع في ضوء الآية الكريمة المذكورة، وهو: ان العبادة لاتنفصل عن صميم الاسلام، وإنّ بعض الاشخاص ممن اطّلع على الفكر الاسلامي قد سبّب لهم هذا الاطلاع ان ينظروا الى العبادة نظرة ازدراء وامتهان، ولكن هؤلاء على خطأ لان

---

(١) سورة الفتح / ٢٩.

العبادة جزء لا يتجزأ من الاسلام على الصعيد النظري والعملي في آن واحد . فلا العبادة لها نكهتها دون الفكر والتعاليم الاجتماعية الاسلامية ، ولا الفكر والتعاليم لهما طعمهما دون العبادة فلابدّ من اجتماع الاثنين .

وقبل هذا يقول القرآن الكريم في وصف تلك الثلّة المؤمنة : «يبتغون فضلاً من الله ورضواناً» اي : انهم يريدون من الله الكثير ، ولا يقنعون بما عندهم بل يريدون اكثر علماً انّ ما يريدونه ليس من الاشياء التي يطلبها الماديّون الذين يلهثون وراء المال والماديّات فقط .

ان هؤلاء المؤمنين ، في الوقت الذي يطلبون فيه الكثير من الخير ، فهم يقرنونه بمرضاة الله تعالىٰ ، اي : يطلبون رضاه ـ جل شأنه ـ مقروناً مع الخير الكثير ، فطلبهم الكثير يصب في طريق الحق والحقيقة .

بعد ذلك يقول : «سيماهم في وجوههم من اثر السجود» فالاسلام ظاهر على ملامح وجوههم ، وآثار العبادة بارزة على محيّاهم ، وليس المقصود من هذا كثرة السجود الذي يؤدي الى ظهور ثفنات في جباههم ، بل المقصود هو انّ خصوصية العبادة تترك اثراً على سيما الانسان العابد وتؤثّر في سلوكه . وهناك علاقة عظيمة بين روح الانسان وجسده .. وافكار الانسان ، واخلاقه ، وآراؤه ، وملكاته تترك بصماتها على محيّاه ، فمحيّا الانسان المصلّي ليس كمحيّا تارك الصلاة .

ما أعظمه من مثل ضرب به الله ـ تعالىٰ ـ للمسلمين الاوائل ! انه مثل الوعي والتكامل .. انّه مثل المؤمنين الذين يرتقون سلّم الرقى والتطور ، ووجوههم شطر الكمال والتقدم دوماً وأبداً .

والمثل هو تشبيههم بالزرع الذي تتفتح أوراقه ، ثم يكون له سويق سميك ذو اوراق كثيرة ، و يكون شجيرياً لا كسائر الشجيرات .. انه الزرع الذي يبهر الزراع أنفسهم بل و يبهر كافّة الذين لهم باع في التربية الانسانية ، اذ حينما ينظرون اليه يملأ العجب كل وجودهم من نموٍ بهذه السرعة ، وجودةٍ بهذه الدرجة ، ويملأ العجب كيان سقراط وأمثاله ، أجل ، فانّ من الامور المحيّرة للبشرية على الصعيد العالمي تلك السرعة الفائقة لنمو المسلمين واستقلالهم والذي يعبّر عنه القرآن الكريم بالآية : « .. فاستوى على سوقه .. » اي يقف وحده على أقدامه .

قال أحد الاوربيين : اننا لو اخذنا بنظر الاعتبار ثلاثة اشياء فاننا سنعترف عندها ان

لا وجود لشخص في العالم كمحمّد «صلّى الله عليه وآله» ولا قيادة فيه كقيادته . وهذه الاشياء هي : اولاً : عظمة الهدف وأهميّته ، نعم ، لقد كان الهدف عظيماً ومهماً للغاية إذ حدث انقلاب في الروح العامّة للناس ومعنوياتهم واخلاقهم وآرائهم ونظمهم وتقاليدهم الاجتماعيّة .

ثانياً : ضآلة حجم الامكانيات والوسائل آنذاك . ماذا كان عنده من ادوات ووسائل ؟ لقد كانت معه عشيرته الاقربون ، فلم يكن لديه مال ولا قوّة ولا مساند ولا ناصر . انها اعجوبة حقاً أن يتمكن شخص واحد من كسب الناس ، وجعلهم يؤمنون به ، و يلتفون حوله ، حتىٰ أصبح اكبر قوّة في العالم .

ثالثاً : سرعة الوصول الى الهدف اذ أصبح أكثر من نصف الناس في العالم مسلمين خلال أقل من نصف قرن . عند ذلك يثبت ما ذكرناه من انه لا وجود لقيادة في العالم كقيادته (صلّى الله عليه وآله) . وهذا هو قصد القرآن من قوله : «يعجب الزرّاع» اذ ان الاخصّائيين والخبراء في التربية الانسانية ينبهرون الى الابد بسرعة ظهور المسلمين ونموهم واستقلالهم ونتاجاتهم .. وهذا المثل قد ذكر في القرآن المجيد للامّة الاسلاميّة .

أودّ ان اطرح هنا سؤالاً وهو : هل انّ هذه المواصفات التي ذكرها القرآن الكريم تخصُّ المسلمين الاوائل وانهم يجب ان يتّصفوا بها ؟ وهل انها من خصوصياتهم بالذات أو خصوصيات الاسلام نفسه ؟ و بعبارة اخرىٰ اذا وجد اناس في اي زمان ومكان كانوا ، واعتنقوا الاسلام ، وعملوا باحكامه فانهم سيحملون ذات المواصفات المذكورة من نمو وتكاثر وكمال واستقلال ونيل اعجاب الآخرين وانبهارهم ، فالخصائص اذن هي خصائص الاسلام وليست خصائص الناس ، وهي نابعة من الايمان بالاسلام واتباع تعاليمه . وما جاء الاسلام ليعطّل طاقات المجتمع و يقف حائلاً دون تفتقها ، أو يُرغم المسلمين ليعيشوا في دوّامة من المراوحة الرتيبة .. كلا ، انه دين التنمية والتحرك والنشاط ، ودين برهن من الناحية العملية انه قادر على الاخذ بيد المجتمع الى الامام حيث الرقي والتقدم .. ولاحظوا ماذا أحدث الاسلام من ثورة ، وماذا قدّم من عطاء في القرون الار بعة الاولىٰ من حياته !

يقول و يل ديوارنت في «تاريخ الحضارة» : «لا حضارة تبعث على الانبهار كالحضارة الاسلامية» اذن الاسلام كشف عن خصوصياته على الصعيد العملي ، ولو كان

الاسلام من دعاة الجمود والانكماش والرتابة لظل يراوح في مكانه بين العرب ! ولولم تكن له حضارة لما تقدم ، ودعا الى التطور والتقدم ، وما تلك الحضارة الباهرة الرائعة التي صنعها على مر التأريخ ، وما تلك المعطيات الحضارية والثقافية التي زخرت بها حضارته الاولى ، الّا دليلٌ على انه لا يتعارض مع تطور الزمن وتقدمه .

ان من الانصاف القول ان «لغوستاف لوبون» دراسات متعددة حول التأريخ الاسلامي ، وكتابه كتاب قيّم للغاية . ولكن يتطرق أحياناً الى مواضيع تبعث على العجب والدهشة ، ولا غرو فهذا هوديدن الغربيين واسلوبهم . انه عندما يصل به المقام الى الحديث عن أسباب انحطاط المسلمين وافول الحضارة الاسلامية ، يذكر ـ غباءً ـ تعارض الاسلام مع متطلبات العصر كأحد الاسباب . وهذا هوفهمه كانسان غريب على الاسلام وحضارته حيث ينظر اليه من زاويته الخاصّة فيقول : ان الزمن في تطورلكن المسلمين يريدون أن يبقى الاسلام في كل عصر على حالته التي كان عليها في عصره الاول ، وهذا أمر لا يمكن تحققه . وكذلك فهم بدل أن يتركوا الاسلام جانباً ، و يسايروا تطورات العصر ، نراهم بقوا على تمسكهم بالاسلام فانحطوا وتخلفوا .

في ضوء ما تقدم فكل شخص يرغب ان يتعرف على المثال الذي يذكره هذا المستشرق الكبير لدعم مزاعمه ! ياللعجب العجاب فأي مبدأ من مبادىء الاسلام تمسك به المسلمون فتخلفوا ولم يواكبوا التطورات الحاصلة في كل عصر؟ وأي مبدأ في الاسلام وجده غوستاف لوبون لا يلائم متطلبات العصر ومستلزماته ؟ واي شيء لمسه من المسلمين حتى قال : انهم كشفوا عن جمودهم وتحجرهم من خلال عدم مسايرتهم لتطورات العصر ، والمفروض ـ على حد قوله ـ ان لا يتحجروا و يكونوا ضيقي الافق بل عليهم ان يواكبوا تلك التطورات و يكيّفوا أنفسهم معها ؟

و يستطرد قائلاً : ان من المبادىء الاسلامية الرائعة المعطاءة مبدأ المساواة الذي آتى اكله في عصر صدر الاسلام ، ومهّد السبيل امام الشعوب الاخرى لتدخل في دين الله افواجاً ولا سيما من غير العرب كالفرس الذين اكتووا بنار ظلم حكّامهم وعلمائهم من الموبدين ، وهؤلاء عندما اطّلعوا على ذلك المبدأ العظيم انفتحوا على الاسلام واعتنقوه لانهم لم يجدوا فيه تمييزاً عنصريّاً أو طبقياً ، وراقتهم تعاليمه السامية ، لقد كان هذا المبدأ في بادىء الامر يصب في

خدمة المجتمع الاسلامي ، وظل المسلمون الذين جاؤا فيما بعد على اصرارهم وتعنتهم في الاستمرار بتطبيق هذا المبدأ في العصور اللاحقة في الوقت الذي لو كانوا قد نبذوه جانباً لظل زمام الامور بأيديهم وكانت لهم السيادة والحاكمية . وعندما تسلم العرب مقاليد الامور، ودخلت الشعوب الاخرى في الاسلام ، كان عليهم ان يفضّلوا السياسة على الدين ، و يقدّموها عليه ، لانّ السياسة تقتضي ترك مثل هذه المفاهيم والمبادىء ، واستغلال الشعوب الاخرى ، وجرّها لتكون تحت نيرها وسلطتها حتىٰ تستطيع توطيد أركان حكومتها .. هذه هي السياسة اما هؤلاء فكانوا لا يفهمون إذ تشبثوا بمبدأ المساواة ولم يفرّقوا بين العرب وغيرهم وفتحوا الطريق أمام الاعاجم وكسبوهم الى صفوفهم ، وعيّنوهم قضاة من الدرجة الاولى بعد ما هيّأوا لهم الفرصة للتزود من التعاليم الاسلامية .. وجاء هؤلاء بالتدريج وأصبحوا في موضع قوّة وقدرة فسحبوا البساط من تحت أرجلهم أي أرجل العرب . واول من كان لهم قصب السبق في ذلك هم الفُرس الذين سيطروا على الوضع ابّان الحكم العباسي مثل البرامكة وآل سهل . وعيّنوا أقاربهم ومعارفهم في مختلف مناصب الدولة بعد ما عزلوا العرب عنها . كانت هذه الحوادث في اوائل القرن الثاني ، ومرّت سنون كانت السيادة فيها للفرس ، ولا سيما في عصر المأمون اذ بلغت اوجها وذلك لان امه كانت فارسية حتىٰ ينقل ان المأمون كان مارّاً ذات يوم في طريق فاعترضه اعرابي قائلاً له : اعتبرني واحداً من الفرس وأغثني . وظلت هذه الحالة حتى عصر المعتصم حيث تغيرت الاوضاع تماماً وانقلبت ضدّ الفرس والعرب في آن واحد بلحاظ انّ ام المعتصم كانت تركية ، لهذا تعامل المعتصم بقسوةٍ وفظاظة مع الا ثنين محافظة منه على منصبه ، فكان سيء المعاملة مع العرب لانه كان يعتبرهم من انصار بني اميّة ، وكانت سياسة هؤلاء عربية ، وكانوا يفضّلون العرب على غيرهم . نعم ، كان العرب من أنصار بني امية ، وكان العباسيون ـ على العموم ـ ضدّ العرب لانهم كانوا يعتبرونهم أنصار بني امية وحماتهم . وقد عمل العباسيون على إحياء اللغة الفارسية ، لانهم كانوا لا يرغبون في تذو يب الفرس بالعرب ، وقد أصدر إبراهيـــم الامـــام أوامره الى كافة مناطق ايران بقتل كل عربي (وقد ذكر هذه التعليمات جرجى زيدان وغيره من المؤرخين) . نعم ، وكان المعتصم ينظر الى العرب بانّهم انصار الامو يّين ، والى الفرس بانّهم انصار العباسيّين ومؤيّدو العبّاس نجل المأمون لذلك سافر الى تركستان فجلب اقارب امّه من هناك وفوّض لهم كثيراً من امور الدولة و بهذا يكون قد أبعد

الا ثنين : العرب والفرس ، عن زمام الامور وقلّدها قوماً آخرين وهم الا تراك .

هذا هو كلام غوستاف لوبون .. وكل ما فيه هو لماذا أعرض العباسيون عن اتباع السياسة الامو ية العربية رغم انهم كانوا عرباً ، ولا يدري هذا الرجل فقد غاب عن ذهنه انه اعتبر فضيلة من فضائل الاسلام عيباً ونقصاً فيه ، ودليلاً علىٰ عدم انسجام الاسلام مع متطلبات العصر ، وشاهداً على جمود المسلمين وتحجرهم .

انه يقول : ان هذا المبدأ جيّد من الناحية الاخلاقية ، ولكنه من الناحية السياسية قد يكون كذلك وقد لا يكون ، وقد يكون مناسباً لزمن معين حيث يساعد على كسب الشعوب الاخرى للاسلام ، ولكنه قد لا يكون كذلك في زمن آخر حيث ينبغي على المسلمين اي : العرب في تلك الفترة ان يتخلوا عن مبدأ المساواة سياسياً لان الظروف لا تساعد على وجوده .

حقاً لقد وقع غوستاف لو بون في خطأ ، لان التوجه السياسي في الاسلام غيره في اور با اولاً ، ولان المسلمين لو اتخذوا من الاسلام العو بة للسياسة لما كان له هذا الا ثر الذي عليه ، ولما كان المسلمون امّة بهذا الشكل ، ثانياً .

ان هدف الاسلام هو اقرار المساواة بين الناس بشكل تام ولو شرّع الاسلام مبدأ نفعياً على النحو المؤقت ، اي : مثلاً ، لكسب بعض الناس والاستفادة منهم ، ثم بعد ذلك نقضه لما كان اسلاماً حقيقيـاً بمعنى الكلمة . ولا شكّ فانّ هذا هو دأب السياسة الاور بيّة انها تسنّ مبدأ ، ثم تنسفه من وحي الدوافع المصلحيّة ، فمثلاً ، تصدر وثيقة حقوق الانسان لتنضوي بقية الشعوب تحت سلطتها وهيمنتها كما حدث ذلك ، واذا ما انضوت فانها تقول لها : كل هٰذا الكلام لا طائل تحته ولا قيمة له .

هذا هو اسلوب التفكير السائد عند هؤلاء . انهم يقولون : ان الاسلام فظ غير مرن ولا ينسجم مع متطلبات العصر ، و بعبارة اخرىٰ مع السياسة . ونحن نقول: ان الاسلام جاء لمحار بة امثال هذه السياسة المنحرفة في العالم . انه لا يعتقد بمتطلبات العصر التي يريدها هؤلاء ، ولا يقر بها كمستلزمات حقيقية للتطور والتقدم . انه يعتبرها انحرافات العصر لا متطلباته ، و يعلن محار بته لها و وقوفه ضدها .

ان ما ذكره غوستاف لو بون وامثاله هو نفس المؤاخذة التي تشدّق بها البعض ضد سياسة أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ فقالوا عنه : انّ كل شيء فيه حسن ، اذ كان رجل علم

وعمل وتقوىٰ وعاطفة وانسانية وحكمة وخطابة لكن عيبه الوحيد والكبير انه لم يكن سياسياً ! لماذا لم يكن سياسياً ؟ لانه ـ على حد زعمهم ـ لم يكن مرناً اي : كانت تعوزه المرونة ، وكان متشدداً للغاية حيث لم يهتم ولم يفكر بالمصالح السياسية للدولة ، ان الشخص السياسي ـ برأي هؤلاء ـ ينبغي أن يكذب و يزوّر الحقائق ، و يعد ولا يفي بوعوده ، و يوقّع على ميثاق أو حلف ثم ينقض توقيعه بل و ينكره ، و يظهر البشاشة والطلاقة بوجه شخص مـا حتىٰ اذا استسلم له قتله .. هذا هو السياسي في عرف هؤلاء دون سواه ، فما أجهل هؤلاء وما أغباهم ! ان هؤلاء يرون ابا جعفر المنصور سياسياً لانه تحالف مع أبي مسلم الخراساني وفوّض اليه بعض الامور ، وابو مسلم هذا نهض لصالح المنصور ولم يترك جريمة الّا وارتكبها لصالح بني العباس ، علماً انّ بعض الايرانيين ـ و يا للاسف ـ يعبّرون عنه بالبطل الوطني . علينا ان نكون حذرين ونعرف أنفسنا حيث يردّدون دائماً هذا اللقب . وما ادرى الايرانيين كم قتل ابو مسلم منهم ؟ لقد قتل اكثر من ثلثمائة أو اربعمائة الف ، وفي خبر آخر: ستمائة الف . فكم كان مجرماً ! والى اي حد يصل الإجرام بالانسان ؟

لقد كان المنصور سياسياً ـ من وجهة نظر هؤلاء المتشدقين ـ والسياسة التي يقصدونها تعني استعمال الخداع ومختلف الحيل ، وتعني البطش والتنكيل ، وتعني استغلال الآخرين لتحقيق مآربهم كما نرىٰ المنصور قد استغل ابا مسلم للفتك بأعدائه ، وقد نفّذ الأخير ما أريد منه ، وبمجرد ان أراح الخليفة من خصومة ومناوئيه ، برز نجمه وعلا كعبه تدريجياً حتىٰ أصبح نِدّاً للمنصور نفسه فرأى فيه المنصور خطراً على حكومته ، ففي احدى السنين ذهب ابو مسلم الى مكة على رأس جيش جرّار ، وحينما عاد منها ووصل مدينة الري استدعاه المنصور قائلاً له : عندي معك شغل . لكن أبو مسلم لم يذهب ، وكتب له مرّة ثانية وثالثة فلم يذهب أيضاً ، واخيراً كتب له رسالة هدّده فيها . فتردد ابو مسلم بين الذهاب وعدمه ، واستشار الكثيرين فأشاروا عليه بعدم الذهاب لوجود خطر عليه .. ولكن ، كما يقال : اتتك بخائنٍ رجلاه ، فذهب وحده بناءً على أوامر المنصور نفسه ، فدخل عليه وسلّم معظّماً اياه ، و بعد أن سأله المنصور عن أحواله ، طفق يغيّر معه لهجته و يؤنّبه ، طارحاً عليه بعض الاسئلة منها : لماذا لم تنجز العمل الفلاني ؟ ولماذا عصيتني في الامر الفلاني ؟ وهكذا ، ولمّا رأى ابو مسلم انّه قد وقع في مأزق ، وانّ المنصور مصمّم على قتله ، عرض عليه ان يعفو عنه ليقضي على اعدائه ، أي : أعداء المنصور ،

فقال له المنصور: لاعدو لي هذا اليوم أشدّ منك ، وكان المنصور قد وضع خلف الباب عدداً من جلاوزته مع أسلحتهم واوصاهم انّه بمجرد أن يعطيهم اشارة متفق عليها يهجموا على ابي مسلم و يقتلوه ، و بينا كان مشغولاً في تعنيفه وتقريعه ، أعطى تلك الاشارة ، فهجم الجلاوزة على ابي مسلم وقطّعوه ارباً اربا ، ثمّ لفوه في خرقة . نعم فانّ المنصور -برأي هؤلاء- سياسي كبير، لانه يعرف كيف يقضي على مناوئيه .

امّا الامام علي -عليه السلام- فانهم ينتقدونه لانه لم يتعامل مع الأحداث كتعامل المنصور مثلاً . يقولون : لماذا لم يداهن الامام معاو ية ؟ ولماذا لم يكتب له كتاباً يستغفله فيه ؟ ولماذا لم يتركه على حاله ؟ وما هو السبب الذي دعاه ان لا يبقيه على السلطة ويخدعه بذلك ثم يستدعيه الى مركز الخلافة و يقتله وفق خطه مدبّرة ؟ لماذا لم يكذب في سياسته ولم يفرّق بين أحد ولم يرشِ احداً ؟ ولماذا لم يعمل الامام في بيت المال كما عمل معاو ية ؟ وامثال ذلك من الاسئلة التي يثيرونها مدّعين أنّ نقص الاسلام يكمن في كونه متشدداً ، ولا ينسجم مع متطلبات العصر. واذا ما أراد السياسي ان يعمل وفق الاسلام فلا يمكنه أن يكون سياسياً عندئذٍ .

وكما ذكرنا فانّ الاسلام ما جاء الّا ليكافح هذا اللون من السياسة ، و يعمل كل ما في وسعه لخدمة البشرية واسعادها ، وهو-بلا شك- الحارس الأمين لها ، ولو كان قد أبدى شيئاً من المرونة والتنازل فلا يعدو أن يكون اسلاماً ، بل حيلة ومكراً .. انّ الاسلام هو الحافظ الصحيح للامور، وهو الحقيقة ذاتها ، والعدالة نفسها . واساساً فانّ فلسفته في مثل تلك المواقف المذكورة ينبغي أن تكون قو يّة متصلبة .

ان سياسة علي - عليه السلام - هي التي جعلت منه حاكماً على قلوب الناس قروناً عديدة . انه دافع عن افكاره في عصره ، وظلت افكاره بمثابة مبادىء ثابتة ودروس ذات مغزى في العالم ، لهذا فانّ منهجه صار عقيدة وايماناً بين الناس ، فلم يخسر في سياسته اذن ، ولو كانت سياسته وهدفه أن يستعذب متاع ايام قلائل (كما كان معاو ية الذي كان يصرّح بانه غرق في نعم الدنيا ومباهجها) لقلنا انه خسر، لكن بما انه كان رجل ايمان وعقيدة وهدف فلم يندحر ولم يخسر ابداً . اذن من التوقعات الخاطئة التي ينتظرها هؤلاء فيما يخصّ الانسجام مع متطلبات العصر هي ان يتلوّن السياسيّون بلون كلّ عصر، و يتّصفوا بالدهاء والمكر والخديعة

كالثعلب الماكر مطلقين على ذلك اسم المرونة والذكاء والانسجام مع الزمان . و يتوقّعون من الاسلام أن يكون كذلك وان يسمح لمعتنقيه بان يكيّفوا أنفسهم مع الزمن مدّعين انّ نقص الاسلام يكمن في عدم مرونته وانفتاحه على التطورات الحاصلة في كل عصر. وقد غاب عنهم ان من دواعي فخر الاسلام واعتزازه انّه وقف بكلّ صلابة أمام هذه الأ باطيل ولنا أن نسأل هؤلاء : أين تكمن عظمة الحسين عليه السلام ؟ هذا الامام الذي أخذ بمجامع القلوب ، وخلّدته الدهور. انّها تكمن في انّه لم يكن متلوّناً انتهازيّـاً ، ولم يكن ماكراً مخادعاً ، بل كان صادقاً نزيهاً عفيفاً في توجّهاته وممارساته ، ولم يتأثّر بظروف عصره ، كما لم ينتحل نحلة حكام عصره ، فلم يكن امو ياً ، مثلاً عندما حكم معاو ية أو ولده يزيد ، وهذه قمّة النزاهة والصدق ، ولم لا يكون ذلك ؟ وهو لم يألف الوصوليّة والنفعية والانتهازية أساليب للانسجام مع كل عصر! ولذلك عندما عرض عليه الوزغ الدنيء مروان ان يبايع يزيد ، لم يفكّر بمصلحته الشخصية بل فكّر بمصلحة دينه ورسالته ، وكانت لا تهمّه مصلحة اخرى غير هذه المصلحة وذلك لانه الامام الهادف المسؤول ، ولذلك أجاب قائلاً : «على الاسلام السّلام إذ قد بليت الامّة براعٍ مثل يزيد» .

بين الإفراط والتفريط

بين الافراط والتفريط

قال تعالىٰ : «وكذلك جعلناكم امّةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس و يكون الرسول عليكم شهيدا»[1] .

انّ احدىٰ الخصائص التي يتميز بها الدين الاسلامي هي الاعتدال . وقد أطلق القرآن الكريم على الامة الاسلامية اسم الامّة الوسط ، وهذا التعبير في غايةٍ من الروعة والجمال . والامّة المدربّة على مفاهيم القرآن فكراً وممارسةً ، بعيدة كل البعد عن الافراط والتفريط ، وعن التطرف وعدمه وعن الاتجاه شطر اليسار أو اليمين . والتربية القرآنية تؤكّد على الاعتدال في كلّ شيء دوماً وابداً ، علماً ان بحثنا حول مواكبة العصر والانسجام مع متطلباته ذو جانبين هما : جانب الافراط ، وجانب التفريط ، ولعل بعض التيارات الفكرية التي ظهرت في العالم الاسلامي انطلقت في هذه النقطة بالذات حيث كان بعضها متشدداً متطرفاً في غير الموقع المناسب ، في حين كان البعض الآخر مرناً معتدلاً في غير الموقع المناسب ايضاً ، وانا قد سمّيت ولا زلتُ اُسمّى مثل هذا اللون من التطرف جهلاً ، ونقيضه جموداً . وسأبين ذلك لكم .

من الاشخاص الذين كانوا يتّسمون بالانفتاح والفكر النيّر في القضايا الاسلامية ـ على حد تعبير كتّابنا المعاصرين ـ هو الخليفة الثاني عمر بن الخطاب الذي بلغ انفتاحه وتفكيره النيّر هذا حدّ الافراط . وكان يمارس عمله متظاهراً بالانفتاح وتنوير الفكر ولكنه كان متطرفاً

---

(١) سورة البقرة / ١٤٣ .

الى أبعد حد فمثلاً كان يسنُّ النبيّ -صلى الله عليه وآله- سُنّة ، وكان يخالفها بحجة انها تخص عصر النبي -ص- نفسه والزمن في تغير وتبدل؛لهذا ينبغي نقض تلك السُنّة بسُنّة اخرى . ولعل احد أتباع اهل البيت -عليهم السلام-، وهو يحمل مشاعر ضد الخليفة ، يرى ذلك تجنياً متعمّداً على السُنّة النبوية ، وقد يصرّح ان عمل عمر هذا يعد مخالفة للاوامر النبوية .. ولكن لو صغنا هذا الكلام بعبارة اخرى لا تثير مشاعر محبّيه ومواليه وقلنا : ان هذه اخطاء لوحظت في سلوك عمر لكان افضل . ففي الأذان مثلاً نجد انّ النبيّ -ص- هو الذي حدّد فقراته وعيّن عباراته بامر من الله تعالى ، ومن فقراته عبارة «حيّ على خير العمل» ومعناها عجّل لأفضل الأعمال وهي الصلاة ، ونرى عمر لما وصلت اليه الخلافة أسقط هذه العبارة من الاذان بحجّة انّ الاسلام كان بحاجة ماسّة الى الجهاد أيام خلافته ، وكانت تواجه المسلمين قوّتان كبريان وهما : الفرس ، والروم ، وكانت بلدانهم اقوى بلدان الارض تلك الفترة ، مع الاخذ بنظر الاعتبار عدد المسلمين القليل حيث لم يكونوا اكثر من أربعين أو خمسين ألفاً ، وأعلنوا الحرب فجأة ضد تينك القوّتين ، ويمكنا ان نتصور هذه الحالة بالنسبة الى دولةٍ كايران التي قد يحدث تغيير في نظامها وتعلن الحرب ضد الدولتين العظميين : الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، فهذه الحرب في الواقع هي ضد العالم . وانطلاقاً من هذه النقطة يجمع المؤرخون الاوربيون على انه لولا وجود عنصر الايمان لدى المسلمين في تلك الفترة لكان تحقق هدفهم مستحيلاً .. وأياً كان هذا الأمر فهو امر شبيه بالاعجاز، ولكن اعجاز الايمان . نعم ، كان المسلمون في ذلك العصر بحاجة الى جنود باعدادٍ كثيرة ، و ينبغي ان تكون معنوياتهم عالية ، وايمانهم راسخاً ، و يعتبروا الجهاد مبدأً واجباً ، لهذا خطر في بال الخليفة أن يرفع عبارة «حي على خير العمل» من الاذان متذرعاً بكونها تؤثّر على معنويات المقاتلين تأثيراً سلبياً اذ عندما يرتفع النداء بالتعجيل للصلاة بأنّها افضل الأعمال فان المقاتل يفكّر في نفسه انّها افضل من الجهاد ، فيتولع فيها معرضاً عن الجهاد ، لذلك اصدر الخليفة امراً برفع تلك العبارة ووضع عبارة اخرى مكانها وهي «الصلاة خير من النوم» حتى لا يضعف اعتقاد المقاتلين بعظمة الجهاد وأهميته .. وهنا قد يقال انّه واكب تطورات العصر وعمل بما تتطلبه ظروف عصره . ولكن هل كان هذا العمل صحيحاً ؟ لا ، بل كان خطأً وذلك للسبب الذي ذكرته واقول : أليس هناك من المسلمين من يسأل الخليفة عن كيفية محاربة الجنود المسلمين القلائل للامبراطوريتين الكبيرتين مع ضعف امكانياتهم ؟

و يسأله كذلك عن كيفية تحقيقهم للنصر؟ هل هذا يتعلق بالعرب انفسهم ؟ وهل لهم ميزة على غيرهم ؟ واذا كان يتعلق بهم فهم قد كانوا منذ آلاف السنين ، وكان لهم وجودهم الشاخص ، فلماذا كانوا يتلقون الصفعات باستمرار حتى ظهور الاسلام ؟ اذاً هناك عامل جديد جعلهم بذلك الوضع من الاستعداد لمحاربة تلك القوى المتسلطة ، وهو ـ لا يخفى ـ عامل الايمان بالله تعالى ، وهو العامل الذي رفد المسلمين بالشجاعة والاقتدار ، وما ذلك الايمان الآ وليد الصلاة والعبادة . واعظم بها من صلاة تسقى بذرة الايمان وتتعاهدها ؛ ولهذا فان المقاتل المسلم يكتسب شجاعته من تلك المفاهيم الرائعة الا وهي : الله اكبر ، الحمد لله ، سبحان الله .

ان نبيّنا الكريم ـ صلى الله عليه وآله ـ عندما قال : (الصلاة عمود الدين) أو مثل الصلاة بالنسبة الى الدين كمثل الخيمة المنصوبة ذات الحبال والاوتاد والعمود ، وما عمودها الآ الصلاة ، فانه كان واعياً مدركاً لحقيقة معطياتها ، وكان يعلم ـ علم اليقين ـ انّ الصلاة أكبر عامل مؤثّر في معنويات المقاتلين ، ولو لم تكن الصلاة لما تمتع المسلمون بتلك المعنويات العالية والمواصفات السامية .

ولو كنت تفكّر ـ ايها الخليفة ـ انّ المقاتل يترك الجهاد ظنّاً منه انّ الصلاة أفضل منه ، فانك تستطيع ان تقتلع هذا التفكير الخاطىء من مخيلته بتبيين حقيقة الصلاة والجهاد وتأكيد تلازمهما ، وانه لا يمكن استعاضة أحدهما بالآخر أو الاستغناء عن أحدهما : فلا الصلاة تسقط الجهاد ولا الجهاد يسقطها ؛ فينبغي اقامة الصلاة حتى تشحذ الهمم وتشد العزائم ، و يتحقق الجهاد بمعناه الحقيقي ، وعزّ من قائل : « استعينوا بالصبر والصلاة »[١] ، فلماذا هذه الاستهانة بالصلاة بتقديم الجهاد وتفضيله ؟ ولماذا يبلغ الاستخفاف بها الى الحد الذي تقول فيه : هي خير من النوم فقط ؟ ؟ ان عليك أن تقول للمقاتل : أقم الصلاة ، واذهب الى الجهاد ؛ لانّ الاسلام لم يخيّر المسلمين بانتخاب أحدهما لو دار الامر بينهما ، كما يتخير احدنا بين أن يشتري الاجّاص أو البطيخ ، وعندما يرى سعر البطيخ زهيداً يفضّله على الاجّاص .. نعم ، فانّ قضيّة الصلاة والجهاد ليست كذلك ، وليس مثلهما كمثل شراء الفواكه والتردد بين نوعين منها ، بل انّ الصلاة والجهاد في الاسلام متلازمان ، اذ لم يأمر الاسلام بالذهاب الى الجهاد

(١) البقرة / ١٥٣ .

وترك الصلاة ، أو اقامة الصلاة وترك الجهاد بل أمر بالاثنين وأوصى بهما خيراً ، وكأنّ لسان حاله يخاطب المسلم بقوله : جاهد حتى تقيم الصلاة ، وأقم الصلاة حتى تجاهد ، ولكن لو ارتكب احد المقاتلين خطأً بأن يصلّي بدل ان يجاهد مفضّلاً الصلاة ومقدّماً ايّاها على الجهاد فينبغي تفهيمه انّ الاثنين متلازمان ، ولا ينفصل أحدهما عن الآخر.

وفي صدد عدم تعظيم الصلاة ، والاستخفاف بها يقول بعض الاثرياء انهم يدفعون من أموالهم ولا يصلّون أي : انّ المال يحل محل الصلاة ! ولا أدري كيف يمكن هذا ؟ وما أدراهم ما الصلاة ! وقد خاب توجههم انهم لا يعلمون انّ الاسلام ـ مبدئياً ـ يرفض الانفاق منفصلاً عن الصلاة رفضاً باتاً ، كما يرفض الصلاة مجرّدة عن انفاق إذ لو انّ ثريّاً من عبّاد المال والمتعلقين به يصلّي الفرائض مع النوافل و يصلّي أضعافها و يقضي بعض الصلوات ولا ينفق من ماله شيئاً ظنّاً منه انّ الصلاة وكثرتها تعوّض عن الانفاق ، فهل ان عمله هذا صحيح ؟ وهل يقبل منه ذلك ؟ طبعاً ، لا اذن فالواجب يحتم علينا ان ننبّه الناس ان التعاليم والاحكام الاسلامية وحدةً واحدة لا تتجزأ عن بعضها البعض وهي كأعضاء الجسد الواحد ، فالصلاة في محلها ولها دورها وأهميتها ، وكذلك الحج والزكاة والخمس والامر بالمعروف والنهي عن المنكر، كل في محله ، وله دوره وأهميته ، لهذا ينبغي التعرف على موقع كل واحد من هذه الأحكام .

انّ الذي شرّع عبارة « حي على خير العمل » لم يشرّعها اعتباطاً بل شرّعها وفق منطق الحِكمة الذي يسود كل المخلوقات ، وانت يا خليفة المسلمين في عصر يقف فيه جيشك مقابل العالم ؛ لهذا يجب عليك ذكر الصلاة بصفتها التي أطلقها المشرّع الحكيم وهي « خير العمل » ، ويجب المحافظة عليها وصونها . .

ما عسانا أن نسمّى هذا التصرف الذي افتعله الخليفة الثاني ؟ هل نسمّيه وعياً لمتطلبات العصر، ومراعاة للظروف الزمنية آنذاك ؟ لا ، بل نسمّيه تطرفاً وتزمتاً أو بعبارة أُخرى : جهلاً نابعاً عن عدم التفكير، أو عن التفكير المشوّه والمبتور.

وفي واقعنا المعاصر مثال حي وهو الحبيب بورقيبه الذي لا أدري كيف أُعبّر عنه ؟ وما أوقحه وأصلفه من شخص ! حيث يتطاول على أحكام الشريعة عندما يجن جنونه في كل عام ضدّ فريضة الصوم طالباً من الناس ان لا يصوموا، متذرّعاً انه يؤثّر على سير العمل باضعاف قوة العامل ، مدبّجاً مزاعمه الواهية هذه بلون اسلامي حيث يقول : ان الاسلام يهتم بالعمل

كثيراً ، والعمل محترم جداً في الاسلام ، وامثال هذه التخرصات التي يتقولها لدعم توجهاته المحمومة .. نعم ، وهو يقول : على العامل أن يعمل ، وكل ما من شأنه الاخلال بالعمل او إقلاَله فهو مرفوض . وفي مقابل هذا الكلام يمكن القول : ان كل ما من شأنه تعزيز العمل وتوطيده فهو مرغوب ومستحسن ، فمثلاً لو فرضنا انّ الخمر يزيد من قدرة العامل ، فعليه ان لايصوم ، و يتعاطى في كل يوم قنيّنه واحـدة منه حتّى تزداد قدرته على العمل ! ! و ينقل انّ الوليد بن عبد الملك أو الوليد بن يزيد بن عبد الملك ذهب الى المسجد لأداء صلاة الصبح ،وكان ثملاً لكثرة مااحتسى من الخمر ، ولا زالت آثار الخمر باديةً عليه فصلّى صلاة الصبح أربع ركعات ، واقتدى به المأمومون وتابعوه ، و بعد ان فرغ ن الصلاة التفت الى المصلّين قائلاً لهم : انا في غاية الثمالة والسرور هذا اليوم فلو أردتم أن أُصلّي لكم اكثر ، لفعلتُ ! اما بالنسبة الى بورقيبة فانّه ارتكب خطأً فادحاً حين اتخذ ذلك القرار ، وخطأه ينطلق من تصوّره ان الانسان كالآلة ، وهو ليس الاّ ماكنة تعمل باستمرار للانتاج وكلما استطعنا مضاعفة عمل تلك الماكنة ، كان افضل ، و يكون مثل الانسان بهذا كمثل الحيوان الذي يستفاد منه للحمل ، وليس له الاّ ذلك ، وكلما حمل أكثر ، كان افضل ..

و بناءً على مزاعم بورقيبه فلا يجب الصوم ، لانه يؤثّر على سير العمل سلباً وقد غاب عن باله انّ العمّال الصائمين صوماً حقيقياً يتضاعف عملهم عشرة أضعاف العمّال المفطرين ، وذلك للقوّة الروحية التي يحملونها بين جوانحهم ، تلك القوّة التي غفل عنها بورقيبه وأمثاله . ونحن نلاحظ انّ كلاً منا يعيش وله ظروفه الخاصّة التي يجعل منها برنامجاً متّبعاً في حياته ، فمثلاً ينبغي ان يتناول مقداراً معيّناً من الغذاء أو الخبز ، فلو حدث خلل في هذا البرنامج ، فليس في مقدوره المشي أو يمشي مجهَداً ، ولكن هل هذا هو قانون الحياة البشرية الحتمي بحيث لايمكن معارضته ؟ لا .. فنحن في ظل هذا البرنامج نكون أسرى الغذاء والبطن . ولو بدّل الانسان برنامج حياته في غذائه بأن يأكل نصف ما كان يأكله فربّما تتضاعف طاقته ضعفين ، ولعلّ انساناً يأكل في اليوم لوزتين يتمتع بقوّة تضاهي قوّة من يتناول رطلاً واحداً من الغذاء يومياً . ولو عاد الانسان الى رشده وغيّر مسيرة حياته فسيصبح في وضع آخر و يتبدل برنامجه تماماً . ولعلكم طالعتم الصحف الصادرة قبل مدّة حيث نقلت وكالات الانباء ان بوذياً مرتاضاً وقف على أقدامه لمدة اثنتي عشرة سنة متواصلة دون أن يجلس أو ينام ، و بعد هذه الفترة

طهرت روحه كما يدّعى فجلس ، وقد أُقيم حفل لتكريمه ، وتوافد عليه الاطبّاء لاجراء الفحوصات عليه فوجدوه سليماً وفي صحة جيّدة . وهذا ان دلّ على شيء فانما يدل على ان قانون الحياة البشرية يتخذ طابعاً آخر من خلال تغيير الظروف . ولا يخفى فاني ذكرت الحالات الاستثنائية لهذا القانون . وما ذكرتها الاّ كمثال أبرهن من خلاله انّ في الانسان طاقات كامنة وما أعظمها من طاقات ! وانه عرضة للتغيير.

ولو اخذنا الامام علياً ـ عليه السلام ـ كمثال لا تّضحت الصورة جليّة لذي عينين عن عظمة هذا الرجل ، وعظمة الطاقات الكامنة فيه .. و يتجسد ذلك في كتابه لواليه على البصرة عثمان بن حنيف إذ يقول : «ألاوان امامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه ومن طعمه بقرصيه» بعد ذلك يقول : «وكأني بقائلكم يقول : اذا كان هذا قوت ابن ابي طالب فقد قعد به الضعف عن قتال الاقران ومنازلة الشجعان» .

بعدها يجيب على هذا الافتراض جواباً عجيباً بقوله ـ سلام الله عليه ـ : «ألاوانّ الشجرة البرية اصلب عوداً والروائع الخضرة ارقُّ جلوداً ، والنباتات البدو ية أقوى وقوداً وابطأ خموداً» .

وكأنه يريد ان يقول : ان من يظن ان هذا هو القانون الطبيعي فهو على خطأ . نعم ، فكلما اعتُني بالكائن الحي أياً كان انساناً أو حيواناً أونباتاً ، صار اضعف وأعجز واكثر غنجاً ودلالاً ، وكلما قل الاعتناء به وترك وحده في مواجهة المشاكل والمصاعب ، كان اقوى وأقدر . ولكم أن تقارنوا بين الأشجار الكائنة في الغابات أو على سفوح الجبال مع الاشجار الموجودة في البيوت ، و بين النباتات البريّة ونباتات الغابات مع النباتات التي يتعاهدها البستاني بالرعاية دائماً ..

وكذلك الانسان ، انه ليس بالشكل الذي يجب ان يأكل فيه ثلاث وجبات يومياً واذا لم يأكل فانه يمرض .. كلاّ ليس بهذا الشكل .. لندعه يواجه المصاعب حتى تقوى شوكته .

لو تصفحنا التأريخ لوجدنا الدروس والعبر.. كم كان عمر أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ في حرب صفين والجمل والنهروان ؟ كان عمره يناهز الستين .. اما نحن فما عندنا من قوّة الشباب فهي قبل سن الار بعين ، اما بعد هذا السن فانّ تلك القوّة تبدأ بالضعف والفتور ، واذا ما بلغنا الخمسين فاننا نصاب بالضعف والعجز الى الحد الذي نشعر فيه بالشيخوخة ، لكنّ علياً ـ عليه السلام ـ كان بنفس القوة في جميع مراحل عمره ، فكما كان قو ياً

في سن الثلاثين كان كذلك في سن الستين ، واذا كان قد حارب عمرو بن عبدود وهو شاب ، فقد حارب كريز بن الصباح وهو شيخ دون ان تضعف قوّته أو تختلف عما كانت عليه .

لا تقولوا : انّ عليّاً يختلف عن الآخرين أو انّه كان نادرة الدنيا ، فالآخرون هم ايضاً كانوا كذلك مثل مالك بن الاشتر النخعي ، هذا الرجل العظيم كان شيخاً يناهز الستين أيضاً ، وقد عرفته ميادين القتال شجاعاً لايُضاهى ، وابدى من البسالة والشجاعة في صفين ما بهر الآخرين . ويحدّثنا التاريخ انه قد تقابل مع عبدالله بن الزبير في حرب الجمل ، وكان عبدالله شاباً في غاية الشجاعة ، وقد تصاولا وتجاولا ونال احدهما من الآخر ضرباً وطعناً الى ان تكسرت سيوفهما ، فتصارعا ، ولما صرع مالك عبدالله ، صرخ عبدالله مستغيثاً «اقتلوني ومالكاً» فجاء القوم يهرعون ، وخلّصوا عبدالله من يد مالك . و بعد ان مرّت مدّة على هذه القضية التقى مالك بعائشة وهي خالة عبدالله ، فعاتبته عائشة ولامته على ما صنع بابن اختها ، فأقسم لها مالك انه كان جائعاً في تلك اللحظات حيث لم يدخل الطعام فمه منذ ثلاثة أيام (وكان من الاشياء التي يعتبرونها عاراً هي ان يقتل الانسان وتبقر بطنه فتخرج منها ما يستقذره الانسان لهذا كانوا يأكلون قليلاً قبل الحرب جهد الامكان) واردف قائلاً : لو كنت قد أكلتُ شيئاً لما نجا ابن اختك مني . و ينقل لنا التأريخ ان المسلمين شدّوا حجر المجاعة على بطونهم في غزوة الخندق ، وقاتلوا بكل شهامة ورجولة . وليس هذا خارجاً عن قانون الفطرة والطبيعة .

ان فلسفة الصوم ـ من الناحية الجوهرية ـ هي انه يحرر الانسان من الترف والتنعم . ولعل الصائم يشعر بالضعف والفتور في اليوم الاول من ايام الصوم ، وذلك لانه يريد الانعتاق من قيود الترف والتنعم ، ولكن في الايام الاخيرة من الشهر يشعر انه لا يختلف ابداً عن أيام فطره . وما أكثر تصوراتنا الخاطئة في حدود قابلياتنا ! و بعض الاشخاص يرفضون بشدّة معاذير الكثيرين من الذين لا يصومون بحجة انهم مرضى . وهؤلاء يظنون انهم اذا صاموا فانّ الصوم يضعفهم ، وبما انه يضعفهم فهم لا يصومون .

وهل هناك حماقة اشد من قول القائل : انّ الصوم يؤثر على قوّة العمل ، و يعمل على تقليلها ؟ وهل الانسان خلق ليعمل فقط ؟ وهل هو حقّاً كالماكنة التي ينبغي ان تنتج اقصى ما يمكنها ؟ وهل هو كالحيوان الذي خلق لحمل الأثقال ؟ أليس له عقل ؟ أليس له قلب

وروح ؟ ألا يحتاج هذا الانسان الى التقوىٰ ؟ هل هو يحتاج الى العمل فقط ؟ ألا يحتاج الىٰ الانسانية ؟ ألا يحتاج الىٰ تذليل الطبيعة الماردة ؟ ألا يحتاج الىٰ كبح جماح شهواته ؟ ألا يلزمه تعزيز ارادته العقلائية والانسانية ؟ وهل من الصحيح ان ينظر الى كل شيء من منظار العمل والعمل فقط ؟ اذهبوا الى دوائر المرور والشرطة وانظروا الى أي حد تنخفض احصائيات الجرائم في شهر رمضان المبارك ! والى اي حد تقل أعمال التخريب ، والقمار ، والشغب ، والقتل ، والاخلال بالامن في هذا الشهر الشريف ! وفي مقابل ذلك تزداد أعمال الخير وسائر الاعمال الانسانيّة ، وكم تسمو الانسانية ! وكم يتضاعف البر والاحسان ! وكم تنشط صلة الارحام !

فعلينا إذاً ان نأخذ بنظر الاعتبار جميع هذه الفضائل ولا نفكر بالعمل والشغل فقط !

نعم ، فتلك التصرفات وامثالها نسمّيها تطرفاً ، ونسمّيها جهلاً ، و ينبغي وضع حدٍّ لها .. وما أجهل اولئك الذين يضعون تلك التصرفات والتقولات في قائمة متطلبات العصر ، والانسجام مع الظروف الموجودة ، ومراعاة المستلزمات الزمنية وتطوراتها ! وما أشدهم تطرفاً عندما يقولون : ان الناس كانوا يصومون في زمن النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ لانه لم تكن هناك حاجة الى العمل ، اما مجتمعنا اليوم فهو بحاجة ماسّة الى العمل ، اذن يختلف هذا الزمن عن زمن النبيّ (ص) ، و يتبع هذا الاختلاف تبديل في متطلبات الزمن ومستلزماته وعليه فيجب علينا رفع الصوم في هذا العصر !

اما التفريط في العمل فهو على العكس اذ انّ اصحابه يظهرون تزمتاً وتعنتاً وجموداً و يصرّون على قضايا يربأ الاسلام عن مثلها ، فخطر الجمود لا يقل عن خطر الجهل .

انّ في ديننا ما يكفي من الاعتدال والحمد لله ، وفي اطار الانسجام مع تطورات العصر ومتطلباته ، فكما لا نقرّ تصرّفات عمر و بورقيبة التي تتطاول على الدين وتتلاعب باحكامه بذريعة تبدل الزمن وتطور الاوضاع ، فكذلك لا نقر التصرفات الاخرىٰ التي تتذرع بمواضيع لا أساس لها في الدين باسم الدين ، و يُصر أُصحابها على امور ما انزل الله بها من سلطان فيقولون مثلاً : ان التلميذ المبتدىء الذي يريد أن يدرس يجب ان يبدأ درسه من جزء عمّ في القرآن حتى يصبح متعلّماً . ولا أدري فهل قال النبيّ (ص) او الامام (ع) بهذا ؟ هل أكدوا على الطفل ان يبدأ من جزء عمّ حتماً ؟

هذا ـ واقعاً ـ عمل غير مستحسن لانه لا يحفظ حرمة القرآن . ونحن قد طالعنا بأنفسنا

ورأينا الآخرين . انّ الاطفال الذين لايراعون مسألة الطهارة والنظافة فكيف يراعون حرمة القرآن ويحفظون جزء عمّ ؟ انهم -بلا شك- يمزّقونه قطعة قطعة ، ولكن علينا ايضاً ان نكون يقظين بان لايكون ترك هذا الجزء الشريف ذريعة بان لايتعلم الاطفال قراءة القرآن اذ ربما يصل الطالب حتىٰ صفّه الاخير وقد تعلم كل الدروس ما عدا القرآن . فذلك جمود ، وهذا جهل . فلتكن الامة الاسلامية معتدلة لا جاهلة ، ولا جامدة متحجرة وقد قال امير المؤمنين -عليه السلام- (اليمين والشمال مضلّة والطريق الوسطى هي الجادّة) فالنزوع نحو الاثنين خطأ كبير ، فاستقيموا حتىٰ تحقّقوا هدفكم ، واطلبوا من الله ان يدلكم على الطريق المستقيم دائماً ، وعزّ من قائل : «اهدنا الصراط المستقيم» .

الطريق الوسطى

الطريق الوسطى

قال تعالىٰ : «وكذلك جعلناكم امـةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس و يكون الرسول عليكم شهيدا»[1] .

انّ من علامات المسلم تشخيصه الطريق الوسطىٰ التي تكون وسطاً بين الافراط والتفريط ، والتطرف وعدمه . وقد وردت في هذا الصدد عبارة في حديث مشهور: «ان لنا في كل خلف عدولاً ينفون تحريف الغالين وانتحال المبطلين» .

و بعبارة اخرىٰ : انّهم يحولون دون وصول الضرر الصادر من الاصدقاء والاعداء معاً . فالضرر لايصدر من الاعداء فقط اذ ربما يصدر من الاصدقاء فيكون خطره أكثر من ضرر الاعداء انفسهم ونحن نناقش القسمين لنتمكن من تمييز الطريق الوسطىٰ بالنسبة الى انسجام الاسلام مع متطلبات العصر، تطرف الاعداء من جهة ، والصادر عن الاصدقاء من جهة اخرىٰ . وقد ذكرتُ البارحة انّ في قضية انسجام الاسلام مع متطلبات العصر تيارين متضادّين ، وكلاهما على خطأ ، وهما موجودان على مر التأريخ الاسلامي . احدهما : التيار المتطرف الذي جسّدته التصرفات غير المناسبة بالنسبة الى **الأحكام** الدينية من خلال تصورات واهية وآراء هزيلة أسميناها «الجهل» . والثاني : **التيّار** المتحجر المتزمت المناهض لروح الاسلام ، الذي مثّلته ممارسات المحبّين من أهل الاحتياط الذين أفضى احتياطهم الى قصم ظهر الدين مائة بالمائة لانه احتياط ساذج قاصر.. ولا ننكر وجود تيار وسط بين التيارين ،

---

(١) سورة البقرة / ١٤٣ .

ولكن بما اننا نروم تشخيص هذا التيار والاطلاع عليه بدقّة لهذا ينبغي التعرف ـ بعمق و بصورة صحيحة على ذينك التيارين لتحقيق ما نروم اليه .

وذكرت في محاضرتي ليلة أمس مثالين حول التصرفات الصبيانيّة بشأن الاحكام الدينية التي يطلق عليها جزافاً اسم التحرر والتنوير الفكري ، وربما اطلق عليها اسم الاجتهاد ، وهي ليست كذلك لان الحق يقتضي ان نسميها «الجهل» لا الاجتهاد . والمثالان ـ كما هو معلوم ـ احدهما يتعلق بالخليفة الثاني وتطاوله من خلال حذف عبارة «حي على خير العمل» ، والثاني يتعلق باحد رؤوساء الدول العربيّة وموقفه من الصوم .. وعلى ان اذكر امثلة اخرىٰ ، علماً ان واجب كل مسلم الوقوف بشدّة مقابل هذه التيارات ومروجّيها . ومن الاسئلة التي توجّه اليّ باستمرار ، ولا سيما عندما سافرتُ أخيراً الى الاهواز للمشاركة في احتفال اقامته كليّة الزراعة بمناسبة النصف من شعبان حيث كانت هناك ندوتان للاجابة على الاسئلة المطروحة ، سؤال حول الحكمة من تحريم لحم الخنزير ، وهو سؤال سمعته مراراً . والسائل يطرحه بهذا الشكل : ان لحم الخنزير حرام ، وهذا أمر حكيم للغاية ، وكان الناس لا يعرفون لحم الخنزير في عصر صدر الاسلام ، ولا يعرفون ما به من جرثومة أو ميكروب يطلق عليه (التريشين) الذي يُسبّب مضاعفات كثيرة لمن يتناوله ، ففي ذلك العصر كان الناس لا يعرفون هذه الجرثومة ، كما لم تكن هناك وسيلة للقضاء عليها ، وانما عرف النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ هذه الحقيقة من خلال الوحي حيث أُمر ان يبلّغ الناس بعدم تناول لحم الخنزير ، فحرمته اذاً بسبب وجود تلك الجرثومة في جسمه ، امّا اليوم فانّ الاكتشافات العلمية الجبّارة التي تمّ انجازها نبّهت الناس على وجود الجرثومة في لحم الخنزير ، وعلّمتهم كيفية القضاء عليها . و بناءً على هذا فانّ العلّة التي كانت موجودة في تحريم لحم الخنزير قد انتفت هذا اليوم بسبب العلم .

اذن لو تيسر لنا أن نأكل لحم الخنزير هذا اليوم فلا يعد **عملنا** خلافاً للتعاليم الاسلامية **!** ولو كان النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ حيّاً هذا اليوم وسألناه عن **جوازأكله** بعد القضاء على **جرثومته** ، لأجاز لنا ذلك ، ولقال بانّ نهيه السابق عن أكله هو عدم وجود الوسيلة التي تكفل القضاء عليه ، امّا اليوم إذ توفرت هذه الوسيلة فلا مانع من أكله . فذكرتُ هناك ان بعض مقدمات هذا الكلام صحيح تام و بعضها ناقص مبتور . وانّ ما ذكر بشأن وجود الدليل

لكل حكم من الاحكام ، صحيح ، وهو عين ما ذكره علماء الاسلام من ان لكل حكم شرعي حكمة خفيّة ، وكما يقول علماء الفقه والاصول : ان الاحكام تابعة لسلسلة من المصالح والمفاسد الواقعية . اي اذا حرّم الاسلام شيئاً فلوجود مفسدة فيه ، مادية كانت أم روحية ، شخصية كانت او اجتماعية ، ففي كل الاحوال ان علّة التحريم وجود الضرر . و بعبارة اخرىٰ . ان التحريم التعبدي لم يُشرّع اعتباطاً بل لوجود حكمة لانعرفها . وهذا ما يتّفق عليه علماء مدرسة أهل البيت جميعهم . امّا علماء الجمهور كالاشاعرة فانهم لايقولون بهذا حيث لهم افكارهم الخاصّة بهم ، وهي بلا شك افكار خاطئة قد أضرّت الاسلام والمسلمين كثيراً . وبما انّ توحيدهم ناقص فانهم يرون انّ الله ارفع شأناً من أن يُشرّع حكماً لمصلحة معيّنة ، وهذه الصفة لاتنطبق عليه بل تنطبق على الانسان ، لان الله أرفع من ذلك كله ، وحاشاه أن يأمر بشيء أو ينهىٰ عنه لمصلحة معينة أو علّة محدّدة ، علماً انّ ائمّة اهل البيت ـ عليه السلام ـ قد سئلوا نفس السؤال حول صحّة تلك الاعتقادات ، فأجابوا بالسلب ـ وكما هو معلوم ـ فانّ عقيدتهم هي انّ الله لايشرّع أو يخلق شيئاً الّا بحكمة ومصلحة ، وتقتضى سنّة العدل الالهي ان يكون عادلاً في التكوين ، وفي التشريع ، وعلى هذا الاساس اعتبر العدل أحد اصول الدين . امّا من قال خلاف ذلك فهو على خطأ ، وهم اليوم أثـرٌ بعد عين علماً انّ كافّة المسلمين من ابناء العامّة هم من الاشاعرة لكنّهم تخلّوا عن هذا الاعتقاد ، ولا يتحمّسون له الآن .

إذاً قولكم ـ ايها القائلون ـ ان الاسلام لم يحرّم شيئاً الّا لعلّة ، صحيح ، وانا اتّفق معكم فيه ، إذ لم يحرّم أو يُنجّس لحم الكلب مثلاً الّا لمصلحة ، ولا بدّ من وجود شيء فيه يضر الانسان اقتضى تحريمه ، ولكن ليس من حقّنا الخوض في تلك المصلحة أو العلّة ، كما لا يمكننا التقصي عنها .

انّ الحديث الذي يتداول حول هذه الأشياء في واقعنا المعاصر هذا اليوم ، لم يكن له وجود في عصر صدر الاسلام . ولكن هناك موضوع آخر ينبغي التنبه له وهو: اننا لو فرضنا ان مجتهداً يحصل عنده الاطمئنان بانّ الاسلام قد حرّم لحم الخنزير بسبب وجود تلك الجرثومة التي تم اكتشافها هذا اليوم، و يفتي بحلّية أكل لحمه ، فاننا لا نطيعه هنا ، ولا نتفق معه في فتواه اذ يجب ان يكون المجتهد متمرّساً ، لانه يمكن أن تكون في الشيء المحرّم عشرات الاخطار التي لم يكتشف العلم الّا واحداً منها ، ولا زالت بقيّة الأخطار على حالها .

فعلى سبيل المثال نجد ان العلم قد اكتشف مادة البنسلين ، و بيّن فوائدها بالشكل الذي جعل الناس يقبلون عليها ، و بعد عدّة سنين تبين انّ في هذه المادة أضراراً ، أو لا يُسمح باعطائها لكلّ المرضى على الاقل ، فالعلم هنا قد اكتشف جانباً من هذه المادة ، و بقي الجانب الآخر منها غامضاً ، فمتى يحصل الاطمئنان لدى المجتهد ان سبب تحريم الاسلام للحم الخنزير هو وجود تلك الجرثومة فقط ؟ ولو قلنا انه قد تعجل لأصبنا كبد الحقيقة ، لانه لو سئل فيما اذا كان يجزم بعدم اكتشاف العلم لشيء جديد آخر مضر في الخنزير بعد عشرين سنة ، فما عساه ان يقول ؟ وما يدريك لعلّ صفات بعض الحيوانات تكمن في لحومها بحيث إذا تناول أحد ذلك اللحم ، فانّ تلك الصفات تنتقل اليه ! ومن صفات الخنزير انه قذر للغاية . وورد في الحديث انّ من الصفات المعنوية لهذا الحيوان انه يذهب الغيرة ، ومن الطبيعي -كما تعلمون- ان لكل حيوان صفات معنوية تخصّهُ ، فمثلاً يتصف الكلب بالوفاء في حين يفتقد الخنزير هذه الصفة ، ولا تتوفر فيه أبداً ، وعندما سئل الامام الرضا -عليه السلام- عن الحكمة من تحريم لحم الخنزير ؛ أجاب : «لانه يذهب الغيرة» وهذا ما نلاحظه عند **الاوربيين** إذ بدت عليهم - بكل وضوح - أعراض تناول هذا اللّحم اذاً فالانسان الذي يجزم بفلسفة الأحكام ولا يرى غيرها مصراً على انها هي لا غير، فهو غير ناضج وغير واعٍ ..... ومثالنا على ذلك الخمر المحرّم في كافّة الشرائع السماوية ، فربما يقول القائل : انه قد حرّم لضرره على الكبد والقلب لكن التجارب اثبتت ان الانسان لو تناول قليلاً منه فانه ليس مضراً فحسب بل نافع ومفيد ، و بناءً على هذا فقليله حلال وكثيره حرام ، وهذا هو تخبط آخر، والمطلوب هو التأني في الحكم والتقويم بالنسبة الى هذه المسائل وهناك بعض الاشخاص كانوا يقولون : ان الحكمة من تحريم الخمر هي لانه يزيل العقل ، ونحن عندنا استعداد الى الحد الذي لو تناولنا أيّ مقدار منه فانه لا يسكرنا ، فيكون - على هذا الاساس - حلالاً لنا وحراماً على غيرنا .. وهذا - لعمري - هو البعد الحقيقي عن جادّة الصواب إذ لعلّ هناك آلاف الحكم التي أدّت الى تحريم الخمر ونحن غافلون عنها ، أو لم ندركها لحد الآن ، هذا اولاً ، وثانياً : انّ الشيء المحرّم - ولو لم يكن هناك ضرر في ذرّة واحدة من ذرّاته - يبقى محرّماً على الاطلاق ، و ينبغي ابتعاد الناس عنه .

واود أن اضرب لكم مثالاً آخر وهو: بعد الحرب العالمية الاولى خطّط أرباب السياسة آنذاك على إثارة **الحسّ** القومي لدى الشعوب لأسباب استعمارية خبيثة . وقدم

الرئيس الاميركي «توما و يلسون» مشروعاً يتكون من أربع عشرة فقرة احداها : إثارة المشاعر القومية وتهييجها علماً ان فقرات هذا المشروع لم تخصّ الدول الاسلامية بل كانت تخص دول العالم ككل . وهذا المشروع يشبه مشروع ارسطو الذي قدّمه الى **الاسكندر** عندما طلب منه الاخير ذلك بعدما قام بفتح العالم واكتساح اقطاره كالسيل الجارف فاستشاره في كيفية المحافظة على تلك الفتوحات التي وضع الاسكندر ـ من خلالها ـ جميع العالم تحت رايته ، فقال له ارسطو : «فرّق تسد» اي اذا فتحت قطراً من الاقطار فمزّق شعبه تمزيقاً ، وانتخب من بينهم أشخاصاً للحكومة ، وحاول ان توقع بينهم الخصومة إذ يتنازعون فيما بينهم ، و يناوىء أحدهم الآخر؛ فيكون اعتمادهم التام عليك فقط . وتستطيع ـ من خلال هذا الاسلوب ـ أن تفتح الاقطار واحداً بعد الآخر ، **وتخضعها** لسيطرتك .

هذا التوجه نفسه قد وجد في الحرب العالمية الاولى ، وكان المنظّر له «و يلسون» ، و يقضي هذا التوجه بتقوية الحس القومي وإثارة النعرات العنصرية والعرقية . فعلى سبيل المثال بالنسبة الى الوطن الاسلامي الذي كانت شعوبه المختلفة تحت راية حكومة واحدة ، فقد عمل أصحاب هذا التوجه على إثارة النعرة القومية لكل شعب من شعوبه ، وذلك من أجل تفتيته .

ومن بين أقطار هذا الوطن الدولة العثمانية ، وهي تركيا الحالية ، وقد كانت احدى دول العالم الكبيرة ، وكانت الدول العربية تحت نفوذها . وما قام به الخبثاء من المستعمرين هو تحريض بعض الشخصيات العربية لاشعارهم بضرورة الاعتزاز بقوميتهم والدفاع عنها ومناصرتها ضد الدولة العثمانية ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى قاموا بتحريض مصطفى كمال أتاتورك بحشو دماغه بانهم اتراك **ولغتهم** تركية ، واستجاب هذا المعتوه ، وقام بأعمال طائشة ضد الاسلام ، فبدّل الحروف العربية باللاتينية ، وركّز هو واتباعه على العنصرية والعرقيّة ، واعتبر الدين مسألة ثانوية ، وقضية فردية خاصة لا علاقة لها بالقضايا الاجتماعية . وقد تم التصويت في المجلس على الغاء الدين **وعلمنة** الدولة ، وما ترتب من أثر على هذه الأعمال هو تقطيع أوصال العالم الاسلامي بفصل تركيا البلد المسلم عن بقية البلدان الاسلامية ، ووصلت بهم الصلافة والوقاحة حدّاً انهم قالوا : ليس لله تعالى لغة خاصّة ، فلماذا تكون الصلاة باللغة العربية ؟ لنصلّي بلغتنا التركية ! ولا فرق في ذلك لان الاسلام أراد من الناس أن يصلّوا بأيّة كيفية كانت ، ولم يؤكد على كيفية محددة ، ولغة معيّنة ، فالمهم هو الصلاة وليس

المهم لغة الصلاة ، فلا تهم اية لغة كانت ! « والله بكل شيء عليم » فلا دليل يحتّم علينا أن نصلّي باللغة العربية !

هذا لون من ألوان الطيش والتسرع ؛ لانه لو لم تكن للدين لغة خاصة به فلا يمكنه البقاء . ولا نعني مثلاً ان للاسلام ـ بالحرف الواحد ـ لغة خاصة به اي ان الاسلام لم يوجب على الناس ان تكون لغتهم في المحادثة عربية ، كما لم يضع لغة خاصة ليتحدّث بها الناس فيما بينهم ، ولم يفرض خطاً معيناً عليهم بحيث ينبغي على الناس ـ مثلاً ـ ان يكتبوا بالخط العربي فقط ، وذلك لانه ليس ديناً عنصرياً ، فهو يخلو من هذه القيود ... لكن لا ننكر القول : بان الاسلام قد اختار لغة خاصة في ممارسة الأعمال الدينية ، وذلك لتوحد بين جميع الناس تحت رايتها ، وسواءً كان هذا العمل صالحاً أو لا باعتبار ان لشعوب الامّة الاسلامية لغات مختلفة ، لكنه ـ على الاقل ـ يجعل تلك الشعوب متوحدة اللغة في حقل واحد من حقول أعمالها . وهذا نعم التوجه ، لانه يعمل على وحدة الجنس البشري ، وانها ـ حقاً ـ لخطوة نحو تلك الوحدة . ولو كان الاسلام قد كلّف الناس أن يتكلموا بلغة واحدة لما كان هذا التكليف عملياً ، ولما كان حسناً ؛ وذلك لان لكل شعب لغته وآدابه الخاصّة به ، والتي تمثل جزءاً من تراثه وتراث البشرية جمعاء . وفي هذا الصدد علينا أن نحافظ على اللغة الفارسية وذلك لما فيها من جواهر نفيسة ومعطيات ثرّة وقيّمة فيها عظيم الخير والفائدة للانسانية ، ولا أقول هذا انطلاقاً من كوننا ايرانيين ونحمل الحسّ القومي بل أقوله من وحي حبّ الناس ، وحبّ الخير لهم ، والتعلق بالاشياء النفيسة لبني الانسان . فكتاب الشاعر سعدي المعروف بـ « كلستان » يعدّ واحداً من ذخائر البشرية . وهناك فنّ من الفنون الشعرية في الادب الفارسي يُعرف بـ « مثنوي » و يعتبر أحد الذخائر أيضاً . وفي اللغة العربية كذلك إذ لو استثنينا القرآن الكريم ونهج البلاغة ، والصحيفة السجادية حيث لكل منها مكانته الخاصّة بها ، فانّ كثيراً من الكتب العربية تعدّ جزءاً من ذخائر البشرية ، وديوان ابن الفارض ـ مثلاً ـ واحد من هذه الذخائر .

اذاً لا يمكن ان يختار جميع الناس في العالم لغة واحدة لهم ، ولكن نعمل جهد الامكان على جعل اللغة الدينية لشعوب الامة الاسلامية واحدة . وهذا ممكن علماً انه لا يعنى انّ لغة الله تعالىٰ ـ والعياذ بالله ـ عربية لانه ـ جل شأنه ـ لا يحتاج الى اللغة ، وحتىٰ لو لم نتكلم فهو يعلم بنيّاتنا ، ولكن ـ كما قلت ـ ان لهذا العمل فلسفة خاصّة به ينبغي المحافظة عليها .

وما ورد من توجهات وتصرفات معادية للاسلام يدلّل على قصور فكري بيّن ، وكم من عالم يجهل اشياء كثيرة .

وفي هذا الصدد يقول الشاعر ابو نؤاس :

وقـل لمـن يـدّعـي في الـعـلـم فـلسفـة حـفـظـت شيئـاً وغـابـت عنـك أشيـاء

وهناك نكتة ، ارى لزاماً عليّ ، ان ألفت اليها انظاركم وهي : انه ليس في مقدور كل لغة في العالم ان تعكس ـ تماماً ـ مفاهيم ومعاني لغة اخرىٰ ، إذ لكل لغة نكهتها الخاصّة بها . فلو اجتمع ـ مثلاً ـ كافة أدباء اللغة الفارسية لترجمة سورة الحمد ـ كما هي عليه ـ لما استطاعوا . وكذلك لو أراد شخص ما ترجمة اللغة الفارسية ـ بما توحيه من معنىٰ وبما هي عليه من ظرافة ـ لما استطاع أيضاً ، ولا أحد يقدر ـ مهما حاول ـ ان يترجم شعر الخيّام الى لغة اخرىٰ . واتذكر انني ألّفت كتاباً قام بتعريبه أحد الفضلاء ، وعندما طالعتُ التعريب لم يدر في خلدي انه هو نفس الشيء الذي كتبته . وتدلُّ الاحصائيّات على انك لو نقلت كلاماً الى شخص ، ونقله هو الى شخص ثالث ، والثالث الى رابع ، وهكذا الى ثلاثين أو اربعين شخصاً ، ونقل لك آخرهم ما قلته انت من كلام للاول لوجدت انه يختلف اختلافاً كبيراً عما قلته ، ولما أشبهه أبداً وذلك نتيجة ما طرأت عليه من تغييرات ، هذا بالنسبة الى الكلام العادي الذي نقوله نحن فكيف بالدين ؟

ان احدىٰ ميزات الاسلام ان نصوصه محفوظة . القرآن الكريم محفوظ ، الادعية محفوظة ، وعلينا نحن أن نحافظ علىٰ تلك النصوص .. وانه لمنتهىٰ الجهل والحماقة ان نفكّر تفكيراً ساذجاً بانّ الله ليس له لغة خاصّة ، فلهذا نترجم الصلاة من اللغة العربية الى اللغات التي تتكلم بها الشعوب الاخرىٰ . وهذا انموذج آخر يعكس الجهل والتصرفات الصبيانيّة التي تصطنع في الدين من قبل بعض الاشخاص الرعناء ، و ينبغي على العقلاء الصلحاء الوقوف بشدّة للحيلولة دون حدوث مثل هذه التصرفات .

العقل وطريق الإعتدال

العقل وطريق الاعتدال

قال تعالىٰ : «وكذلك جعلناكم امّةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس و يكون الرسول عليكم شهيدا»[1] .

كان بحثنا يدور في الليالي السابقة ـ حول نقطة مهمة وهي وجوب الحذر من شيئين حتىٰ نكون بمستوىٰ ما يريده القرآن منّا . وهذان الشيئان هما : اولاً : التطرف في التوجه ، والتدخل **اللاّمسؤول** ، والممارسات الصبيانية ، التي ذكرتُ أمثلتها في تلك الليالي ، وسوف اذكر في هذه الليلة مثالاً آخر ، ثانياً : الجمود ، و يعني :**التزمت** في غير محله .

انّ المثال الذي أحببتُ ان اذكره وهو يجسّد تلك التصرفات الصبيانية يتعلق بقاعدة القياس الذي اخذ به أبو حنيفة في القرن الثاني . والجمهور من المسلمين كانوا يقلّدون علماء زمانهم في المسائل الفقهية التي نقلد فيها علماءنا هذا اليوم ، وكان عددهم كثيراً ، ومن بينهم : سفيان الثوري ، الحسن البصري وأمثالهم . والكثير منهم بل الاكثر كانوا من غير العرب لكن كان الناس يرجعون اليهم ؛ وذلك بسبب تفوقهم العلمي ، ودروسهم المتميزة على دروس الآخرين من جهة ، وعظمة الاسلام الذي رسّخ المفهوم الانساني العام في أذهاب الناس من خلال الغائه للفوارق القومية والعرقية ، وجعل مقياس التفاضل على أساس التقوىٰ والعمل والجهاد لا على أساس العرقيّة والقومية ، من جهة اخرىٰ . وكثير منهم كانوا من الموالي الذين أُعتقوا فيما بعد ، وبما أنهم كانوا من العلماء ، لذلك أسّسوا حوزات للدراسة كان يحضرها

---

(١) سورة البقرة / ١٤٣ .

الآخرون للاستفادة .

ويحدّثنا التأريخ ان اهل مصر طلبوا من «عمر بن عبدالعزيز» ان يرسل لهم ثلاثة من العلماء الفقهاء ، فلبّى طلبهم وأرسل لهم ثلاثة : **اثنين** من الموالي العتقاء ، وثالثهم من العرب .

فاعترض شخص من أهل مصر على الخليفة بسبب عدم ارساله عرب فقط أو على الاقل اثنين منهم من العرب . فأجاب الخليفة : بأن هذا ليس تقصيره ، وذلك لعدم وجود الاكفاء بين العرب حتىٰ يرسلهم ، واذا ما بلغ احد منهم حدّاً من العلم والتأهيل ـ كالموالي ـ فانه لا يبخل بارساله .

ازداد عدد هؤلاء يوماً بعد يوم واصبحت لهم منزلة مرموقة في دنيا المسلمين ، وأحد هؤلاء : الطبري صاحب التاريخ ، والتفسير المشهورين ، فقد كان احد الفقهاء الكبار في عصره ، وكان له مقلّدون كثيرون . وكان المقلدون لا يعيرون أهمية ان يقلدوا الميّت أو الحيّ ، وكثير منهم كانوا يقلّدون الميّت ، وعندما يسئلون ، كانوا يجيبون انّهم يقلّدون مثلاً : سفيان الثوري ، أو الطبري ، أو أبا حنيفة ، في حين كانت الفاصلة الزمنية بينهم و بين هؤلاء العلماء كبيرة ، وتصل الىٰ ثلاثمائة أو أربعمائة سنة .

و يتحدث التاريخ عن اقتراح طرح في مصر في القرن السابع الهجري زمن أحد ملوكها المعروف بالملك الظاهر واسمه بيبرس وعُمل به . و يقضي هذا الاقتراح تقليد أربعة من العلماء فقط واتّباعهم ، وذلك لان تشعب الفقه ، وكثرة ابوابه ، وتعدد العلماء ، كل ذلك جعل الناس في دوامةٍ من التخبط والتردد، لهذا **عقدت الاجتماعات** الكثيرة ، ونوقشت المقترحات المطروحة في تلك الاجتماعات ، و بعد ذلك اتخذ قرار في زمن ذلك الملك يقضي بتقليد أربعة من العلماء فقط ، ومنع تقليد غيرهم ، وهؤلاء الاربعة هم : ابو حنيفة ، مالك بن انس ، الشافعي ، احمد بن حنبل ، علماً انّ اثنين منهم من العرب ، واثنين من الفرس .

وكان ابو حنيفة **فارسيّ** المحتد ، كوفي الاقامة . ومنذ ذلك الوقت تم الاقتصار على هؤلاء الاربعة حتىٰ يومنا هذا ... ولو قدّر لمجتهد أن يبرز و يفتي ، فيجب ان تكون فتواه في نطاق فتاوى الاربعة ، وليس له ان يُفتي من عنده معارضاً فتاواهم ، و بعبارة اخرىٰ يعتبر فتاواهم هي النموذج الذي يقتدىٰ ، والمثال الذي يُحتذى . وعلى هذا الأساس أُغلق باب الاجتهاد عند جمهور المسلمين . ولا يخفىٰ فانّ هؤلاء الاربعة لا يتفقون فيما بينهم في طرق

الاستنباط ، ولكلٍّ منهم رأيه الخاص به ، وطريقته التي تعنيه .

فأبو حنيفة معروف بما يسمّى بالتفكير العقلي ولكن الى حد التطرف ، اي اذا أراد ان يفتي فان اكثر فتاواه تعتمد على طريقة استدلاله العقلي بالشكل الذي قلّما يعتمد فيه على الاخبار والاحاديث . و يُنقل عنه قلة اعتماده على الحديث لاعتقاده انّ الاحاديث الصحيحة قليلة ، لكن لو عثر على حديث معتبر فانه يأخذ به . وبما انه لم يعتمد على الحديث فقد كان يتعثر في مدارك الاحكام ممّا يضطره ذلك الى الاعتداد باستدلالا ته الذهنية ، والتشبث بها كقاعدة في قياس الاحكام ، ولهذا عرف بالقياس إذ كان يستنبط الفتاوى والاحكام في ضوء قاعدة القياس . فالقياس اسلوب ابي حنيفة ، ومركزه الكوفة .

اما مالك بن أنس وهو معاصره ، فقد كان على خلاف رأي ابي حنيفة ، ولم يعمل بالقياس ـ طيلة حياته ـ الّا مرتين حتى يقل انه لما دنت وفاته ، كان مضطرباً ، وعندما سألوه عن السبب ، قال: لاني أفتيت بالقياس مرّتين. وكان مركز مالك في المدينة . وعرف عنه كثرة اعتماده على الحديث ، واذا عرضت له قضية ليس فيها حديث ، كان يرجع الى سيرة الصحابة ، واذا لم يكن لها حكم في سيرتهم ، كان يرجع الى سيرة التابعين . وله كتاب في الحديث عنوانه «الموطأ» ، ألّفه في القرن الثاني الهجري .

كان هذان الا ثنان معاصرين للامام الصادق ـعليه السلامـ وبما انّ مالكاً كان في المدينة فقد كان كثير التردد على الامام ، وكان يكنُّ له احتراماً فائقاً . ونقل أهل السنة عنه قوله : لم أر افضل وأتقى واشرف من جعفر بن محمد . ونقلوا عنه كذلك قوله : وهوما نقله أتباع اهل البيت ـعليهم السلامـ أيضاً : «كنتُ احضر احياناً عند جعفر بن محمد ، وكان له سرير يتّكىء عليه ، فيصر على ان يجلسني على سريره ، و يظهر لي من الود والاحترام ما يسرنّي» .

وهناك حديث معروف قد طرق أسماع الكثيرين منكم ، وهو ما نقله مالك نفسه . يقول : رافقت الامام الصادق(ع) مرة الى مكة ، فوصلنا مسجد الشجرة ، وأحرمنا من هناك . ولما أراد الامام ان يحرم و يلبّى كنتُ أنظر إليه فرأيته قد تغير لونه ، واراد أن يقول شيئاً لكنه لم يقدر ، وكأن صوته قد تكسر في حلقومه ، وشمله من الخوف ما جعله على وشك السقوط من على دابته الى الارض ، فدنوتُ منه ، فعرفت ان ذلك لخوفه من الله . فقلتُ له : لا بد لك من التلبية يا ابن رسول الله لانه تكليف شرعي نقوم به ، فقال : ألا تعلم ما معنى «لبيك» ؟ انّ معناها : انا

عبدك الذي اجاب دعوتك ، ولو اجابني بقوله : **لا لبّيك**،فماذا افعل ؟ وامّا ابو حنيفة فقد كان من تلاميذ الامام الصادق(ع) ، وكان مقيماً في العراق .

ومن العلماء الآخرين وأئمّة المذاهب المعروفين : الشافعي ، وكان معتدلاً كما ينقل المؤرخون ، وعاش في مرحلة متأخرة عن أبي حنيفة ومالك . و ينقل انه كان تلميذ تلميذ ابي حنيفة ، و يبدو انه تلميذ الامام ابي يوسف . تتلمذ على يديه فترة في العراق ، وتعلم منه فقه ابي حنيفة ، و بعد ذلك درس عند مالك بن أنس . وكانت آراؤه واعتقاداته وسطاً بين الا ثنين ، فلم يعمل بالقياس كما عمل به ابو حنيفة ، ولم يعارضه كما عارضه مالك . وسافر الى مصر فقلده أهلها وعملوا بفتاواه ، ومنذ ذلك العصر أصبح المصريون من الشافعية .

ومنهم احمد بن حنبل ، وهوبعد الثلا ثة ، وكان معاصراً للامام الهادي -عليه السلام- تقريباً . وله كتاب مطبوع تحت عنوان «المسند» . ولا يخفى فانّ الوهابيين من أتباعه . وكان احمد بن حنبل أكثر من مالك في مخالفته للقياس والاستدلال الذهني ، وفقهه جامدٌ للغاية لو صحّ التعبير، وكان متعصباً جداً ، لكنه كان مستقيماً في سيرته .

وقد سجن مدّة مع اشخاص كثيرين من أتباعه ، وجلدوا جميعاً ، وذلك بسبب قولهم : انّ القرآن غير مخلوق ، ولم يتنازلوا أو يتراجعوا بل ظلّـوا على عقيدتهم حتى جاء حاكم آخر فأطلق سراحهم . فخرج ابن حنبل من السجن معزّزاً مكرّماً ، ووجد له شعبية منقطعة النظير بين الناس الى الحد الذي ـ نقل المؤرخون ـ انه لما مات شيّعه **ثمانمائة** ألف من الناس . ولا يخفى عليكم ان ابا حنيفة قد مات في سجن الخلفاء أيضاً ، واعلموا ـ ايها الاخوة ـ اننا لا ننطلق من كوننا شيعة فنعرض عن قول الحقيقة ولا نذكر ما لهؤلاء من مواقف ، كما لا نتصور انّ هؤلاء كانوا اُلعوبةبيد الخلفاء يوجّهونهم اينما شاءوا . كلا ، لم يكونوا كذلك بل كانوا متصلبين في عقائدهم . وكم أراد الخلفاء من ابي حنيفة ـ وهو في السجن ـ ان يفتي بشرعية خلافة العباسيين فأبى ! وكان يقول : انّ الناس بايعوا بني الحسن ولم يبايعوا بني العباس ، لهذا فانّ تلك البيعة هي الصحيحة ، امّا بيعة العبّاسيّين فهي غير صحيحة ، وتحمل الجلد في السجن ، ولم يُفتِ أبداً بشرعية الخلافة العباسية . وكذلك مالك بن انس ـ بدوره ـ سُجن وجُلد ولم يتنازل عن فتواه بالنسبة الى الخلفاء ، فهؤلاء من مفاخر الاسلام . وما أعظم الاسلام إذ انّه لم يُربّ ابناءه ليكونوا العوبة بيد الخلفاء ، كلاّ وألف كلاّ !

انّ فقه احمد بن حنبل ـ كما ذكرنا ـ جامد للغاية . ولم يعمل بقياس العقل ، في حين كانت مدرسة ابي حنيفة ترىٰ ـ و بكل تطرف ـ انّ الحجيّة للعقل ولا غير ، و بلغ ابوحنيفة حدّاً في تعبده بالعقل يأباه العقل نفسه ، وكما قلنا ـ انه كان قليل الرجوع الى الاحاديث . ويمكن ان نعبّر عن قياسه انه لون من ألوان حرية التعبيرعن الرأي في أمور الدين ، وقد تجسد ذلك من خلال التصرفات والممارسات اللامحمودة التي تعرضنا لشيء منها ليلة أمس .

و ينقل عنه «أحمد امين المصري» في كتابه «ضحى الاسلام» قصّة تتعلق بقياسه فيقول : ذهب ذات يوم الى الحلاّق ليحلق لحيته ، وكانت قد ابيّضت بعض شعراتها ، فأمر الحلاّق أن يلقط الشعر الابيض من لحيته ظنّـاً من انّه لولقطـه فلا ينبت بعد ذلك مكانه ، فقال له الحلاّق : ان لقطتها كثرت ، قال : اذن القط السود حتىٰ تكثر ! ! علماً انّ من طبيعة الانسان انّه لا يرغب ابداً في ابيضاض شعره لاسيما اذا كانت عنده زوجة شابّة ! فماذا يعني عمل ابي حنيفة هذا ؟

انّه هوالقياس بذاته . ومدرسة أبي حنيفة هي مدرسة القياس ، وهذا القياس هوالذي كان يفضي الى حصول ممارسات وتصرفات غيرمناسبة في الدين ، ولو كانت قد استمرت لتلقى الدين منها **صفحات** قوية ،علماً انه لم يعارض القياس أئمتنا فحسب ، بل عارضه مالك ، **والشافعي** بتطرف ، واحمد بن حنبل الذي كان لايرىٰ للعقل دوراً في المسائل الدينية واستنباطها .

ولو قُيض لأحد ان يتعرف ـعن كثب ـ على المدارس الفقهية الكبرىٰ لعامة المسلمين ، و يرىٰ ماذا قال أبوحنيفة ، وما قال الآخرون ، ثم يراجع ما قاله أئمة أهل البيت ـ عليه السلام ـ لوجد أنهم قد انتهجوا طريقاً يعتبر ـ بحق ـ مفخرة عظيمة في دنيا الاسلام ، فلا برأي ابي حنيفة أخذوا ، ولا رأي الآخرين انتهجوا . وهنا يكمن احد أدلتنا على الامامة .

فأئمتنا ـ عليهم السلام ـ حاربوا القياس بشدّة ، وقولهم فيه مشهور: «الشريعة اذا قيست محقت» فلم يقولوا مثل ما قال احمد بن حنبل : ان العقل لا دور له في الاستنباط ، بل أعطوا للعقل دوره ، لكن ذكروا ان القياس لا يمت للعقل بصلة . ولم يروا ما رآه الشافعي ، ولم يوصدوا باب القياس ـ كلية ـ كما أوصده مالك . فنهجهم يتميز بالاستقلالية والأصالة ، وحكموا للعقل بالأصالة أيضاً . و يقول علماء الحنفيّة بحجيّة الكتاب ، والسُنّة ، والاجماع ،

والقياس ، و يقول علماء الحنابلة بحجّية الكتاب ، والسُنّة ، والاجماع ، ولكن علماء **الإماميّة** يختلفون عنهم فهم يقولون بحجيّة الكتاب ، والسُنّة ، والاجماع ، والعقل . والمقصود بالعقل هنا هو الطريق الوسط بين الجهل والجمود . ولو أخذنا به في استنباط الاحكام لعلمنا انه حجّة الله تعالىٰ . ونقل عن أحد الائمة المعصومين ـ عليهم السلام ـ قوله : انّ لله حجّتين : ظاهرة و باطنة ، والعقل هو الحجّة الباطنة ، وفي نفس الوقت نسفوا القياس بأن تكون له أدنى حجّة في الاستنباط (العقل حجّة وليس القياس كذلك) ، ونعم ما أناروه لنا من سبيل بين جمود ابن حنبل في رفضه للعقل ، وجهل أبي حنيفة في أخذه بالقياس . وهذا هو الاجتهاد بمعناه الحقيقي لكن لم يظل على حاله ، لانه ـ و يا للاسف ـ قد ظهرت بين أتباع أهل البيت تيّارات وقفت منه موقفاً سلبياً ، وعلى رأس هذه التيارات : التيار الاخباري ، الذي سأتعرض له فيما بعد ... و يبقى العقل هو الطريق المتبّعة عند الامامية . وهو حجّة عندهم ، بل هو حجّة الله ـ جل شأنه ـ لكن لايعني هذا أن يسرح كيف يشاء بل له قانونه الذي لايتعدّاه ، وحدوده التي لايتجاوزها ، إذ لايمكن اعتبار كل رأي حجّة بذريعة انه صادر عن العقل . فبعضها يمكن اعتباره هكذا ، و بعضها لا يمكن . فمن التي يمكن اعتبارها حجّة ـ مثلاً ـ ما يقوله **العقل** بضرورة اتباع العلم واليقين ، وما لم يحصل العلم واليقين في الشيء فلا يُتبع ذلك الشيء ، وهذا هو ما ذكره القرآن أيضاً بقوله : «ولا تقف ما ليس لك به علم»[1] .

و يقول القرآن الكريم في هذا الصدد : «وان تطع أكثر من في الأرض يُضلّوك عن سبيل الله»[2] وذلك لانهم لا يتّبعون العقل «ان يتبعون الّا الظن وان هم الّا يخرصون»[3] فالله ـ تعالىٰ ـ جعل العقل بكيفية **لا يسير** معها وراء شيء من الاشياء ما لم يحصل له العلم واليقين به . والقرآن يرىٰ قيادة العقل وريادته اعجازاً ، ووضع له قوانين خاصّة به قبل أن يضع له ديكارت بعد عشرة قرون . ولو طالعنا قوانين ديكارت التي أثارت في العالم ضجّة يومذاك لوجدنا انّها ما تزيد على ما جاء في القرآن **شيئاً** . فمن جملة ما قاله ديكارت على سبيل المثال انّه اذا اراد أن يستخدم عقله ، فأول قوانينه هو انه ما لم يحصل له العلم بالشيء فلا يتبّعه ، و يقول

---

(١) سورة الاسراء / ٣٦ .

(٢) الانعام / ١١٦ .

(٣) الانعام / ١١٦ .

أيضاً : انّي صمّمتُ على ان لا احكم على شيء ولا اقوّمه من وحي التسرّع . و يستطرد قائلاً : انه ينبغي على العقل ، قبل كل شيء ، أن يحصل على الادلّة الكافية حتىٰ يحكم على الاشياء . أي : هل انّ الادلّة كافية أو لا ؟ فمثلاً يرىٰ دارو ين ان الانسان من سلالة القرود (وهناك قرائن على كلامه) لكن بعض **الغوغائيّين** ـممّن يعوزهم التأنيـ أثاروا في العالم ضجّة زاعمين انهم قد عثروا على ابي آدم ! علماً انّ دارو ين قد ذكر انّ في العالم حلقة مفقودة ، ممّا جعل بعض الماديين يقولون بانّه قد تمّ العثور على تلك الحلقة المفقودة ، فاتّصلت بقيّة الحلقات مع بعضها البعض .

هذا هو التسرع بعينه . والطريق الوسط هو انّ الانسان يتخذ من العقل مصدراً ومرجعاً . اي : لايتعجل في موضوع العقل وعمله ، فلا يبدى رأياً في قضية من القضايا ما لم تكن واضحة عنده ، ولا يجعل لميوله النفسية نصيباً في عقله ، فالذات البشرية خادعة للعقل الانساني اذ قد يريد الانسان أن يحكم في قضيّة ما فتجرّهُ ذاته الى الحكم من جانب واحد ، والذات تُـغفل العقل وتفقده توازنه .

يقول ديكارت : يجب ان نجعل للنفس حسابها في الحكم على الاشياء ، و ينبغي ان يكون لميولها نصيب في ذلك .

ومن **الأشياء** التي تضلّ العقل الانساني وتضطرّه الىٰ الخطأ سيرة الماضين من السلف ، وهذا موضوع مهم للغاية لاينبغي الغفلة عنه . يقول **فرانسيس** بيكون في هذا الصدد : من الاشياء التي تخدع عقل الانسان سيرة الاوائل في الأعصار الماضية .

و يعبّر عنهم بالاصنام فيقول : ان الاوائل كالاصنام تضل الانسان وتخدعه إذ يرىٰ الانسان ما فعل أبواه فيفعل مثلهما . علماً ان سيرة السابقين لاتسمح للانسان ان يفكّر بحريّة ، فيحول التفكير بها دون حريّة فكره . وكم أكّد القرآن الكريم علىٰ هذا الموضوع العجيب ، وهو أول الكتب التي تحدثت عنه ، وقد لاحظت ذلك **بنفسي** عندما وفّقني الله في وقت من الاوقات حيث تحرّيتُ القرآن كلّهُ ، **فرأيتُ** انّه ما من نبيّ بعث الى قومه الاّ قالوا له : أنت تدعونا أن نترك سيرة آبائنا ، وتعمل ما تشاء . فكان جواب الانبياء لهم أن يتركوا سيرة آبائهم ، ولسان حالهم ـكما ورد في القرآنـ : «أولو كان آباؤهم **لايعقلون** شيئاً ولا يهتدون»[1] فانظروا ماذا يحكم

(١) البقرة / ١٧٠ .

العقل ؟ ومن الأشياء الاخرىٰ التي تجعل العقل يزِلّ و يهفو: العظماء في كل عصر حيث يتأثر الناس بهم و يطيعونهم طاعةً عمياء. و يذكر القرآن الكريم فريقاً من الناس يساقون الى جهنم ولسان حالهم يقول: «وقالوا ربّنا إنّا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلّونا السبيلا»[1] ومن يكون هؤلاء الكبراء ؟ أليس قد منّ الله عليك بالعقل - أيها الانسان - وأرسل لك الانبياء ؟

إنّ هدفي من وراء ما قلته هو انّه يمكن تحصيل الاعتدال عن طريق العقل .. وائمتنا هم الذين وضعوا حجر الأساس له ، واذا لم يسعنا أن نتّبعهم بشكل صحيح ، فلأننا لا نستحقّ هذا الوسام العظيم ، وتكون النتيجة امّا أن ننحدر صوب الجهل ، أونتقوقع في الجمود والعياذ بالله .. لكن ائمّتنا هم الّذين مهّدوا الطريق وكفىٰ .. ودعاؤنا من الله ان يعرّفنا على حقائق القرآن اكثر فأكثر و يبصّرنا طريقهم .

---

(١) الاحزاب / ٦٧ .

الْخَوَارِجُ

الخوارج

قال تعالىٰ: «وكذلك جعلناكم امّةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس و يكون الرسول عليكم شهيدا»(١).

ذكرتُ البارحة انّنا لو سلكنا الطريق الذي مهّده أهل البيت -عليهم السلام- في مقابل الطرق الاخرىٰ، لكُنّا في مناعة حصينة من الرذيلتين: الافراط، والتفريط. و دعمت حديثي بمثال حول المدارس الفقهية في الاسلام، فذكرتُ المدرسة الحنفية المبتنية على الاستدلالات الظنيّة كمثال علىٰ الافراط، والمدرسة الحنبليّة على التفريط. اما المدرستان الاخريان، أعني: المدرسة الشافعية، والمدرسة المالكية فلا تمثلاّن الطريق الوسط، بل هما مزيج من التزمّت والجهل.

هذه المدارس مجتمعة تمثّل تيّاراً معيّناً تنحصر نشاطاته في فروع الدين. وهناك تيار آخر سأُشير اليه، و بعد ذلك أدخل في الموضوع. وهذا التيار هو التيّار الذي يتعامل مع اصول الدين، فكما ظهرت مدارس مختلفة في الفروع، كذلك ظهرت في الاصول. واشهر المدارس في اصول الدين مدرستان هما: مدرسة الاشاعرة، ومدرسة المعتزلة. وهاتان المدرستان تشبهان تلك المدارس السابقة في توجّهاتها، فمدرسة المعتزلة تمثّل الافراط والتطرف، ومدرسة الاشاعرة تمثّل التفريط والجهل بشكل غير طبيعي.

كان المعتزلة في عصرهم يُعرفون أنهم أصحاب الافكار النيّرة المتحررة. وكانوا

---

(١) البقرة/١٤٣.

يظهرون بهذا المظهر فيبدر التطرّف في سلوكهم . وعلى سبيل المثال ينكرون وجود الجن في حين ورد ذكرهم في القرآن ، وفيه سورة كاملة باسمهم تحكى عن وضعهم «قل اوحى اليّ انه استمع نفرٌ من الجن»[1] .

و يشكل عام فهم يرفضون كل ما يتعارض مع عقولهم القاصرة ، بمعنى انه اذا عجزت عقولهم عن ادراك كنه الاشياء ، وحلّ الاشكالات ، فانهم يسارعون الى الإنكار فوراً .

اما الاشاعرة فانهم على العكس تماماً إذ يرون كل شيء من خلال مفهومه المادّي ، ويحملونه على هذا المفهوم ، اي : انهم يفسّرون كل شيء في ضوء معناه الحسّيّ الملموس . فمثلاً عندما نقول : جاء فلان ، وقال شيئاً ، فليس المقصود من المجيء مجيئه الاعتيادي ماشياً على قدميه ، بل المقصود عقيدته وفكره . وجسّدوا التزمت والجمود بدرجة جعلتهم يفسّرون بعض الآيات القرآنية ، التي تتحدث عن الباري تعالى على سبيل الاستعارة والمجاز ، وكأنّها واقعية حقيقية. وعندما سُئل احمد بن حنبل ، وهو أشعري ، عن معنى قوله تعالى: «الرحمن على العرش استوى» أجاب : «الكيفية مجهولة والسؤال بدعه» اي ان الله قد جلس على العرش ، اما ما هو هذا العرش ؟ وكيف جلس ؟ فهذا ما لا سبيل لنا الى معرفته .

مهلاً أيها السيد الفقيه ! فان القرآن نفسه يصرّح انّ الله ـ تعالى ـ ليس جسماً ، وانه محيط بكل شيء ، ومع كل شيء ، فكيف يكون له عرش يجلس عليه اذن ؟ وهنا يقول : ليس من شأننا البحث عن الكيفية . وفي مقابل تطرف المعتزلة الذين يشككون في أمثال هذه المسائل ، يقف الاشاعرة على نقيضهم ، إذ يقولون : ان الله تعالى اذا قال «وجاء ربك» فهذا يعني انه يجيء يوم القيامة ، وهم بهذا الاعتقاد يصوّرون الله ـ تعالى ـ كالانسان تماماً . ولو اعترض عليهم أحد بقوله : ان هذا يتنافى مع العقل ، فانهم يجيبون : انّ العقل لا حق له أن يتدخل في أمثال هذه القضايا .

و بين ذاك الموقف وهذا في اصول الدين ، نرى لائمة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ موقفاً آخر لا يتفق مع الاثنين حيث شقّوا طريقاً وسطاً ، لا هو طريف الافراط في غير محله ، ولا طريق الجمود الأهوج .

---

(١) سورة الجن / ١ .

أحببتُ أن اذكر في هذه الليلة أمثلة اخرىٰ تتعلق بألوان الجمود والتزمت التي طرأت في التاريخ الاسلامي ، والضربات الموجعة التي تلقاها الاسلام منها ، وأول لونٍ من ألوان ذلك الجمود والتزمت يجسّده الخوارج ، هذه الفرقة الضالّة التي طعنت الاسلام بضربةٍ قاسية ولا تمثّل ضربتهم فقط انّهم انحرفوا وتمردوا وأفسدوا وارتكبوا الجرائم الدنيئة كقتلهم الابرياء من أمثال أمير المؤمنين علي بن ابي طالب ـ عليه السلام ـ بل كانت ضربة شديدة عمّ شرها وشمل العالم الاسلامي . و بكلمة واحدة : أنهم كانوا جهلاء متنسكين . فمن المناسب ان نتعرض لهم ونذكر نبذة تاريخية عن حياتهم :

كان الخوارج من أصحاب أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ واشتركوا معه في حرب صفين . استغرقت الحرب عدّة شهور كانت تتخللها هدنة بعض الأحيان ، وذكر المؤرخون : انّ مجموع ما استغرقته من الشهور كان أربعة عشر شهراً . ولمّا شرف أصحاب أمير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ على أعتاب النصر بعد شهور من القتال ، وأوشك أن يكون الفتح لهم : دبّر عمرو بن العاص ، وهو مستشار معاوية خطّة خبيثة مستغـلّاً وجود بعض الأدمغة المتحجرة ، والعقول المتعنّتة بين أصحاب الامام ـ عليه السلام ـ ، وهذه الخطّة هي خطّة التحكيم ورفع المصاحف ، علماً انه في بداية لقاء الجيشين اقترح الامام امير المؤمنين ـ عليه السلام ـ على معاوية ان ينازله وحده دون ان يحدث قتال بين الجيشين ، فلم يستجب معاوية . فحدث القتال وكاد النصر أن يكون حليف الامام وجيشه المظفر حيث لم يبق أمامهم الّا إبادة الجيش الاموي الباغي ابادة كاملة ، فدُبّرت تلك الخطّة المشؤومة حيث رفعت المصاحف بأمر عمرو بن العاص . ونادى مناد من الجيش الباغي موجهاً ندائه الى جيش الامام : ان بيننا و بينكم كتاب الله . ولما سمع أصحاب تلك الادمغة المتعفنة النداء تركوا الحرب ، فسادت الفوضىٰ ، وانفلت النظم والانضباط العسكري الذي كان مستتباً في أجواء الحرب ، في حين انّ مبادىء الحرب تقتضي أن يطيع الجنود أوامر قيادتهم سواء كانت كفوءة أو غير كفوءة . وقالوا عناداً ومكابرةً : ان الحرب قد انتهت والقرآن حكم بيننا و بين القوم .

في حين كان هناك فريق من المؤمنيَن المخلصين في جيش الامام لم يعبأوا بما قيل وأدركوا انّها خدعة ، وعلى رأس هؤلاء : البطل المخلص مالك الاشتر ـ رضوان الله عليه ـ ، ولم يبالوا بذلك لانهم علموا ان عدوهم على وشك الانحدار ، فدبّر تلك الخطّة .

واصروا على موقفهم في مواصلة الحرب ، لكن تلك الثلّة المغرّربها ذهبوا الى الامام(ع) وطلبوا منه أن يأمر مالكاً بالكف عن الحرب ، لانّ القرآن حكم بين الجيشين .

فأجابهم الامام ـ صلوات الله عليه ـ انها خدعة ومكيدة . . . ، وانّ معاو ية لا يعتقد بالقرآن . فلم يتّعظوا ، وأصروا على مكابرتهم الى ان شعر ـعليه السلام ـ انه سيندحر حتماً ، فرضي بالتحكيم مكرهاً ، وعندما قال لهم : ان معاو ية لا يعتقد بالقرآن وليس من أهله : قالوا : وان كان كذلك ، فالقرآن الآن بيننا و بينهم . فقال (ع) : انما امرتكم بالحرب لأجل القرآن والقرآن له حرمته لكن «انا القرآن» والقرآن الحقيقي الذي هو وحي من الله في قلبي ، وهذا القرآن في متون الورق صامت ، وله حرمته أيضاً ، لكن ليس في مجال لا يقتضيه كهذا المجال ، واذا كان هناك عمل أهم فينبغي تقديمه عليه وهنا لا بد من التفريق بين القرآن بحقيقته ، و بين القرآن المكتوب على الورق ! فلم يطرح القرآن على حقيقته ، بل طرح القرآن المكتوب من أجل الخداع والتمو يه . ولكن أنّى للعقول المتحجرة أن تعي هذه الحقيقة وتذعن لها ؟

وأصرّوا واستكبروا استكباراً ، ولجوّا في طغيانهم وألحّوا على الامام أن يأمر مالكاً بالتوقف عن القتال ، الى الحد الذي أصدر الامام ـعليه السلام ـ أمره الى مالك أن يكف عن القتال ، فأجابه مالك ولسان حاله يقول : سيتحقق لنا النصر عاجلاً ، فلنواصل القتال .

فقال هؤلاء الرعناء : كفر مالك . وهدّدوا الامام ان لم يرجع مالك يقتلونه هو وشهروا عليه سيوفهم وهم ألوف قائلين له بنبرة هوجاء : إمّا يرجع مالك ، واما نقتلك ! يا له من أمر «يستفرغ العجب» ! أرأيتم ماذا يفعل الجمود ؟ أرأيتم ماذا يفعل التعنت والتزمت والجهل ؟ أرأيتم كيف أدّى ذلك التحجر دوره الخبيث إذ أُرغم الامام أن يرسل على فمالك مخبراً ايّاه : أن لو اردتَ حياتي ، فارجع ! ؟

فتوقفت الحرب ، ونادى منادٍ : كتاب الله يحكم بيننا ، فقال الامام ـسلام الله عليه ـ : على الرحب والسعة ، فاقترُح ان يُعيّن من كل طرف شخص ليكون حكماً ، و يكون العمل بما يحكم به الحكمان ، فاختار معاو ية عمرو بن العاص ، واختار امير المؤمنين عبد الله بن عباس ، فاعترض اولئك الاو باش على انتخاب بن عباس بذريعة انّه ابن عمّه ، وقالوا : يجب ان يُختار شخص محايد ، فنزل الامام عند رغبتهم ، واختار مالك الاشتر ، فرفضوا أيضاً ، و بعد ذلك قاموا هم بانتخاب شخص أهوج أحمق كانت ميوله ضد الامام ألا وهو أبو موسى

الاشعري . فتم التحكيم وانتهى بنتيجة مُخزية .

و بعد تلك النهاية الأليمة التي آلت لها معركة صفين تنبه الخوارج الى قبح ما فعلوه ، وفداحة الخطأ الذي ارتكبوه ، لكنهم مرة اخرى قاموا بأسوأ ممّا فعلوه اول مرة إذ برّروا خطأهم الشنيع ، فلم يذعنوا انهم قد ارتكبوا خطأً فظيعاً من البداية إذ توقّفوا عن الحرب ، ولم يعترفوا بخطأهم الآخر حين انتخبوا ابا موسى الاشعري ، بل قالوا انهم اخطأوا عندما قبلوا بالتحيكم والتحيكم كفر؛ لانه تحكيم للبشر في الامور في حين انّ الحقيقة هي : «لا حكم إلّا لله» وكانوا يكررون دائماً انهم اخطأوا وان عملهم كان كفراً، وكان الواحد منهم يقول : «أستغفر الله ربي واتوب اليه» والانكى من ذلك انهم جاؤا الى الامام فطلبوا منه أن يتوب ، فأجابهم : ان التحكيم كان خطأً ، وأنتم قبلتم به ، لكنه لايعني الكفر. فقالوا ـمن وحي العناد والحمق ـ : انّ التحكيم كفر، وعليك ان تتوب . فلم يستجب الامام لرغباتهم الرعناء ، فقالوا : كفر والله الرجل ، وأصدروا حكماً بارتداد الامام ، و بعدها تمردوا وخرجوا عليه ، ولهذا سُمّوا بالخوارج ، وتطاولوا بوضع احكام خاصّة في اصول الدين وفروعه ، واخترعوا فقهاً غريباً مغلقاً و بعيداً عن روح الدين وحقيقته ، واعتقاداتهم الفقهية متحجرة للغاية إذ كفّروا جميع الفرق الاسلامية ، وكفّروا مرتكب الكبيرة .. وهكذا بقيّة فتاواهم ، فكان ـبحق ـ فقهاً متزمّتاً مغلقاً مبهماً ولذلك انقرضوا ولم يبق لهم أثر، لان فقههم لم يكن عمليّاً اذ ليس في مقدور المجتمع التمسك به ، ومواصلة الحياة . علماً انّ الخوارج كانوا موجودين في جميع فترات التاريخ الاسلامي ، وعارضوا جميع الخلفاء والحكّام الذين جاؤا فيما بعد . ولم يكن رأيهم في عثمان سليماً حيث كانوا يقولون : ان النصف الاول من عمر عثمان كان حسناً ، اما النصف الثاني فقد كان سيئاً . وكذلك رأيهم في الامام حيث كانوا يقولون : انه كان في البداية مؤمناً اما بعد قبوله بالتحكيم فقد كفر ـ والعياذ بالله ـ ، وكانوا يرون معاو ية أسوأ من عليّ ـعليه السلام ـ ، وهكذا كان رأيهم ببقية الخلفاء وتمردوا على جميعهم ، وقاتلوهم الى ان انقرضوا أخيراً .

انّ الخوارج ـ على حد تعبير الامام ـعليه السلام ـ لم يضمروا سوءاً في نيّاتهم ، بل كان عندهم سوء فهم ، وانحراف في تفسير الأشياء ، وكانوا متزمتين متعنتين .

وللامام وصية فيهم حيث يقول : «لا تقتلوا الخوارج بعدي ، فليس من طلب الحق

فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه »[١] . وهنا يقارن الامام بينهم و بين أصحاب معاوية فيقول : انهم يختلفون كثيراً عن أصحاب معاوية وذلك لانهم يبحثون عن الحق لكنهم حمقى ، اما أصحاب معاوية فانهم على الباطل منذ بداية الأمر. وله أيضاً تعبير بشأنهم بعد حرب النهروان ، وهو في غاية الروعة فيقول : «فاني فقأتُ عين الفتنة ، ولم يكن ليجترىء عليها أحد غيري »[٢] .

ولو أردنا نحن أن نشكر الله -تعالى- على شيء فنشكره اننا لم نكن موجودين في عصر علي (ع) ولو كنا موجودين فلربما لم نكن بتلك الدرجة من الايمان والعقيدة ، ونوفق للثبات على نهج عليّ -عليه السلام- وقد نشترك معه في حرب الجمل أو في حرب صفين لكن لا تصدقوا اننا كنا نجرأ أن نشترك في حرب النهروان ، وذلك لانّ علياً (ع) قاتل اناساً قائمين الليل صائمين النهار، وجباههم متقرحة من كثرة سجودهم ، فأي شخص يجرأ أن يقاتلهم ؟

انّه عليٌّ دون سواه ، وذلك لانه -عليه السلام- لم يكن ينظر الى الظاهر. ومع ذلك انه يقرّ انّهم ليسوا من اهل الكذب والرياء ، كما انهم ليسوا من أهل النفاق ، ولو كانوا كذلك لكان أمرهم أهون ، لكن كان وجودهم يشكلّ خطراً عظيماً على الاسلام أشد من خطر أعدائه أنفسهم ، مع قيامهم في الليل وصيامهم في النهار. كانوا متزمتين للغاية ، ولو لم يحار بهم عليٌّ نفسه ، ولو لم تكن شخصيته ومنزلته وايمانه وزهده وتقواه ، وكثرة النصوص النبوية التي قيلت في حقه ، لما تجرأ أي خليفة بعده على محاربتهم ، ولما استطاع اي جندي المشاركة في قتالهم ، ولكن بما انّ عليّاً كان سبّاقاً في محاربة الخوارج ، لهذا فقد هان أمرهم على من جاء بعده من الخلفاء حيث كانوا يتخذون من موقف الامام ازاءهم ذريعة لهم في محاربتهم ، وكانوا يقولون : لو ان قتال الخوارج خلاف الحق لما حاربهم علي بن ابي طالب .

و ينقل انّ الامام (ع) كان ماراً في أحد ازقّة الكوفة ليلاً ، ومعه أحد أصحابه ، فسمعا صوتاً شجيّاً يأخذ بمجامع القلوب ، وكان صاحب الصوت يتلوقوله تعالى : « امّن هوقانت اناء الليل ساجداً . . . »[٣] فاندهش صاحب الامام ، وتوقف مليّاً وهويقول ما أسعد هذا الرجل !

---

(١) نهج البلاغة / الخطبة ٥٩ .

(٢) نهج البلاغة / الخطبة ٩١ .

(٣) سورة الزمر / ٩ .

طوبى له! هنيئاً له! فالتفت إليه الإمام وهويقول: رو يداً رو يداً، لا تغبطه على حاله هذا، وواصلا سيرهما، فمرّت مدّة من الزمان على تلك القضية الى ان تحرك الخوارج في النهروان، واندحروا اندحاراً شديداً، فمرّ الامام على قتلى الخوارج، ومن حسن الصدف انّ صاحبه الذي كان معه في تلك الليلة، كان موجوداً، ووصلا قريباً من أحد الاجساد، فأشار اليه الامام: انّ هذا المقتول هو الذي كان يتهجد في تلك الليلة، و يقرأ القرآن، وانت غبطته، فانظر اليه الآن.

ان من اعتقادات الخوارج عقيدتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حيث يرون ان لاضرورة للتقية التي تعني استعمال الاسلوب التكتيكي في قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ونحن نقول: اننا ينبغي ان نعمل عقولنا في مثل هذه القضايا، ويجب ان نفكر بالفوائد والأضرار، إذ لو كانت فائدة عمل ما أكثر من ضرره فاننا لا نتوقف.

امّا الخوارج فانهم يقولون: يجب العمل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مهما كانت الامور ومهما كلّفت، فترى احدهم مثلاً يقف أمام الخليفة السفاك عبدالملك بن مروان وهو يعلم علم اليقين ان كلامه لا يؤثّر قيد أنمله على الخليفة، و يعلم كذلك بانّ كلامه ربّما يؤدّي الى مقتله، وليس في ذلك فائدة، لكنه يشتمه بكل جرأة، فيقتل على اثر ذلك.

ان عليّاً (ع) هو العامل الأساس في انقراض الخوارج لانهم لم يتصرفوا وفق مايمليه الذوق السليم والمنطق الصحيح ولا سيما في قضية الأمر بالمعرف والنهي عن المنكر التي تتطلب الواقعية والموضوعية والمنطق الصائب.

ان اول تيار متزمت ظهر في دنيا الاسلام هو تيار الخوارج، وما ادراك ما الخوارج؟ وما فعلوه؟ ولو أردتم ان تعرفوا ماذا حلّ بالاسلام من جرّاء ذلك التزمت الاهوج، فانظروا ماذا قتل علي بن ابي طالب؟ وأحياناً نطرح هذا السؤال، واحياناً اخرى نغيّر منطوقه فنقول: من قتله؟ فاذا قلنا: من قتله؟ فمن الواضح ان ابن ملجم قد قتله، واذا قلنا: ما قتله؟ فعلينا أن نجيب: ان التزمت المتحجر هو الذي قتله!

انهم هم انفسهم الذين كانوا يحيون الليل بالعبادة جاءوا لقتل عليّ (ع).. حقاً انه لموقف مؤلم مؤثر.. وما أعظم عليّ -عليه السلام- حيث كان يترحم عليهم لجهلهم! وكان يعطيهم حقوقهم من بيت المال، ومنحهم حرية الفكر والتعبير عن الرأي. وكل ذلك لم يروعهم عن غيّهم حتى تآمروا لقتل ثلاثة: أحدهم: علي بن ابي طالب. وانتم على علم

بتفاصيل تلك المؤامرة ، ولم يفلح اولئك الثلاثة الاّ عبدالرحمن بن ملجم ، علماً انه أيضاً قد استعان بآخرين .

يقول ابن ابي الحديد : لو أردتم ان تعلموا ما الجهل ؟ وما الجمود ؟ فلاحظوا بدقة هذه النكتة : وهي : ان اولئك الثلاثة لما قرّروا قتل الامام ، ومعاوية ، وعمرو بن العاص ، وانتخبوا ليلة التاسع عشر من شهر رمضان لتنفيذ خطتهم ، فانهم قالوا « انهم يريدون عبادة الله و **يبتغون** ثوابه ، ولانهم عازمون على تنفيذ عملٍ من أعمال الخير والبر ، فالافضل ان يقوموا بعملهم هذا في ليلة من اللّيالي العظيمة المباركة حتى يحصلوا على عظيم الأجر» .

ونفّذوا ما لا ينبغي فعله في ليلة التاسع عشر من شهر رمضان المبارك .

عوامل تطهير الفكر الإسلامي

عوامل تطهير الفكر الاسلامي

قال تعالى : «وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس و يكون الرسول عليكم شهيدا» (١) .

أرأيتم كم يكون الماء المتفجر من العيون والينابيع صافياً زلالاً ؟ لكنه بمجرد أن يجري في الجداول والانهار، فانّه قد يتلوث تدريجياً . وربما يكون هذا التلوث محسوساً ، وربما لا يكون .

فالتلوث المحسوس يلاحظ عندما يكون التراب والطين داخل الماء ، أو عندما يمرّ الماء علىٰ مكان فيه روث الحيوانات فيختلط معه شيء منه ، فيتغير لونه . اما التلوث غير المحسوس فيمكن ان يكون في الماء لكنه غير قابل للمشاهدة ، اي اذا أردت ان تنظر فيه تجده صافياً زلالاً وكأنه لم يختلف عنه عندما كان في العين أو الينبوع . ولكن عندما يغطس فيه أحد الأشخاص وهو مصاب بأحد الأمراض المُعدية ـ لا سمح الله ـ ، و يشرب منه الناس فقد يُصابون بذلك المرض ، في حين لا يُرىٰ في الماء شيء ، ولكن في الحقيقة هناك جراثيم صغيرة جداً لا تُرىٰ بالعين المجرّدة الّا بالمجهر، وهذه هي سبب تلويثه ، ولا ننكر القول بانّه يمكن تصفية هذا الماء الملوث بواسطة أجهزة التصفية الخاصّة . وكما توجد هذه الحالة في الامور المادية فهي كذلك موجودة في الامور المعنوية . و بعبارة اخرىٰ : انّ المنهل الفكري الصافي الذي يكون نظيفاً وخالياً من الملوّثات في البداية يمكن ان يتعرض ـ بسبب ملامسته التدريجية للمناهل الفكرية الاخرىٰ ، أو بسبب تلاقف الايدي له على مرّ الاجيال ـ الى تلوث محسوس تمكن ملاحظته ، أو

---

(١) البقرة / ١٤٣ .

غير محسوس لا يدركه الاّ العلماء المختصّون وذلك لامتلاكهم المجاهر التي تمكنهم من رؤية ذلك التلوث وتشخيصه ، وكما ذكرنا سابقاً فمثلما تتم تصفية الماء الملّوث بواسطة الاجهزة الموجودة ، فكذلك تتم تصفية الافكار وتعقيمها .

ان اكبر تيار معنوي في العالم هو الاسلام ، الاسلام الذي شقّ طريقه وغذّى الحياة ، لنرى هل تعرض هذا التيّار الهادر الذي أخذ مجراه طيلة القرون الاربعة عشرة المنصرمة للتلوّث كما يتعرض الماء أو غيره من الاشياء ؟ واذا كان بالإمكان تلوثه فما هي الاحداث التي مرّت على العالم الاسلامي وأدّت الى تلويث هذا الماء الصافي ؟ وقبل أن اتعرض الى هذا الموضوع ، اودُّ ان أطرح عليكم نقطة تتعلق به .

ان عوام الناس ليسوا من أهل البحث والتحقيق ، ولكن تجدهم دائماً في قلب الأحداث ، اذ يحصون الأحداث المهمة التي لها أهميتها من منظور تأريخي ، ولو سألت أكثرهم عن أهم الاحداث التي ظهرت في التأريخ الاسلامي فان اول حدث مهم يتبادر الى ذهنه هو حملة المغول ضد البلاد الاسلامية . والحق هو هذا . انه حدث مهم ، ومهم للغاية ، لاه كبّد المسلمين خسائر مادية ومعنوية جسيمة جداً . وكم قتل من الابرياء في تلك الحملة المشؤومة ! وكم أحرق من الكتب والمكتبات ! وكم قتل من العلماء !

إنّها حملةٌ وحشية همجية كلّفت المسلمين غالياً ، وكانت بشكل يفوق التصور، وكم قتل من المسلمين فيها ! وكم دُمّر من المدن ! وقد دمّر المغول بعض المدن تدميراً لم يبقوا لها أثراً ، ومن هذه المدن نيسابور التي صدرت الاوامر بقتل كل انسان فيها ، بل واهلاك كل كائن حي .. هذه حادثة ، وحادثة مهمّة ، ولكن بقدر ما هي مهمّة فانّها تدلل على نفسها بنفسها .. انها تشبه التلويث المحسوس في الماء .. ولكن هناك بعض الأحداث التي وقعت في دنيا المسلمين ، وهي صغيرة جداً في ظاهرها كالميكروب الذي لا يرى الاّ بالمجهر لكن خطرها على الاسلام ان لم يكن اشد من خطر المغول فليس أقل منه .. وساوا فيكم بامثلتها فيما بعد .

في البداية علينا أن نتحرى هل ان تلك الاحداث لها وجود أو لا ؟ ومن الطبيعي انها لم تكن ممكنة الى حدّ ما ، ولكن اذا تجاوزنا ذلك الحد تكن ممكنة . وذلك الحد الذي لم تكن فيه ممكنة هو عندما نقول ان القرآن ، وهو الكتاب السماوي المقدس ، والعمود الفقري للاسلام ، مصون ومحفوظ ، ولم يستطع أحد ان ينال منه بالتحريف وغيره ، كما لم يكن في

مقدور اية قوة ان تتصرف وتتلاعب به كما يحلو لها . وما أعظم قوله تعالى في هذا الصدد : «انّا نحن نزّلنا الذكر وانّا له لحافظون»[١] فالله تعالى أنزل هذا القرآن ببلاغة فريدة ، وفصاحة فذّة ، وروح عالية بحيث كان يحفظ في الصدور منذ البداية ، و بالاضافة الى ذلك كان يكتب بأمر النبي الكريم ـ صلى الله عليه وآله ـ ورغم ذلك لم يقدر أحد من المسلمين الجهلاء أو من الاعداء الاذكياء ان يغيّر هذا الكتاب المقدّس و يبدّله . وهنا يتجلى موقعه كجهاز للتصفية . لكن لو تجاوزنا القرآن الى غيره ، فان هذا الغير كان معرّضاً للتلوث كالسنة النبوية مثلاً ، ودليلنا على هذا الكلام نأخذه من حديث النبي (ص) نفسه الذي ذكرته كتب أتباع أهل البيت وعامّة المسلمين ، وهذا الحديث هو : «كثرت عليّ الكذّابة»[٢] وقال كذلك : «... فاذا اتاكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله عزّوجل .... فما وافق كتاب الله .... فخذوا به ، وما خالف ... فاطرحوه ، فهذا ما قاله النبي (ص) في حياته ، والاسلام كان لا يزال في عنفوان مسيرته . والذي نستفيده هنا هو ظهور مجموعة من الكذابين في ذلك الزمان ، ولعل عددهم لم يكن بتلك الكثرة علماً ان النبي (ص) توقّع أن يزداد عددهم في العصور اللاّحقة ، وقد ازداد فعلاً ، لكن إذا كذب أحد في عصر النبيّ (ص) فانما يكذب إمّا لغرض شخصي أو لأمر تافه ، ومن أجل ان يدعم كلامه كان يقول : سمعتُ من النبيّ هكذا .. امّا في عصر ما بعد النبوة فان الكذب اتخذ طابعاً اجتماعياً ، وكان وسيلة بيد أرباب السياسة حيث استغلّه الخلفاء ليصب في صالح سياستهم ، و بذّروا من أجله الاموال الطائلة ، وكانوا يبحوث عن المحدّثين من ذوي الايمان الضعيف ، ومن عبدة الدرهم والدينار ، فيدفعون لهم ما شاؤا من المال ليضعوا لهم حديثاً في موضوع معيّن يلتقي وتوجهاتهم .

و يتحدث التأريخ عن نماذج من هذا اللون فضّلت المال البخس على دينها العزيز . ومن هذه النماذج (سمره بن جندب) الذي أعطاه معاوية ثمانية آلاف دينار ليقول : اني سمعتُ من النبيّ ان قوله تعالى : «ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله ...»[٣]

---

(١) الحجر / ٩ .

(٢) الكافي ١/٦٢ .

(٣) البقرة / ٢٠٧ .

نزل في حق عبد الرحمن بن ملجم !

وكان الخليفة العباسي «المهدي» وهو ابن المنصور وثالث الخلفاء معروفاً بزجر الطيور، ومن عاداته المشهورة عنه انشغاله بذلك، وكان يتسابق مع آخرين في ذلك المضمار، فجاءه أحد المحدّثين المتزلفين وأسمعه حديثاً مفترىً إرضاءً لنزواته الشخصية، وهذا الحديث هو: «لا سبق الاّ في خف أو حافر أو طائر» فأضاف عبارة (أو طائر) من عنده ممّا راق المهدي ذلك فأعطاه ما شاء الله من المال ..

فهذه الاحداث وأمثالها قد ظهرت في العالم الاسلامي بكثرة، وكان زمام المبادرة في وضع الحديث وجعله بيد اليهود، حيث بثّوا افكارهم ومعتقداتهم في وسط المسلمين من خلال الحديث. وكانوا بارعين جداً في النفاق إذ كانوا يظهرون الاسلام و يتزاورون مع المسلمين ويماشونهم لكن كانوا يروّجون أفكارهم بين المسلمين من خلال الحديث، وكانوا حاذقين محنكين في هذا العمل. ولا تخفى فانّ المسيحيين والمانويين لهم باع أيضاً في هذا الحقل لكن اليهود كانوا أكثر منهم؟ وذاك لقابليتهم المدهشة في التظاهر الى الحد الذي كان المسلمون يرونهم أكثر منهم اسلاماً. و ينقل عن يهودي أسلم وله بنت خطبها شاب يهودي كان قد أسلم أيضاً فلم يوافق على تزويجها منه، ولما سألوه عن السبب قال: عندما أسلمتُ كنت لا أرعوي عن الكذب مدة خمس عشرة سنة بعد اسلامي... فكيف أصدّق بهذا الشاب ولم يمر على اسلامه الاّ سبع سنين، فهذه وأمثالها هي الملوّثات التي تظهر في مجرى الافكار فتلوثه، وللاسلام أجهزة تصفية خاصّة مهمّتها تطهير ذلك المجري من كل ألوان التلويث. واول هذه الاجهزة هو القرآن الكريم، وما علينا الاّ أن نعرض عليه ما عندنا من كلام وحديث. والجهاز الثاني هو العقل الذي جعله القرآن حجّة.. وهناك أجهزة اخرى للتطهير والتصفية. ألا وهي أحاديث النبي (ص) والائمة (ع) وسننهم المتواترة التي قد فرغ من قطعيتها و يقينيّتها، وليس هناك أدنى مجال للشك والشبهة فيها.

والآن على سبيل المثال لنعرف كيف كان الائمة (ع) يتعاملون مع القرآن الكريم كجهاز للتصفية؟ وهذا ما نستشفه من بعض الشواهد التأريخية، فقد ظهرت في زمن المأمون ـ مثلاً ـ نهضة علمية، وكان يعقد مجالس كثيرة للبحث والمناظرة، يشعر من وراءها باللذّة والبهجة وذلك لانه كان عالماً ومن أهل المطالعة، و ينقل عنه انّه منح الحرية لكافة الاديان

والمذاهب من اجل ممارسة شعائرها ونشاطاتها . وكانت مناظرات الامام الرضا ـعليه السلام ـ مع أصحاب الملل والنحل قد اتخذت طابعها من خلال تلك المجالس حيث كان المأمون مكثراً من عقد تلك المجالس ولا سيما فيما يخص عامة المسلمين وأتباع أهل البيت . وقد ذكر القاضي « بهلول بهجت افندي » التركي في كتابه القيّم للغاية «تشريح ومحاكمة »[١] الذي ترجم الى الفارسية المناظرات التي كانت تجري بين المأمون وعلماء الجمهور حول الخلافة . وكان بعض الخلفاء يمهدون لمناظرات الأئمّة مع غيرهم ، وكان هشام بن الحكم يشترك في تلك المناظرات أحياناً ، ومن هذه المناظرات مناظرة جرت بين الامام الجواد ، وهو لم يزل طفلاً ، و بين يحيى بن اكثم .. (..... فقال له يحيى بن اكثم ما تقول يابن رسول الله في الخبر الذي روى : انه نزل جبرئيل (ع) على رسول الله (ص) ؟ وقال : يا محمّد ان الله عزوجل يقرئك السلام و يقول لك سل أبا بكر ، فهل عني راض فاني عنه راض ؟

فقال أبو جعفر (ع) : لست بمنكر فضل ابي بكر ولكن يجب على صاحب هذا الخبر ان يأخذ مثال الخبر الذي قاله رسول الله (ص) في حجة الوداع : قد كثرت عليّ الكذّابة وستكثر فمن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار فاذا اتاكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله عزوجل وسنتي ، فما وافق كتاب الله وسنتي فخذوا به ، وما خالف ... فاطرحوه وليس يوافق هذا الخبر كتاب الله .. قال تعالى : «ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن اقرب اليه من حبل الوريد »[٢] فالله عزوجل خفى عليه رضاء ابي بكر من سخطه حتى سأل عن مكنون سرّه ؟ هذا مستحيل في العقول .

قال يحيى : وقد روى ايضاً ان ابا بكر وعمر سيّدا كهول الجنّة فما تقول فيه ؟ فقال (ع) : وهذا الخبر محال ايضاً لانّ اهل الجنة كلهم يكونون شباباً ولا يكون فيهم كهل وهذا الخبر وضعه بنو اميّة لمضادّة الخبر الذي قال رسول الله في الحسن والحسين بانهما سيّدا شباب اهل الجنّة ....)[٣] .

اذن القرآن الكريم مقياس عظيم للتقويم ، وجهاز تصفية لكلّ الملوثات التي ظهرت

---

(١) وترجمته في العربيّة « التفصيل والمحاكمة » .

(٢) ق / ١٦ .

(٣) حلية الابرار ج ٢ ص ٤٣٧-٤٣٩ نقلاً عن احتجاج الطبرسي (رض) .

على مرّ التأريخ ، وهناك اشياء تبعث على سرورنا واغتباطنا ، ومن هذه الاشياء مثلاً : لا أحد يستطيع أن يقول : انّ دينكم ـ مهما كان في بدايته ـ فهو كيفية الأديان حيث مرّت أحداث في التأريخ أدّت الى تشويه معالمه وتحريفه ، كالذي حصل للدين الزرادشتي حيث لا يمكن الاطمئنان أبداً الى الكتاب الاصلي لزرادشت ، فماذا كان كتاب زرادشت الاصلي ؟ وفي اي سنة كان يعيش زرادشت ؟ وهكذا أُثيرت كثير من علامات الشك والترديد حول حقيقته ، والى بضع سنين متقدمة كان الشك يحوم حول حقيقة وجوده ، ولا زال هناك قدر من الشك حوله ، فهل هو شخصيّة اسطوريّة كرستم واسفنديار ، أو شخصيّة واقعية ؟ ولو فرضنا انه كان ذا تعاليم صحيحة فانّ من تعاليمه مثلاً : (الكلام الصالح ، العمل الصالح ، العقيدة الصالحة) ، وهذه ليست تعاليم حقاً ، لان اقلّ ما يقال عنها انها ذكرت مجملةً و بشكل عام ، ولا تحمل في طياتها اي معنىً ومفهوم ، وذلك ان كل انسان يعتبر كلامه صالحاً ، وعمله صالحاً ، وعقيدته صالحةً .

انظروا الى التوجهات الموجودة في عالمنا المعاصر ، فالرأسمالية ـ مثلاً ـ ترى انّ أقوالها وافعالها وافكارها صالحة ، في حين ترى الشيوعية انّ الصالح ما تعتقده هي فقط ، وهكذا بقية المبادىء والافكار في العالم . فالمنهج الذي يعتبر منهجاً حقيقياً في الحياة هو المنهج الذي لا يكتفي بقوله : «الكلام الصالح ، والعمل الصالح ، والعقيدة الصالحة» بل عليه حينما يقول : الكلام الصالح ، ان يوضّح أبعاد ذلك الكلام ومواصفاته ، وكذلك الامر بالنسبة الى العمل الصالح ، والعقيدة الصالحة . ولو استقرأنا المسيحية واليهودية لوجدناهما على نفس الشاكلة . فالدين الوحيد الذي أثبت وجودة و برهن على مبدئيته من دون ان تنال منه يد التلويث والتحريف شيئاً هو الدين الاسلامي ، وقد ذكرتُ سرّ ذلك سلفاً علماً اني لا اقول انه لم يظهر تيار ملوث في العالم الاسلامي ، كلاّ ، ولكن كلما ظهر هناك تيار منحرف فان وسائل التطهير الموجودة في الدين تعمل على تقويمه من الانحراف ، وتصفيته من التلوث . واولها : القرآن الكريم نفسه ، وهو المعيار الأعلى في هذه العملية . ثم يأتي بعده ما تواتر من احاديث عن النبي الأعظم ـ صلى الله عليه وآله ـ وتم التسليم بصحتها ، و بالنسبة الى اتباع اهل البيت فما تواتر عن النبي (ص) والائمة المعصومين ، وفرغ من قطعيتها . أقول : ما تواتر وما صح ، لان هناك بعض الاحاديث صحيحة ومتواترة من بين هذا الركام الهائل من الاحاديث المشكوكة والمريبة . وتعتبر

تلك الاحاديث الصحيحة المتواترة حجة بالنسبة الينا ، ويمكن أن تكون معياراً يعتمد عليه في التشخيص . وهناك شيء آخر ـ لا مناص من ذكره ـ . وهو : ان القرآن الكريم اعتبر العقل حجة منذ البداية ، ولم يك موقف الاسلام من العقل سلبياً في يوم من الايام ، في حين هناك من المنحرفين المحسوبين على الاسلام من يرى خلاف ذلك ، ولهم تعاليمهم الخاصّة بهم ، وهؤلاء لا يقيمون للعلم وزناً .

ومن هؤلاء : الوضيع «حسين علي البهاء» الذي تنسب اليه البهائية علماً انه من الخطأ أن يعتبر الانسان هذا الوضيع المنحرف في عداد رؤوساء المذاهب والاديان . فمن أقواله مثلاً : أغمض عينيك لترى جمالي ، واسدد اذنيك لتسمع كلامي ! ! ياللعجب العجاب ! أيّ جمال هذا الذي لا يراه الانسان الآ أن يُغمض عينيه ؟ ! وأيّ كلام هذا الذي لا يسمعه الانسان الآ ان يصمّ اذنيه ؟ !

اما قرآننا العظيم فانه يقول : افتح عينيك لترى جمالي ، وافتح اذنيك لتسمع كلامي ، وأطلق عقلك لتدرك حقائقي .. وكم يذمُّ اولئك الذين لا يستعملون عيونهم وآذانهم وعقولهم و يتظاهرون بالتسليم والتعبد الأحمق ! وما أروع الأدب القرآني عندما يخاطب المسلمين بقوله : «يا أيُّـها الناس» أو «يا أيّها المؤمنون» ! ولم يقل : «يا أغنام الله !» مثلاً ، ليقصد على انهم أغنام وما عليهم الآ الانقياد والتسليم .

ومن مميزات هذا الكتاب العزيز انه يفسّر التأريخ في ضوء المنطق العقلي . وعندما يذكر الصلاة ، فانه يذكر معها فلسفتها . وحينما يتحدث عن وجود الله ، فانّه يثبته بالمنطق الاستدلالي والعقلي . وعندما يتعرض للحديث عن بعض القضايا والاحداث ، أو عن بعض الناس فانّ نبرته تقطر ذوقاً وأدباً . قال تعالى : «ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ...»[(١)] و يندر فيه أنّه يستعمل كلمات نابية ، أو كلمات تشم منها رائحة الشتم والسباب ـ لو صح التعبير ـ ، ولو استعمل ذلك فانه يستعمله بحق ، وفي بعض المواطن ومن هذه المواطن مثلاً : عندما يتمرد الانسان على عقله ، هذا الحجة الناطقة ـ على حد تعبير الامام الكاظم ، عليه السلام ـ ولا

(١) الاعراف / ١٧٩ .

يستعمله في تعامله مع الحياة. فيقول: «إنّ شرّ الدّوابّ عند الله الصمّ البكم الذين لا يعقلون»[١].

فالقرآن وغيره من المصادر السليمة المعتبرة هي المقاييس التي وضعها الاسلام تحت تصرفنا لنتمكن من الامتحان والاختبار، وما علينا الآ أن نستقصي ما ظهر في التاريخ الاسلامي من تيّارات، وندقق فيها مليّـاً.

انا حاولتُ جاهداً ـ في هذه الليلة ـ ان أؤدّي حقّ البحث في حديثي عن أجهزة التصفية والتعقيم التي يزخر بها اسلامنا العظيم، ولا أدري الىٰ ايّ مدىٰ حالفني التوفيق والنجاح في ذلك. وارتأى ان تتعرفوا على هذه الحقيقة وهي: انّ الاسلام لم يسلم من ظهور تيارات ملوّثة كانت ولا زالت تفعل فعلتها. ولو لم نتعرف على هذه التيارات، فما هي فائدة جهاز التصفية؟

وهناك تيارات اخرىٰ، ان لم تكن أخطر من التيار المغولي، فهي ليست بأقل منه. وحملة المغول كانت تمثل تلو يثاً محسوساً، وهناك تلو يث غير محسوس، وقد ذكرت امثلة حول الاثنين. وفي البارحة تكلمت عن الخوارج، وقلت: انّ تيارهم لم يكن تياراً عسكرياً وانتهىٰ، وانما كان تياراً دينياً، عليه صبغة الدين. وقد ابتدعوا فقهاً من عندياتهم كان له تأثيره على فقه سائر الفرق الاسلامية.

وتكلّمتُ أيضاً عن التيار الأشعري، وقلتُ: ان عندهم اعتقاداً راسخاً عجيباً بالظاهر، واعتقادهم هذا بلا حدود. وكانوا يقطعون بصحة كلّ حديث ينسب الىٰ النبيّ ـصلى الله عليه وآلهـ، وكانوا ينقلون كلّ عبارة مكتفين بظاهرها حتىٰ لو كانت هناك ألف قرينة تقول بخلافها، كنتُ اطالع مرّةً الجزء الاولى من «تأريخ الآداب» لمؤلفه ادوارد براون، وكان يتكلم فيه عن تأريخ العقائد الاسلامية، وتعرض فيه الى الاشاعرة، وذكر حديثاً نقل عن المستشرق الهولندي المعروف «راينهارت دوزي» الذي يحظىٰ بمنزلة كبيرة على الصعيد العالمي. ومضمون هذا الحديث «انكم سترون ربكم يوم القيامة كما رأيتموه في غزوة بدر» فتعجبتُ كأشد ما يكون العجب، واستوقفني هذا الحديث الغريب، فبحثت عنه، فلم أجده

(١) الانفال / ٢٢.

في كتب الحديث بل في كتب الكلام، هذا اولاً، وثانياً: نص الحديث هو: «انكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر» فتصور هذا المستشرق ان المقصود من ليلة البدر، غزوة بدر! و بعد ذلك، لم أقف عند هذا الحد، بل بذلتُ جهدي للبحث عن صحّة هذا الحديث، وهل هو ثابت أو لا؟ فرأيت انه غير موجود في كتب الامامية بتاتاً، وقد ورد في كتب غيرهم من المسلمين بشكلٍ مغاير إذ أورده المتكلّمون بمنطوق آخر.. وقد عثرت عليه في أحد كتبهم: جاء شخص ذات يوم الى النبي -صلى الله عليه وآله- وسأله قائلاً: كيف يمكن يا رسول الله أن يرىٰ جميع الناس ربهم في آن واحد؟ فأجابه (ص): كما يرى جميعهم القمر في آن واحد. والقمر مخلوق، والله -تعالىٰ- فوق جميع مخلوقاته، وهو مع جميع الناس.

فانظروا! ولاحظوا! كيف يُحرّف الحديث، و يتغير نصه عندما تتلاقفه الأيدي، و يكون في معرض التوجهات المريضة؟ وما أروع القرآن هنا! وما أعظمه جهازاً للتعقيم! وما أسرعه في اسعافنا، حين يقول: «لا تدركه الأبصار وهو يُدرك الأبصار...»[١].

(١) سورة الانعام / ١٠٣.

الأخباريّة

الاخبارية

قال تعالى : «ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا»[1] .

دار حديثنا ليلة أمس حول الرسالة الاسلامية المقدسة ، وكيف انها كانت صافية نظيفة في عنفوان بزوغها ، وما إن وقعت في فخ التوجهات **الموبوءة** لمختلف الناس على مر القرون الأربعة عشر الماضية ، سرت اليها عدوى التلويث ، شئنا أم أبينا ، ووصفناها بماء العين الصافية عندما يتدفق منها فانّه صاف ونظيف في بدايته ، وما أن يكون في المجاري فانه يتعرض الى التلويث . وقلنا : انّ للماء خاصيته حيث يمكن تعقيمه بمختلف الوسائل ، وكذلك الاسلام فخاصيته : وجود أجهزة التصفية والتعقيم فيه ، والتي تؤدي دورها في تعقيمه لدى الحاجة . وذكرنا القرآن كأول جهاز لتلك العملية ، حيث انه يتميز بمناعته ضد كل تغيير وتحريف . وتأتي السنّة النبوية الشريفة المتواترة والمقطوع بصحتها بعده كجهاز ثان يساهم في تلك العملية ، ويأتي بعدها العقل الذي أولاه الاسلام عناية خاصة واعتبره حجّة . واذا استعملنا هذه المقاييس الثلاثة فسنكون ذوي مناعةٍ ضدّ كل الهفوات والمثالب ، وسنتمكن من استئصال كلّ ما طرأ في التأريخ من اعوجاج وانحراف .

لقد ظهرت في التأريخ الاسلامي تيارات متعددة كان لها قسط وافر في التأثير على أفكار المسلمين . وربما تأثرنا وتأثرتم بأحد التيارات الفكرية التي ظهرت منذ بضع سنين ، وجرفنا ذلك التيار الى حظيرته ، دون أن نشعر بانّ هذا التيار لا يمتُّ بصلة الى الاسلام ، وانما هو

---

(١) سورة الحشر / ٧ .

تيار مستورد وغريب . وأعجبني ما ذكره أحد الكُتّاب العراقيين في أحد كتبه ، وهوممّن ألّف عدداً من الكتب قبل بضع سنين ، ونالت كتبه شهرةً خاصّة ، وذلك لعذوبة اسلوبها وجمال محتواها . ذكر هذا الكاتب انه يرى كثيراً من الأحداث ، وعليها بصمات معاوية ، فهويعتقد ان معاوية قد تمكن من ايجاد تيارات منحرفة لا زالت نتائجها المشؤومة حتىٰ يومنا هذا مع انّ تياره الذي اختلقه في حياته قد انقرض ولا مجال عندي الآن لمناقشة أفكار ذلك الكاتب ، وانما في نيّتي الحديث عن تيارات فكرية اخرىٰ ومناقشتها .

قبل أربعة قرون تقريباً ظهرت بيننا نحن الامامية فرقة باسم الفرقة الأخبارية . وهي في قبال «الاصولية» القائلة بالاجتهاد . وقد سيطرت على أفكار الناس ما قارب القرنين او الثلاثة قرون ، ولم تترك عملاً شنيعاً الّا وارتكبته من إشعال حربٍ وقتل وأمثالهما . اما اليوم فان عدد الاخباريين قليل جدّاً .

ان الاصوليين ـ ونحن منهم ـ يعتقدون بالاجتهاد والتقليد و يقولون : ان المكلف إمّا مجتهد أو محتاط أو مقلّد . و يستحسنون التقليد ويجزمون بصحّته . اما الاخباريّون فان ما يستهدفونه في حملتهم ضد الاصوليّين هو الاجتهاد والتقليد . فكانوا يقولون : انّ الاجتهاد والتقليد بدعة . وردّ عليهم الاصوليون بقولهم : ماذا نعمل إذن ؟ فأجابوا : علينا الرجوع الىٰ الاخبار الواردة مباشرة لأخذ ديننا منها ، فواجههم الاصوليون وكانوا أصحاب كلام منطقي ورأي موضوعي إذ قالوا لهم : انّ ابداء الرأي في المسائل الدينية يحتاج الى تخصص ، والانسان يجب ان يكون دارساً وعالماً حتىٰ يفتى في المسائل الدينية المختلفة ، ومثله كمثل من يريد ان يشتغل في الطب فانه يحتاج الى علم وتخصص حتىٰ يكون طبيباً ، وهكذا الافتاء فانه يحتاج الى علم وتخصص . وأجابهم الاخباريون : أنْ لا حاجة الىٰ الدرس ، وانّ الاجتهاد جاءنا من عامّة المسلمين من أتباع المذاهب الاسلامية الاخرىٰ .

وقد شهدت طهران في عصر فتحعليشاه ظهور شخص يدعىٰ الميرزا محمد الاخباري ، اُثيرت حوله ضجّة كبيرة . كان أصله من الهند ، وأقام في نيسابور مدّة ، ثم جاء الى طهران . بعدها سافر ـ وهو في أواخر حياته ـ لزيارة العتبات المقدسة ، فقتل هناك .

ولنا أن نتساءل : أين ، ومتىٰ ظهرت الفرقة الاخبارية ؟

لقد ظهرت هذه الفرقة لاوّل مرة على يد شخص يدعى ملا أمين الاسترآبادي ، وكان

يقيم في مكة والمدينة لسنين (طبعاً تأريخ هذا الرجل غامض لا سيما وضعه في تلك الفترة ومع من كانت علاقته ؟ وبمن كان يلتقى ؟) . أسس هذا الرجل تلك الفرقة ، ومع انه كان شيعياً ، لكن نجده يهاجم علماء الشيعة الكبار من أمثال الشيخ الطوسي والعلاّمة الحلي والمحقق الحلي ، و يشتدّ هجومه على العلاّمة الحلّي أكثر ، لا لذنب إلاّ لانّه قال : ان الاخبار التي بين أيدينا غير معتبرة ، وقسّمها من حيث السند الى أربعة أقسام : الاخبار الصحيحة ، الموثّقة ، الحسنة ، الضعيفة .

فالصحيحة هي التي يكون جميع رواتها من الشيعة الموثقين . والموثّقة ، رواتها من غير الشيعة لكنهم موثّقون . امّا الحسنة ، فرواتها من الشيعة لكن لم يثبت صدقهم . والضعيفة ، **فرواتها** غير موثّقين ، أو على الاقل أحدهم غير موثّق ، علماً انّ التأريخ قد بيّن ـ إلى حدٍّ ما ـ أحوال الرواة (طبعاً هناك أفراد مجهولون أيضاً) والنتيجة هي : انّنا لا نطمئن الى جميع الاخبار التي بين أيدينا . وما علينا الاّ أن **ندقّق** في رواتها .

يقول الملا أمير الاسترآبادي : «انّ العلاّمة الحلي ـ بانكاره للروايات والاحاديث ـ شتّت شملنا ، وفرّق كلمتنا ، وانه قد أسقط كثيراً من رواياتنا ، علماً ان كل ما عندنا من رواية فهو صحيح ، ولو قلنا بضعف بعض الروايات ، فانّ هذا يعني إهانة للامام الصادق ! وهل يمكن ان تكون رواية واردة عن الامام الصادق ، وهي ضعيفة ! لا سيما روايات الكتب الأربعة : الكافي للكليني ، والتهذيب ، والاستبصار للشيخ الطوسي ، ومن لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق ، فلو كانت الرواية مذكورة في هذه الكتب ، فلا مجال للنقاش فيها» . علماً انّ المجتهدين هم الذين يقتفون أثر العلامة الحلي و يتبعونه في هذا الموضوع . ولا يخفى فانّ الكافي أو الكتب الاخرى لا تخلو من الروايات الضعيفة ، ولو نظر الانسان في مضمون بعض الروايات الواردة في هذه المصادر ، يجدها كلمات فارغة جوفاء ليس لها معنى ، كما يجد ان سند بعضها ضعيف . وعلى سبيل المثال : كنتُ قبل فترة أطالع في مسائل تتعلق بالربا ، فرأيت رواية تذكر : انّ شخصاً يدعى علي بن حديد ، **قال** : «قلت لابي الحسن (ع) : انّ سلسبيل طلبت مني مائة الف درهم على ان تُربحني عشرة آلاف فأقرضتها تسعين ألفاً وابيعها ثوباً وشيّاً تقوم عليّ بالف درهم بعشرة آلاف درهم ؟ قال : لا بأس»[1] فهل هذه الرواية صحيحة باعتبار

(١) الكافي ج ٥ / ٢٠٥ .

وجودها في الكافي ؟ وصدفة طالعت كتاب التهذيب فعثرت على رواية اخرىٰ ، أورد فيها الشيخ الطوسي اسم ذلك الرجل ، وقال عنه : انه مضّعف جدّاً . فهل نعتبر هذه الرواية صحيحة على أساس انّ الكليني ذكرها في الكافي ؟ كلا ؛ لانّ الذوق السليم يأبىٰ قبول مثل هذه الروايات . و ياللاسف الشديد فان كتب الحديث مشحونة بالروايات الموضوعة التي اختلقها بعض المغرضين المنحرفين استجابة لنزواتهم الشخصية . ومن هذه الروايات مثلاً ما ينقل عن جماعة أرادوا تعمير سقف **الحرم** النبوي الشريف في زمن الامام الصادق(ع). وحدث بينهم نزاع فيما لو رفع السقف ، هل يجوز النظر الى قبر النبي (صلى الله عليه وآله) من الأعلى أو لا ؟ فقال أحدهم : يجوز، وقال الآخر : لا يجوز. وعندما سئل منْ قال بعدم الجوازعن السبب . قال : ربما ان النبي(ص) يختلى مع احدىٰ زوجاته ونحن ننظر اليه ! ! يا للمهزلة ! و يا للسخرية ! اي كلام هذا ؟ وهل يمكن لمسلم بسيط أن يقول هذا ؟ وماذا يقول ؟ يقول شيئاً مستحيلاً لا تصدّقه العقول بانّ النبي (ص) قد حيي مرة اخرىٰ ، وهويضاجع احدى زوجاته ! !

وهل يقرّ أحد بصحّة هذه الرواية باعتبار انها مذكورة في الكافي ؟

فالاخباريون يقولون : كلما هو مذكور في الكافي صحيح . والمجتهدون يردون عليهم بقولهم : انّ أمثال هذا الشخص المذكور في الرواية كثيرون ممّن يكذبون ويختلقون الأحاديث والروايات ولا يتورعون . و ينقل التأريخ انّ ابا الخطاب ، هذا الشخص الملحد الوضّاع ، قال قبل صلبه : «ولقد وضعت في أخباركم أربعة آلاف حديث» علماً انه بلغ في وضعه للحديث حدّاً ساءت فيه سمعته كثيراً ، وافتضح أمره .

فالمجتهدون عل حق عندما يقولون : انّ التأريخ زاخر بالاحداث والتيارات المنحرفة ، فكيف نطمئن الىٰ كل حديث منقول ، ونسلّم به ؟

ونقل لنا المؤرخون عن يونس بن عبدالرحمن ، الذي كان من أعاظم صحابة الأئمة عليهم السلام ، قوله : كنت أسعى أن ادوّن كافة الروايات المعتبرة وأنقلها للآخرين و بالفعل قد قمتُ بما عزمت عليه ودوّنت جميع الروايات حتى صارت كتاباً ، ففكّرت أن اعرضه على الامام الرضا ـعليه السلام ـ، وسنحت لي فرصة في وقت من الاوقات فجئت الامام ومعي الكتاب . وعندما قدّمتُ له الكتاب ، قلتُ : يا ابن رسول الله ، هذا كتاب جمعتُ فيه كل الروايات المنقولة عن آبائك الطاهرين . فأخذه الامام ونظر فيه . ورأيته قد شطب كثيراً من

الروايات وقال : هذه روايات كاذبة . لكن الاخباريون لم يذعنوا بهذه الحقائق ابداً ، ولم ينصاعوا لها مطلقاً .. وحدثت بينهم و بين الاصوليين مواجهة حادّة ونزاع عنيف . إنهم يجسّدون التزمت بكل معانيه ، وليتهم اكتفوا به ، فانّ موقفهم من الاخبار والروايات يتّسم بالتعصب الأهوج ، وقد طعنوا في ثلاثة من مصادر التشريع الاسلامي علماً انّي ذكرت قبل ليالٍ انّ مصادر التشريع عندنا أربعة هي : القرآن والسُنّة والاجماع ، والعقل .

اما الاخباريّون فبسبب تعصبهم الشديد والمقيت ، ومن أجل أن يُسقطوا المصادر **الثلاثة** الاخرىٰ من حجّيتها اعترضوا على الاجماع متذرعين انّه **مفهوم** سُنّي **ويخصُّ** السُنّة **فقط** ، و بواسطته صار أبوبكر خليفة ، و به سُلب الامام **عليّ** حقّه ، فكيف تقولون به ؟

هذاهو تذرع الاخباريين باعتراضهم على الاجماع ، وهو اعتراض غير وارد وليس في محله ؛ لان المجتهدين لا يرون انّ الخلافة بالاجماع ، بل بالنصّ القطعي الوارد عن النبي (صلى الله عليه وآله) ، وامّا بالنسبة الىٰ أبي بكر فلم ينعقد الاجماع **عليه** ، لان الاجماع يعني اجتماع كل اهل الحل والعقد للبت في قضيّة من القضايا في حين نجد انّ عليّاً والزبير وغيرهما لم يكونوا حاضرين ، وانما اجتمع عدد قليل من المسلمين في جو من الغوغائية والصخب ، وقاموا بعملٍ **اطلقوا** عليه جزافاً اسم «الاجماع» .

ولم يقف الاخباريون عند هذا الحد فاعترضوا على العقل قائلين : كيف تقحمون العقل في أمر الدين ؟ ولماذا كل هذا التشبث بالعقل وهو يخطأ آلاف المرّات ؟ فالعقل ليس **له** أن يتدخل في أمر الدين ، وعلى الانسان أن يُخطىء عقله ، ولو رأينا حديثاً يوافق العقل **فهو** غير صحيح مهما كان العقل قويّاً في حجّته ، وما علينا الّا ايقاف العقل عند حدّه .

وكلامهم هنا يشبه كلام المسيحيين حيث يقولون : لا حقّ للعقل أن يتدخل في أمر الدين . وأنّ الله هو عيسى وعيسى هو الله وكفىٰ . وأنّ منشأ العالم هو الله الواحد ، وفي نفس **الوقت** الذي هو فيه واحد ، هو ثلاثة أيضاً ، ولا أدري كيف يمكن ان يكون الله واحداً ، و يكون ثلاثة في آن واحد ؟ والعقل يرفض هذا المنطق السقيم لكنهم لا يقبلون بحكمه ، و يقولون : ليس من حقه أن يتدخل في المواضيع الدينية .

وهكذا الاخباريون ، كلما كان هناك استدلال عقلي في قضيةٍ من القضايا ، كانوا يرفضونه ، وعنادهم للعقل ان لا حقّ له أن يتدخل . ولو انهم قالوا : انّ قدحاً من الشاي يمكن

أن يستوعب ماء بحرٍ بكامله ، واعتُرِضَ عليهم ان هذا لايتصوره العقل ولا يصدّقه لرفضوه بقولهم : ان العقل ليس له ان يتدخل و يكون فضوليّاً . و بسبب عنادهم هذا ، وجهلهم وتعنتهم فقد استغلهم أعداء الاسلام من المحتالين النابهين اذ اختلقوا أحاديث وروايات كاذبة و وضعوها تحت تصرفهم ، و وضع اليهود وغيرهم من المغرضين أحاديث كثيرة وقدّموها اليهم ، فلم يعترضوا ولم يقولوا شيئاً لسذاجتهم وسطحيتهم وسرعة تصديقهم بالامور.

ومن الاحاديث التي نقولها مثلاً : حديث «سلسلة الحمار» وفيه : ان النبي -صلى الله عليه وآله- جاء ذات يوم والتقى بحمار.... الى آخر الحديث . فهؤلاء -واقعاً- **وصمة** عار في جبين الاسلام ، ولولا وجود المجتهدين الاصوليين لحمّلوا المسلمين تبعات سيئة ، ولصاروا -بأعمالهم- مصدر ازعاج لهم .

اما **القرآن** فكيف تعاملوا معه ؟ وكيف أعرضوا عنه جانباً من أجل اثبات حجيّة الأخبار؟ انهم لم يقولوا انّ القرآن ليس كتاب الله ، ولم يكن في وسعهم ذلك . بل قالوا : انّ القرآن أسمىٰ من أن يفهمه الناس العاديّون . و يتوقف فهمه على الائمة -عليهم السلام- فهم وحدهم يفهمونه ، وقد نزل لكي يفهمه الائمة فقط وكفىٰ ..

ونقول : لننظر ماذا جاء في أخبار الائمة ، علماً انّ الاخباريين يقولون -كما يعبّر المجتهدون- ان ظواهر القرآن ليست حجة ، فمثلاً لو قال القرآن : «انّما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه ...»[1] فهذا يعني ان شرب الخمر حرام ، وكذلك لعب القمار، امّا الاخباريون فيقولون : كلاّ ، ينبغي ان نرجع الى الاخبار، لنرىٰ هل جاء فيها ان شرب الخمر ولعب القمار حرام أولا ؟ و يردفون توجيههم بقولهم : اننا لسنا المخاطبين بالقرآن .. و بأقوالهم هذه أفقدوا القرآن هيبته ومكانته وحجيّته لدىٰ الناس وذلك لكي يرسّخوا في أذهانهم ان المصدر الوحيد الذي يجب الرجوع اليه هو الاخبار والروايات ، ولا حاجة بنا الىٰ الاجتهاد ؛ لانّ الاجتهاد يعني إعمال الفكر و**تحكيم** لرأي . في حين انّ المعنىٰ الاصلي للاجتهاد هو ان ننظر ماذا يقول القرآن ، وايّ الاحاديث صحيحة واي منها ضعيفة ، وان نستعمل العقل لننظر ماذا يعطي من رأي ، ولنفهم هل هناك اجماع عند

---

(١) سورة المائدة / ٩٠ .

علماء الشيعة أولا .. هذا هو الاجتهاد اما الاخباريون فيقولون : اتركوا هذا الكلام جانباً .. وما عليكم الاّ بالاخبار ! وما ادراك ما الاخبار ؟ اذ انّ فيها الغث والسمين ، وفيها ما فيها مما يفقد القرآن مكانته احياناً ! وقد يجيء احدهم فيدّعي بانّ سورة الحمد التي نقرأها في الصلاة هي ليست بهذا الشكل ، بل لها شكل آخر ! فمثلاً نحن نقرأ في السورة : «صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالّين» في حين جاء في الحديث ـ على حد زعمهم ـ «صراط من أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالّين» لهذا ينبغي أن نقرأ طبق الصورة التي ذكرها الحديث !

وهكذا كانوا يتلاعبون في القرآن تحريفاً وتبديلاً حتىٰ اكتمل عندهم قرآن خاص يلتقي وتوجهاتهم فصمّموا على طبعه قبل بضع سنين ، و بدأوا فعلاً بالطبع ، عندها أُعلم المرحوم آية الله العظمى السيد البروجردي بخبرهم فبادر فوراً الىٰ ايقاف طبعه ، وأمر بمصادرته ورميه في البحر .

والويل لنا لو كان قد طبع قرآنهم ووقع بيد اليهود والنصارىٰ .. فماذا يقولون ؟ سيشمتون بنا و يقولون : كيف يدّعي المسلمون ان قرآنهم غير محرّف ، وها هو قرآن جديد قد ألّفوه ، ويختلف كثيراً عن **القرآن** الذي بأيديهم الآن ؟

قبل سنين كان أحد طلبة العلوم الدينية يدرس في قم ، وكانت الصفة البارزة عليه هي الوضاعة والرذالة ، وكنت ارى الكثيرين يبتعدون عنه ، ووصل في دراسته حتىٰ (المطول) ثم ترك الدراسة . و بعد ذلك سمعنا انّه في مدينة (آباده) التابعة لشيراز وكان قد عقد في تلك المدينة مناظرات مع شخص آخر........

فهذا وأمثاله طعنوا الاسلام في الصميم .. وكم تجرأ الاخباريون على القرآن وقالوا : ليس له أي اعتبار .. انهم لم يقولوا : لا تقرأوا القرآن ، بل قالوا : اقرأوه وقبّلوه لكن ايّاكم أن تتعلموه .. وهذه ضربة ماحقة جدّاً للعالم الاسلامي ولا سيما لخط أهل البيت ، وقد وصلت حدّتها درجةً أخافت علماء الامامية على القرآن **فانبروا** الى تفسيره ، وكان **الإخباريون** يخشون من تفسيره .

هذا هو التيار الاخباري وتعصبه الاحمق اللامحدود الذي جعل أصحابه يعتبرون الصحيح والضعيف من الاحاديث على حدّ سواء . انّه تيار فكري خطر ظهر في دنيا الاسلام ،

وتمخض عن جمود **فكري** لا زلنا نعاني من تبعاته إذ سرت عدواه الى أوساطنا .

كنتُ مرّةً عند المرحوم السيد البروجردي ـ أعلى الله مقامه ـ وهو في بروجرد ، فسمعتُ منه كلاماً لم أسمعه من أحد لحدّ الآن ، وكم تأسّفت على عدم سؤالي عنه .

كان كلامه يدور حول الاخباريين ، وكان يحلّل الجذور التأريخية لظهور تيارهم الفكري ، **وناقش** احتمالاً حول خلفيات ظهوره ، فقال : اني اظن انّ المدرسة الاخبارية في الشرق انبثقت عن المدرسة المادية في الغرب . وذلك ان ظهور الاخباريين تزامن مع ظهور جمع من الغربيين يقولون بالفلسفة الحسيّة حيث انهم انكروا العقل كمصدر للمعرفة ، وقالوا اننا لانعتقد الآ بما نشاهده أو ما نعرفه من خلال التجربة . فهم أنصار الحس ومعارضوا العقل .

وكان هذا في وقت كانت العلاقات قوية جداً بين ايران الصفوية والدول الاوربية ، وكذلك ظهرت عندنا في نفس تلك الفترة نهضة تندّد بالعقل وتدينه ، ولكن ليست بالشكل الغربي المادي ، بل بشكل تأييد للاخبار ، وقالوا : ليس للعقل حقّ ان يتدخل في **الدين** بتاتاً .

ويا للاسف فقد تركت هذه الافكار آثاراً كثيرةً علينا .

الحركة الدستوريّة المشروطة

الحركة الدستورية (المشروطة)

«إنِ الحكم الاّ لله»[1] .

لقد أشرنا في الليلتين الماضيتين الى تيارين فكريين ظهرا في التأريخ الاسلامي وقلنا انّ كليهما يجسّدان التعنت والتزمت . وأحد هذين التيارين هو: تيار الخوارج الذي يمثّل الجمود الفكري في عصره ، وقد ظهروا على المسرح السياسي بعد تبنّيهم لفكرة التحكيم وقولهم : انّ التحكيم هو من أجل تعيين الخليفة ، لا من أجل حل الخلاف بين شخصين ، كلاهما يدّعى الخلافة ، ولو كان كذلك فهو يتعارض مع حكم الاسلام حيث يقول القرآن «إنِ الحكم الاّ لله» في حين هم انفسهم تبنوا فكرة التحكيم في بداية ، و بعد ذلك خطّأوا أنفسهم ، ولم يكتفوا بذلك بل أجبروا عليّاً ـ عليه السلام ـ أن يقبل بالتحكيم ، ثمّ خطّأوه أيضاً قائلين : ان التحكيم كفر. وطالبين من الامام(ع) أن يتوب لانهم قد تابوا ! وأجابهم الامام(ع) ما مضمونه : لقد كان التحكيم خطأً أنتم ارتكبتموه ولا ذنب لي انا بَيْدَ انّه في كل الاحوال لم يكن كفراً ، ولم أرتكب أنا خطأ . هذا بالنسبة الى الخوارج .

اما التيار الثاني فهو التيّار الاخباري ، و يشبه تيّار الخوارج الى حدّ بعيد . وقد ذكرتُ في حديثي عنهم وجود اختلافات كثيرة بين منهجهم ومنهج المجتهدين ، وقلتُ : اننا لو أردنا أن نتعرف على اللبنة الاساسية للحسّ الاخباري ، فانّ الجمود هو تلك اللبنة . و يتجلى هذا الجمود من خلال موقفهم من الاجتهاد ورؤيتهم له كابداء رأى أو إعمال فكر ، أو تحليل ، أو

---

(١) الانعام / ٥٧ .

بعبارة اخرىٰ : اقحام العقل في الاحكام الدينية ، وهذا غير صحيح ـعلىٰ حدّ زعمهم ـ .

و يتجسد جمودهم أيضاً من خلال هفواتهم الفكرية بشأن القرآن حيث قالوا : انه ليس للفهم والمعرفة ، وليس من حقّنا الرجوع اليه مباشرة ، لانّه خاصٌّ بالائـمّة ، وما علينا الّا الرجوع الى اخبارهم ورواياتهم .

وهناك تيار ثالث أتعرض له في هذه الليلة ، و يرتبط بعصرنا هذا ، وهذا التيار هو تيار «الحركة الدستورية» التي ظهرت في ايران ، وأدّت الىٰ تقسيم الشعب الايراني الىٰ قسمين : قسم يؤيّد النظام الاستبدادي ، وقسم يؤيّد النظام الدستوري . وانقسم السياسيون على أنفسهم ، كما انقسم علماء الدين أيضاً ، علماً انّ انقسام العلماء قد طال العلماء الكـبار . فانتفض فريق منهم لتأييد الحركة الدستورية بكل تحمّس ، في حين عارضـها فريق آخر قد بلغت معارضتهم حدّاً كانوا لا يرون أصحاب الفريق المؤيد للحركة ، من علماء وفضلاء ومدرّسين وطلاّب ، الّا أعداءً لهم ،ولو سمعوا انّ أحدالطلبة ، من أنصار الحركة الدستورية ، فانهم يقطعون راتبه الشهري . واستفحل الخلاف بين الفريقين حتىٰ وصل ذروته في تكـفير أحدهما الآخر وتفسيقه ، فكانت فتنة كبيرة في الوسط العلمائي ، لان الخلاف لم يكن بـين السياسيين العلمانين وعلماء الدين حيث يؤيد العلمانيّون مثلاً فكرةً من الافكار ، في حـين يعارضها العلماء ، بل الخلاف كان بين العلماء أنفسهم في موقفهم من الحركـة الدستورية ، وهذه هي الطامّة الكبرىٰ ، والفتنة العظمىٰ .

وقبل البدء في البحث أود انْ أُذكّر بنكتة لا بدّ منها :

في الحركة الدستورية موضوعان ، يهمُّـنا أحدهما دون الآخر . وهذا الموضوع هو : ما هي العوامل التي أدّت الىٰ ظهور الحركة الدستورية ، وتأييدها ، من الناحية الاجتماعية والسياسية ؟ وما هي العوامل (العوامل السياسية الخارجية) التي أدّت الى معارضتها ؟

لاشك انّ الدول الكبرىٰ هذا اليوم ، كان لها موقف من الحركة الدستورية والاستبداد . و بعبارة اخرىٰ : كانت إحدىٰ هذه الدول تؤيّد الحركة الدستورية ، وتسعىٰ الى تركيزها أكثر ، في حين كانت دولة اخرىٰ تؤيّد الاستبداد وتدعمه ليقف بوجه الحركة الدستورية ، ولو تساءلنا : لماذا تتخذ هذه المواقف ؟ لعرفنا انّ الدولة التي كانت تؤيّد الحركة الدستورية ، كانت تنوي فرض سياستها على ايران ، وهذا ما تحقق بالفعل ، وكذلك في المقابل

حيث الدولة التي كانت تعارض الحركة ، كانت معارضتها بسبب النفوذ الذي كانت تتمتع به داخل ايران ، وكانت ترمي الى الوقوف بوجه نفوذ الدولة المنافسة لها ، ولهذا السبب كان هناك بعض الأشخاص يعارضون الحركة الدستورية لانهم كانوا يرونها صنيعة الايادي الاجنبية ، كما كانوا على قناعة بانّ الحركة ليست حركة دستورية بمعنى الكلمة بل هي حركة مشبوهة وضعت السياسة الاجنبية فيها أصابعها . وكذلك الامر بالنسبة الى الاشخاص الذين عارضوا الاستبداد ، فانهم عارضوه لاطّلاعهم على من يقف وراءه من الاجانب ، وتقديرهم لما ينجم عنه من أضرار . (ولا يخفى فانّ الروس كانوا وراء النظام الاستبدادي ، والانجليز وراء النظام الدستوري ، وهذا ليس محل بحثنا) وممّن عارض الاستبداد وأيّد الحركة الدستورية تأييداً قوياً ، المرحوم الآخوند الخراساني . وفي حدود اطّلاعي فان هذا العالم الكبير من أعاظم علماء الامامية ، ولم يضارعه احدٌ من الشيعة في التدريس. وكان ما يقارب الألف ومائتي طالب يحضرون درسه ، و بين هؤلاء ثلاثمائة أو اكثر من المجتهدين ، وكان على درجة عالية من الايمان والتقوى . وموقفه في تأييد الحركة الدستورية كان نابعاً من حسن نيّة ، وليس هناك أدنى شك في ذلك . ولكن ان قال أحد : أنا اُعارض الحركة الدستورية فلا يعني هذا انّه يُخطىء المرحوم الآخوند ـ رضوان الله عليه ـ .

وكان على رأس معارضي الحركة الدستوريّة فقيه كبير من فقهاء الامامية هو المرحوم السيد كاظم اليزدي الطباطبائي الذي كان احد الاحدين في الفقاهة . فلو جاء احد وقال : انه يؤيّد الحركة الدستورية فلا يعني هذا انهُ يخطّىء المرحوم السيد اليزدي ـ طاب ثراه ـ ، لان السيّد اليزدي عندما عارض الحركة الدستورية فربما كان يعلم انّ وراءها يداً أجنبية ، فتكون نتائجها غير طيّبة .فالموضوع اذن ليس موضوع استصواب العلماء الكبار أو تخطئتهم ، وذلك لوجود توجهات وعوامل كثيرة تكتنفه .

ولو كانت الحركة الدستورية أو الحركة الاستبدادية قضية علمية ، لامكن الكلام فيها ومناقشتها . لكنها كانت قضية قد ساهمت عوامل كثيرة جداً في تأييدها أو معارضتها بحيث لا يمكن الحكم عليها أو تقويمها بسهولة ، ولسنا في صدد الحديث عن تلك العوامل أو عن المؤيدين والمعارضين . وتفيد القرائن انّ الذين عارضوا النظام الدستوري كانوا يقولون انّ هذا النظام المراد تطبيقه هو غير النظام الذي يتحدثون عنه ، فهو ليس نظامه دستورياً شرعياً كما

سوف لا يكون كذلك . ومن هؤلاء : المرحوم الشيخ فضل الله نوري . .

وهكذا فقد ظهرت الحركة الدستورية محفوفة بالملابسات ، وتمخضت عن أحداث دامية مُرّة قتل فيها علماء مجتهدن من أمثال الشيخ « فضل الله نوري » الذي صلب على أعواد المشانق . وهذا حدث في غاية من الفداحة حيث كان المرحوم « نوري » رجلاً عظيماً ، وكان مجتهداً مسلّماً باجتهاده ، وعلى حد ما سمعتُ فقد كان في غاية النزاهة والعدالة والتقوىٰ .

إنّنا عندما ندرس الحركة الدستورية ، ننطلق من زاوية أُخرىٰ خاصّة . اي اننا نجرّدها من العوامل الخارجية ، ومن كون ايران كانت مستعدة لتقبلها أو غير مستعدة . ونفرض انّ المكان هو غير ايران ، والزمان هو غير زماننا ، و بعبارة اخرىٰ : نفرض انّ الحركة كانت في دولة اسلامية اخرىٰ وأنّ شعب تلك الدولة مستعد ، و يفهم مغزىٰ الحركة ، لانّ كثيراً من الناس كانوا آنذاك لا يعرفون معنىٰ الحركة الدستورية حيث كان المبلّغون لها يطرقون أبواب الناس و يقولون لهم : هل تعلمون ما معنىٰ الحركة الدستورية ؟ و يردفون : فلو صارت دولتنا دستوريةً فانّ الخبز والكباب يأتيكم الىٰ بيوتكم وأنتم جالسون ! أو انّ أحد السُذّج كان يقول : يا للعجب ! هل تريدون أن تأتي لنا السيّدة « مشروطة »[1] وتحكمنا ؟

وهكذا كان الاختلاف في فهم الحركة وتفسيرها واستيعابها ، فلا الذي كان يعمل لأجلها يُدرك مغزاها ، ولا الذي يعارضها يعي ما عليه ان يعمل . فعدم استعداد الشعب يعني عدم فهمه وتقويمه الصحيح للامور . ولو عُدنا الىٰ فرضيتنا ، وقلنا : لو كانت الحركة في دولةٍ شعبها واعٍ ومدرك ، وليست هناك عوامل خارجية تؤثّر على الحركة ، كما انّ النوايا طيّبة ، فهل الحركة في ذاتها ـ كحركة دستورية ـ منسجمة مع الشريعة الاسلامية أو لا ؟

وهذه إحدىٰ القضايا التي ينبغي دراستها ، حتىٰ لا يبقىٰ تيار الجمود والجهل يحوم حولها بغموض .

انّ البعض يحكم على الحركة الدستورية أنّها ضدّ الاسلام ، وحكم هذا البعض حكم مجرد بعيد عن تأثير العوامل الخارجية علماً انّ قصدهم من الضدّية هو انّ الدين الاسلامي لا يلتقي وتوجهات الحركة . ولا بد لهم اذن أن يقولوا انّه يلتقي والاستبداد ، أو على الاقل

---

(١) وتعني بالعربية : الحركة الدستوريّة . (المترجم)

التقاؤه مع الاستبداد أكثر من التقائه مع الحركة الدستورية .

لماذا كل هذا التخبط ؟ لا بدّ انّه ناتج من عدم تحديد معنىٰ الحركة الدستورية فلا يمكن اذاً الخوض في نقاش هذه الحركة وكل ما رافقها من أحداث وتوجهات ما لم تُحدّد بشكل دقيق . فالحركة الدستورية تعني انّ الدولة بحاجة الىٰ جملةٍ من الاجراءات والقرارات لتسيير أمورها . و بعبارة اخرىٰ : انها بحاجة الىٰ حكومة تدير شؤونها كحاجة المؤسسة الثقافية أو الشركة التجارية الىٰ مدير يكون مسؤولاً عنها ، أو هيئة ادارية تتولىٰ مسؤوليتها . فالكلام قبل كل شيء هو : انّ كل دولة تحتاج الىٰ من يدير لها شؤونها . ولو قلنا : انّها لا تحتاج ، فقد وقعنا في مغالطة فظيعة . ورفضنا الحركة الدستورية والاستبداد معاً ، لانّ الاستبداد أيضاً يعني وجود من يدير شؤون الحكومة لكنه متفرد في قراره . و برفضنا للاستبداد والنظام الدستوري في آن واحد يعني اننا حكمنا على الا ثنين بالخطأ .

ولو قلنا : ما السبب ؟ لقالوا : ان وجود الدين في الدولة يكفينا و يغنينا عن الحكومة . وهذه النبرة هي نفس نبرة الخوارج إذ كانوا يقولون : لا حكم الاّ لله . وكان تعليق الامام عليّ ـعليه السلام ـ على ذلك « كلمة حق يراد بها باطل » فالخوارج كانوا يقولون : (لا حكم الاّ لله) ، فهي عبارة صحيحة لكنّهم يقصدون بها شيئاً آخر ، وكما عبّر عنهم أمير المؤمنين ـعليه السلام ـ بقوله : « ولكن هؤلاء يقولون : لا اِمرة الاّ لله ، ولا بد للناس من أمير برّ أو فاجر » . فالبر في الدرجة الاولىٰ . والفاجر في الدرجة الثانية ، فوجوده مع فجوره أفضل من عدم وجوده .

اذن وجود القانون ، ولو كان قانوناً دينيّاً لا يُغني الناس عن الحكومة أبداً ، ولذلك فانّ مسألة الخلافة متّفق عليها بين السُنّة والشيعة ، وحتىٰ الخوارج يقرّون بها بعد ان كانوا يرفضونها اوّل الامر فبايعوا أحد الخلفاء فيما بعد . وهكذا فالسنّة والشيعة يتفقون على انّ وجود الدين لا يلغي ضرورة الحكومة ، وذهب السنّة مذهباً في هذا الاتجاه ، اما الشيعة فقد قالوا : لا يصلح للخلافة الاّ من نصَّ عليه النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ بالتعيين .

ولو فرضنا اننا نحتاج الى الحكومة ـ وهذه هي فرضيتنا الثانية ـ فهل يعني هذا انّنا نحتاج الى جهاز مشرّع وجهاز منفّذ ، أو لا ؟ يكون المشرّع منفّذاً في آنٍ واحد ، وهذا هو توجّه النظام الاستبدادي ، فالحاكم في هذا النظام مشرّع ومنفّذ في نفس الوقت . امّا النظام الدستوري فيختلف عنه بوجود سلطة تشريعية ، واخرىٰ تنفيذية ، وأعضاء السلطة التشريعية

هم النوّاب الذين ينتخبون من قبل الشعب ، فهم - في الحقيقة - نوّاب الشعب ، ومهمّتهم : تشريع القوانين ، ومهمّة الحكومة : التنفيذ ، علماً انّ أعضاء الحكومة يعيّنون من قبل نوّاب الشعب وممثّليه بعد ترشيحهم من قبل رئيس الحكومة نفسه . وهذا التوجه الذي عليه النظام الدستوري يؤدي بالتالي الى انّ زمام جميع الامور يكون بيد الشعب نفسه . فالشعب يحكم نفسه بنفسه .

امّا المعارضون لهذا النظام فانهم كانوا يندّدون بكلا النظامين ، ويخطّئون القائلين بهما . وكانوا يقولون : انّ القضيّة ليست قضية تشريع قوانين فحسب ، ولو كانت كذلك لما عارضناها . وهم على حق في ذلك لانهم كانوا يقولون : لو انّ النظام الدستوري بالشكل الصحيح الذي ينتخب الشعب فيه ممثّليه ، وهؤلاء ينتخبون أعضاء الحكومة ، واولئك الممثّلون يشرّعون القوانين ، والحكومة تنفّذ ، بحيث تكون تلك القوانين مطابقة لما تريده الشريعة ، لا لما تريده الأهواء البشريّة ، فتكون قوانين وضعية ، يتبعها إلزام للحكومة بتنفيذ تلك القوانين ، فما أروعه ! وما أحسنه ! لكن النظام الذي تردّده الألسن هوليس النظام الدستوري المطلوب ، وما ترديدهم لهذه العبارة الجميلة الاّ لتمويهنا . فالنظام الدستوري يعني انّ الشعب ينتخبُ ممثّليه ، وهؤلاء يشرّعون القوانين ، وهي صورة جميلة لكنها بعيدة عن الحقيقة . نعم ، يشرّعون القوانين ، لكنها ليست القوانين المطابقة للقوانين الالهية . اي : لا يضعون قانوناً متلاءماً مع الشريعة ، و يبلّغون به الحكومة لتنفيذه !

وهذا ما ينسجم وتوجهات المستبدين ، وهنا يتفوق منطق الاستبداد بدحره لمنطق الدستور ، لكن ، الدستوريّون هنا لهم جواب لا يصمد أمامه جواب خصمهم .

يقول الدستوريون : إنّنا نقرّ أنّ النظام الدستوري الذي ينصّ على انّ ممثّلي الشعب هم الذين يصنعون القرار ، ولا يعني انّ المجتهد الذي يريد أن يستنبط حكماً من الاحكام ينظر ماذا يقول قانون الله تعالى ، ليبلّغ الحكومة بنفس ذلك القانون من أجل تنفيذه . لا ، ليس كذلك بل انّ ممثّلي الشعب هم الذين يضعون القوانين . ولنا أن نسأل : هل انّ كل قانون وضعي ممنوع ؟ لا ، نحن عندما قانون باسم الدين ، وقد حدّد الدّين تكليف النّاس لكلّ الأزمنة والأعصار ، و بيّن القوانين الكليّة المجملة ، أمّا الجزئيات والتفاصيل التي تظهر في كل عصر ، فقد تركها للناس كي يجتهدوا في وضع قانون لها مع الاخذ بنظر الاعتبار القانون الالهي

الكلّي ، وعدم التعارض معه . وعلى هذا الأساس نقول : ان عندنا دستوراً جاء فيه ضرورة وجود خمسة من المجتهدين الواعين العارفين بمتطلبات العصر للاشراف على القوانين واللوائح التي تناقش في المجلس النيابي من حيث انطباقها مع القوانين الاسلامية . فلو تمّ التصويت على قانونٍ ما ، وظهر تعارضه مع الدستور ، فانّ مهمّة اولئك المجتهدين ردّه والحيلولة دون تنفيذه . ولو كان موافقاً لما جاء في الدستور ، يأخذه مجراه الطبيعي للتنفيذ . و يضربون مثالاً على ذلك فيقولون : لم يفرض القانون الاسلامي على الناس الرجوع الى القرآن أو السُنّة لمعرفة رأيهما في جميع جزئيات حياتهم وتفاصيلها ، من قبيل التطورات الحاصلة في أوضاع المدن ، أو وسائط النقل الحديثة التي تستوجب وضع قوانين لها للمحافظة على النظم في النقل والسير والمرور ، ولو لم تكن لها قوانين فان نظام النقل يختلّ وتبرز آلاف الحوادث من جرّاء ذلك ، فلابّد لها من قوانين وتعليمات .

فهذه الامور وغيرها من التفاصيل الاخرىٰ التي تطرأ في حياة الناس ، فوّضها الاسلام الى الناس أنفسهم للبتّ فيها واتخاذ ما يلزم بشأنها . ومثلها في ذلك مثل الأب في أسرته ، حيث انّ له الحق في أن يضع جملة من المقررات لتنظيم امورها . والقانون الالهي يرى انّ الأب رئيس العائلة ويجب على الجميع اطاعته . اما القانون الآخر فيرى ان للاب حق الحكم في اسرته لا التحكم عليها . انّ من حقه ـ كرب للاسرة ـ ان يأمر و ينهى في حدود مصالحها الحياتية لكن ليس من حقّه أن يتسلّط عليها ويتحكّم بها كيفما يشاء ، و بعبارة اخرى : ليس له أن يعمل خلاف ما تتطلبه المصالح الحياتية لاسرته . و يثار هنا سؤال وهو : هل وضع الله قانوناً للامور الجزئية داخل الاسرة أو لا ؟ مثلاً : هل ذكر ان على الاب ان يقوم بفلان عمل أو لا يقوم ؟

لا ، انّ الله تعالىٰ فرض على الاولاد إطاعة آبائهم ، وعلى الآباء ان يُحسنوا معاملتهم مع ابناءهم . وهناك مثال آخر وهو : لو نفرض انّ أصحاب الحمّامات قد وضعوا بعض القوانين منذ القدم لتنظيم شؤون حمّاماتهم ، فهل لهم الحق أن يضعوا تلك القوانين لها أو نقول : «لا حكم الآ لله» ؟ وعندها لم يعد لهم اي حق في وضع أي قانون .

نعم ، انّ القانون يجب ان يكون من وضع الله تعالىٰ . والله يقول : لو انّ شخصاً ما عُيّن رئيساً أو مديراً لمؤسسة ما ، فله الحق أن يتخّذ جملة من القرارات العقلائية وفقاً لما تقتضيه المصلحة ، و ينبغي على الآخرين اطاعة تلك القرارات .

هذا فيما يخصّ الجزئيات والتفاصيل . امّا الامور الكلية المجملة ـ فكما ذكرنا ـ انّ كل دولة تحتاج الىٰ من يدبّر لها امورها ، و يدير شؤونها من رئيس أو هيئة رئاسيّة ولكن حينما تأتي هذه الهيئة الرئاسية وتسن قوانين معيّنة مقابل قوانين الله وأحكامه ، فمثلاً ، تجعل الطلاق من حق المرأة في حين ان قوانين الله تجعله من حق الرجل ، فهذا غير صحيح . بيد انّ لهم الحق في وضع بعض المقررات في حدود ما يقتضيه التكليف ، وهذا يؤدي الىٰ قانون وضعي أيضاً ، لكنه قانون جزئي متلاءم مع القانون الالهي المجمَل . اما اذا أرادوا وضع قانون دون الاخذ بنظر الاعتبار القانون الالهي ، فهذا العمل في منتهىٰ الرداءة ، ولكن اذا اخذوا القانون الالهي بنظر الاعتبار، فلا مانع من وضع قانون في حقل الامور الجزئية ، فعلى سبيل المثال : يضعون قانوناً حول حليّة أو حرمة ارسال الطلاب الى الخارج لمواصلة دراستهم . وهذا ليس بشيء حتىٰ يذكر في الاسلام لكن الاسلام نفسه ذكر مبادىء كليّة مجملة حول هذا الامر وأمثاله ، ففي باب العلم مثلاً ، لو كان العلم عند غير المسلمين ، فهل يجوز لنا طلبهُ أو لا ؟ وذكرت هناك عشرات الاحاديث تؤكد على جواز طلبه ، منها : «الحكمة ضالّة المؤمن ، يأخذها أينما وجدها» أو «خذوا الحكمة ولو من مشرك» فالتكليف هنا محدّد ، وتبقىٰ بعض المواضيع التي تترتب على الارسال الى الخارج مثل الانحراف الذي يمكن ان يتعرض له الطُلاّب هناك ، وهنا ينبغي تشخيص سبب الانحراف حتىٰ يتيسر علاجه ، علماً انه يمكن ان يطلب الانسان العلم في الخارج و يبقى محافظاً على دينه كما حدث لكثير من المؤمنين الذين ذهبوا ودرسوا وتخرجوا وهم على ما هم عليه من التدين والايمان . . وفي هذا الصدد ينقل العالم المصري الطنطاوي في تفسيره حكاية تترجم ما ذكرناه . وهي كالآتي : (قد كانت امتنا المصرية في اواسط القرن التاسع عشر، وهو القرن الماضي ذات نهضة شريفة عالية بتأسيس [المرحوم محمدعلي باشا] وكان يرسل الشبان في الارساليات الى فرنسا ، ومعهم شيوخ ليعلموهم الصلاة والمحافظة على الدين ، وكانوا يرسلون كل اسبوع ملخصات لدروسهم ، وترسل لهم خطابات بختم الاميريظهر رضاه عنهم في كل ما ظهر نبوغهم فيه ، فاتفق ذات يوم ان مراسلاً لاحدى الجرائد الكبرىٰ [واظنها الطان] كان يجوب في المزارع وقت الفجر لغرض ما فلمح من بعيد شبحاً ، فذهب اليه إذا هو تلميذ مصري بجانب ماء جمد فصار ثلجاً ، وكان ذلك زمن الشتاء والتلميذ يلتمس قطرات منه ليتوضأ ، فتعجب ، وسأله : لم هذا ! فقال : أتوضأ لصلاة الصبح ، فرجع وكتب مقالة عنوانها

[مصر ستغتال اوربا] وذكر الحادثة بتمامها ، وقال : اذا كان هذا صادق العزيمة حتى يتوضأ بالثلج ، فهذه العزيمة لامثل لها في اوربا ...)[١] .

ففي مثل هذه الحالات يمكن وضع قانون معيّن بشرط ان لايتعارض مع الدين ، واذا لم يكن للانسان حق أن يضع قانوناً لعلاج هذه الجزئيات في الحياة ، فهذا هو الجمود والتزمت بعينه ، وهو نفس رأي الاخبارين ، فهم لا يرون هناك ضرورة لوجود المجتهد مكتفين بالرجوع الى الاخبار.. ولا يخفى فانّ الاخبار ذكرت المسائل مجملة ، وما هي الآ مهمة المجتهد حيث يُعمل فكره لاستنباط المسائل الجزئية التفصيلية من المصادر المجملة ، وذلك لمواكبة تطورات العصر واستيعابها .

فلا اشكال ـ اذن ـ لو ارادت هيئة ادارية معيّنة وضع ورقة عمل لادارتها حسب القوانين الموجودة .

---

(١) اقتبسنا هذا النص من تفسير الطنطاوي (٢/٢٢٣) لانّ المؤلّف قد تصرف فيه تصرفاً فاحشاً ممّا أخلّ بمحتواه.

(المترجم)

مهامّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله

مهامُّ النبي صلّى الله عليه وآله

قال تعالى : «ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» [١] .

للنبيّ الكريم ـ صلّى الله عليه وآله ـ ثلاث مهامّ مختلفة ، يختصُّ بها دون غيره ، ولا تتعلق الّا به ، واذا ما انتقلت الى الآخرين ، فانما تصدرعنه اليهم ، كما صدر بعضها بالفعل .

لقد جمع النبي ـ ص ـ هذه المهام الثلاث بأمرٍ ربّاني . واولها : النبوّة والرسالة . و يتجلّى دورها في تبليغ الاحكام الالهية التي كان يتلقاها عن طريق الوحي . فكان يبلغ الناس بما يوحي اليه مكلّفاً بذلك بصفته رسولاً ونبيّاً ، قال تعالىٰ : «ما على الرسول الّا البلاغ» [١] ومن الاحكام التي كان يتلقاها و يؤمر بتبليغها : الصلاة والصوم والحج والزكاة وسائر المعاملات ، وكل ما يتعلق بالممارسات العباديّة وغيرها ، علماً انّ التعليم كان يرافق عملية التبليغ . وكان الناس في المقابل يشعرون بمسؤوليتهم إزاء هذه المهمّة النبويّة ، فيأخذون عنه ما يلقى عليهم .

اما ثاني هذه المهام ، فهي مهمّة القضاء ، وهي مهمّة مقدّسة . وعندما أقول : مقدّسة ، فانّي اقصد : انها يجب ان تصدرمن قبل الله ـ جل شأنه ـ حتىٰ يتيسر له أن يكون نبيّاً . وهذه المهمّة ، اي القضاء والحكم بين الناس ، منصب حسّاس ومهم ، لذلك ينبغي أن يفوّض من قبل الله ـ تعالىٰ ـ لأحد ، حتىٰ يتمكن من الحكم بين الناس .

---

(١) سورة الحشر / ٧ .

(٢) سورة المائدة / ٩٩ .

والحكم بين الناس يأتي بسبب الاختلاف الحاصل بينهم من حيث الحقوق الاجتماعية ، وهذا ما يتطلب وجود شخص يحمل مؤهلات الحكم لأجل احقاق الحق ، وهذا الشخص يبتُّ في الأمر وفق قانون معيّن بعدما يقوم بدراسته وتحقيقه .

انّ النبيّ (ص) لم يكن نبيّاً هادياً فحسب ، بل كان قاضياً أيضاً ، والمنصبان ، أعني : النبوّة والقضاء ، يقبلان الفصل في حدّ ذاتهما . ومنصب القضاء منصب مقدّس ، والقاضي ينبغي أن ينصب من قبل الله ـ تعالىٰ ـ وقد قال ـ عزّمن قائل ـ «فلا وربّك لا يؤمنون حتىٰ يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً ممّا قضيتَ و يسلّموا تسليما»(١) وهذه الآية تتعلق بمنصب القضاء الذي كان للرسول الاكرم ـ صلّى الله عليه وآله ـ وتريد من الناس التسليم الكامل أمام حكم النبي (ص) ، وتنبههم ان لا يتوقعوا تحيز النبي (ص) لأحدهم عندما يحكّموه . فعلى سبيل المثال : لو انّ مسلمين ترافعا الى النبي (ص) في قضيّة ، وكان أحدهما من المسلمين المهاجرين الذين ضحّوا بأموالهم ، وفارقوا زوجاتهم وأولادهم في سبيل الله ، والثاني من المسلمين الجدد ، فلا يتوقع المسلم الاول تحيّز النبي (ص) الى جانبه باعتبار سابقته في الاسلام ، وكذلك لو كان المترافعان مسلماً وذميّاً ممّن يعيش في ظل المسلمين ، وله معهم ميثاق ، وكانت المرافعة تدور حول قضيّة مالية ، فلا يتوقع هذا المسلم كذلك تحيز النبي (ص) الى جانبه ، لانّ هذا خلاف المنطق الايماني ، اعنى التوقع خلاف المنطق الايماني ، لانّ الايمان في هذه المواطن يتحقق بالتسليم الكامل لقرار النبي (ص) وحكمه عند الترافع اليه .

فالآية المذكورة ترتبط بالقضاء كأحد المهامّ التي كان النبيّ (ص) يمارسها .

وامّا ثالث هذه المهام ، فهي مهمّة الحكومة التي فوّضها الله ـ تعالىٰ ـ الى نبيّه الكريم (صلى الله عليه وآله) ، و ينبغي ان تكون الحكومة من قبل الله ـ جل شأنه ـ حتىٰ تضمن شرعيتها . فالنبي (ص) كان حاكماً على الناس . وكان سياسياً ورئيس دولة ، ومسؤولاً عن المجتمع ، وقد أسّس (ص) حكومة في المدينة كان يرأسها بنفسه ، وكان يصدر الاوامر ، و يعلن النفير العام أو التعبئة العامّة عندما تقتضي منه الظروف ذلك ، وكان يأمر بزراعة محصول من

(١) النساء / ٦٥.

المحاصيل في السنة الفلانية . وهكذا كان دأبه طيلة عشر سنين وهي الفترة التي حكم فيها بصفته رئيساً للدولة الاسلامية في المدينة المنوّرة ، فمنصب الحكومة وإدارة شؤون الامّة هو غير منصب النبوّة ، ومنصب القضاء . فكان يبيّن الأحكام ، و يبلّغ الاوامر الصادر عن الذات الالهية المقدّسة بصفته نبيّاً ، وكان ينظر في دعاوى الناس ومرافعاتهم بصفته قاضياً ، وكان يدير شؤون الامّة السياسية والاجتماعية بصفته حاكماً ورئيساً .

يقول ـ تعالىٰ ـ في محكم كتابه العزيز : «يا ايّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولى الامر منكم »[١] وهذه الآية الكريمة تطالب الناس أن يتحلّوا بالانضباط والطاعة المطلقة في مقابل الحاكم الربّاني ، وأن ينفّذوا ما تصدر السلطة من أوامر دون نقاش .. ونحن ـ الامامية ـ نستفيد من هذه الآية المباركة كدليل قاطع على انّ ذكر «اولى الأمر» يرتبط بالخلافة . فالآية تتحدّث عن منصب الخلافة ، وهذا منصب آخر ، وهومنصب مقدّس كذينك المنصبين اللذين كانا للنبيّ (ص) ، وتعيين الخليفة يتم بأمر من الله تعالىٰ بشكل مباشر أو غير مباشر .

وهنا يثار موضوعان : الاول : هل انّ الله ـ تعالىٰ ـ أمر نبيّه (ص) بتعيين خليفة بعده ، وتفويض تلك المهام له ، أو لا ؟ نعم ، ولكن ليس بمعنىٰ اقتضاء النبوّة للنيابة ، ومجيء نبيّ آخر بعده ، لانه خاتم الانبياء ، ولا نبيّ بعده . وبما انّه مبيّن للأحكام ، فلابُدّ له من تعيين أحد يُبيّن الأحكام بعده مع الفارق من حيث انّ النبيّ (ص) كان يتلقىٰ الأحكام من الوحي بصورة مباشرة ، اما الذي يأتي بعده فيتلقاها منه ، و يبلّغها للناس ، وهذه هي الامامة . وهي منصب علمي ومرجعية علىٰ جميع الأصعدة السياسية والاجتماعية والتربوية والاقتصادية وغيرها .

هذا بالنسبة الى تعيين الأحكام كمهمّة من مهامّ النبيّ (ص) وعليه أن يفوّضها لمن يأتي بعده . أما القضاء فهو كذلك على نفس النمط ، ايّ : لابدّ أن ينتقل أيضاً الىٰ خليفة النبي ووصيّه ، وذلك لان منصب القضاء لايُلغى بموت النبيّ (ص) ، حيث انّ الناس بحاجة الى من يقضي بينهم ، و ينظر في دعاواهم ، ويحكم في المشاجرات الحاصلة في وسطهم ، لذلك لابدّ للنبيّ (ص) أن يعيّن شخصاً بعده للقضاء ورفع الخصومات حتىٰ ترفرف العدالة بأجنحتها

(١) النساء / ٥٩ .

على الناس ، وتقص أجنحة الظلم والفوضى . لكن هناك اختلاف في هذه القضية بين الاماميّة وغيرهم من المسلمين ، فعامّة المسلمين يرون انّ الخليفة نفسه له الحق في ممارسة منصب القضاء ، أو يعيّن قاضياً ، امّا الاماميّة فيرون انّ هذا المنصب هو من حقّ الامام المعيّن من قبل النبيّ (ص) ، لانّ الامامة تعني الحكومة ، والحكومة لا تسقط بموت النبيّ (ص) ، وذلك لحاجة الناس اليها بعده .

انّ الذي قصدته من وراء بحثي هذا هو انّ تلك المهام الثلاث التي يختصّ بها النبيّ (صلّى الله عليه وآله) تنتقل بشكل من الأشكال الى من يأتي بعده باستثناء النبوّة حيث انه (ص) كان يعرف الاحكام عن طريق الوحي ، اما الذي يأتي بعده فيعرفها و يتعلمها عن طريقه . أعني : ان النبيّ (ص) نفسه يقوم بتعليم الخليفة وإعداده ليكون مرجعاً للناس من بعده .

هذا فيما يخصُّ الموضوع الاول . امّا الموضوع الثاني : فيدور حول منصب النبوّة من حيث تفرده عن منصبي القضاء والحكومة ، إذ هو منصب شخصي تعييني ، أي لا يمكن أن يكون عامّاً مطلقاً ، اما منصبا القضاء والحكومة فيمكن أن يكونا عامّين . أعني بذلك : انّ النبيّ (ص) لا يسعه توضيح منصب النبوّة ، أو الامامة بشكل عام ، مثلاً أن يقول : كل من حاز على المؤهّلات الفلانية فهو نبي أو امام ، إذ ربما وجد بينهم مائة شخص كلهم يحملون تلك المؤهّلات . فهذا لا يمكن حدوثه أبداً ، أما القضاء والحكومة فيمن تعيين مؤهّلات من يتولاهما بشكل عام ، اي انّ النبيّ (ص) يقول مثلاً : كلّ من يحمل المواصفات الفلانية ، يمكنه أن يكون قاضياً . وهذه المواصفات على سبيل المثال : العلم بالقرآن ، معرفة النبيّ (ص) وإدراك النبوّة ، العدالة ، ترك الدنيا والاعراض عنها ، ولو توفرت فانها تكون مصداقاً للحاكم المذكور في نصّ المعصوم «فقد جعلته عليكم حاكماً» .

فمثل هذا الشخص يمكنه القضاء بين الناس ، ويمكنه القول : انه منصوب من قبل الله ـ تعالى ـ على النحو غير المباشر ، وذلك انّ النبيّ (ص) ذكر مبدأ في القضاء ، يستطيع بموجبه أن يكون قاضياً .

نحن الامامية أتباع أهل البيت نقول : انّ الشرط الاول في القاضي أن يكون مجتهداً ، أي اخصّائياً في حقل القضاء ، والشرط الثاني ان يكون طاهر المولد ، والثالث : أن يكون عادلاً

غير فاسق ولا منحرف ، والرابع : أن لا يرتكب خلافاً أو معصية ، وأن لا يكون مرتشياً ، وهذا الشرط الأخير لا يقتصر على القضاء فقط بل يشمل كافّة الشؤون الحياتية ، أي : لا يكون القاضي ممن يرتكب المعصية و يقترف الذنب في ممارساته ونشاطاته الاخرىٰ ، وذلك لانّ البعض يقولون : انّ القاضي ينبغي ان يكون أميناً ، وغير مرتشٍ ، وان لا يقع تحت تأثير الآخرين ، في مجال عمله فقط ، ولا اشكال لو كان من شاربي الخمر ، لانّ شرب الخمر لا علاقة له بالقضاء .

أي كلامٍ هذا ! والاسلام يقول : انّ شغل القضاء شغل مقدّس الى الحدّ الذي لا يحقّ فيه لأحد ممارسته الّا اذا كان نزيهاً في كل حياته ، إذ لا تقتصر النزاهة على القضاء فقط بل تشمل كل ميادين عمله ونشاطه ، فلو كانت عدم نزاهته خارج القضاء فقط ، فلا يحق له أيضاً أن يكون قاضياً . لكن لو وجد أحد حائز على هذه الشرائط ، وتحلّىٰ بكلّ مؤهّلات هذه المهنة المقدّسة ، فيمكننا ان نطلق عليه : انه منصوب من قبل الله ـ تعالىٰ ـ .

انّ الشخص الذي يبيّن الاحكام الالهية بعد النبيّ (ص) هو الامام لكن قد انتهت مرحلة الامامة وليس هناك من إمام يرجع اليه الناس ، فماذا يفعلون اذاً ؟ والجواب هو انّ الامام قد عيّن نائباً عامّاً له حسبما ورد عن أحد الائمة المعصومين (عليهم السلام) ما نصه «انظروا الىٰ من روى حديثنا ، ونظر في حلالنا وحرامنا ، فقد جعلته عليكم حاكماً» وقد يأتي أحد فيدّعي انّ من حقّه تعيين قيّم على القاصرين ، وهذا نقول له : انّ هذا المنصب مقدّس ، والمنصب المقدّس ترتبط قدسيته بالتنصيب الالهي ، وهذا التنصيب إمّا مباشر بتحديد شخص معيّن ، أو غير مباشر من خلال ذكر الشرائط بشكل مجمل .

الىٰ هنا لا مناقشة في هذا الموضوع من ناحية المبادىء الاسلامية ، ولو ادّعى شخص انّ له حقّ الافتاء ، وعلى الآخرين العمل بفتواه ، فينبغي الالتفات قبل كل شيء الى انّ هذا . المنصب منصب مقدّس ، وانّ كفاءة بيان الاحكام الالهية هي مِنحة ربانية ، منَّ الله بها على نبيّه الكريم محمد (ص) أوّلاً وتحولت من النبيّ (ص) الى الامام (ع) ، ثمّ من الامام الىٰ من توفرت فيه الشرائط المطلوبة ، فهل هذه الشرائط متوفرة في الشخص المفتي أو لا ؟ وهل هو في حدٍّ من الكفاءة والتأهيل بحيث يليق بهذا المنصب المقدّس أو لا ؟ فلو كان كذلك ، وانطبق عليه ما ورد عن المعصومين ـ عليهم السلام ـ بقولهم : «امّا من كان من الفقهاء صائناً لنفسه

حافظاً لدينه تاركاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه ، فللعوام أن يُقلّدوه . . » فهو مستحق لمنصب الافتاء ومرجعية المسلمين . والاّ فلا يمكن تفويض هذا الامر الى زيد من الناس اعتباطياً . . علماً انّ هذا الموضوع هو من المواضيع التي كان لها وجودها في التأريخ الاسلامي ، ومنصب الامامة والمرجعية العلمية منصب خاصّ لا يُفوض الى كلّ احد .

واتذكر انّ المرحوم آية الله العظمى السيد البروجردي كان يُنبّه على هذا الموضوع مراراً. وكان يقول : هناك موضوعان لو فصلناهما عن بعضهما لزالت اختلافاتنا مع إخواننا السُنّة ، وكانت النتيجة في صالحنا ، وهذان الموضوعان هما : موضوع الخلافة والقيادة ، وموضوع الامامة . فبالنسبة الى الخلافة ، نحن نقول بأحقيّة الامام علي -عليه السلام- لها ، وهو الخليفة بعد النبي الاكرم -صلّى الله عليه وآله- ، في حين يرى عامّة المسلمين انّ الخلافة لأبي بكر . و بالنسبة الى الامامة ، فنحن لا نناقش مسألة الحكومة كمهمّة من مهامّ النبيّ -صلّى الله عليه وآله- فقط ، وذلك لانّ للنبيّ -صلّى الله عليه وآله- مهامّاً اخرى ، منها : مهمّة الرسالة والنبوّة وتبيين الاحكام ، والذي يهمّنا هو أن نعرف من هو الشخص المؤهل لمرجعية الاحكام بعد النبيّ (ص) ، و يكون كلامه حجّة علينا ؟ (وليكن من كان) .

بعد ذلك يجيب - رحمه الله - ان بعض الروايات ذكرت انّ النبيّ (ص) نصّ على الامام علي (ع) خليفة وحاكماً من بعده ، و بعضها ذكر انّه نصّ عليه مرجعاً للاحكام ايضاً . ونحن نقول لاخواننا السُنّة : انّ لنا معكم حديثاً حول الخلافة بعد النبيّ (ص) ليس محله الآن وذلك لان موضوع الخلافة قد انتهى فلا عليّ موجود حتى يكون خليفة ولا أبوبكر ، لذلك نوصد باب النقاش على هذه القضية هنا ، بيد انّه يظل مفتوحاً في مجال حِجيّة قول من يأتي بعد النبيّ (ص) . وهنا نقول : انّ الحديث المشهور وهو: «اني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي . . . . » يوضّح بلا شك انّ الحجيّة لقول الأئمّة - عليهم السلام - ، وانّ منصب الافتاء والمرجعيّة العلمية للعترة الطاهرة التي أذهب الله عنها الرجس وطهّرها تطهيرا . وهذا ما ينفعنا في الحياة الحاضرة ، حيث انّنا نرجع الى العترة الطاهرة في تعلم الاحكام . وربّما يثار هنا سؤال وهو: هل انّ النبيّ (ص) صرّح بحجيّة قول عترته ، وانها كحجيّة قوله (ص) ؟ نعم ، انه صرّح بذلك مرّات . فلا نقاش اذن في قضية الخلافة لانّ ملفّها قد طُوي كما يقال ، امّا قضية أخذ الاحكام فقد كانت ولا زالت موجودة وستبقى كذلك لانّها قضية تعيش مع الانسان ومع

متطلبات الحياة ، وهي من ضروريات كلّ مرحلة يعيش فيها جيل من الناس . فلماذا نتعب انفسنا في مناقشة قضيّة الخلافة ، ولا نناقش قضيّة معاصرة مهمّة ألا وهي قضيّة المرجعية ومهمّة الافتاء والقضاء ؟ مع اننا نتمسك باعتقادنا الاستدلالي القويّ من انّ عليّاً هو الخليفة الشرعي بعد النبيّ (ص) ، ولا يمكن التفريط بهذا أبداً ؛ لانّ القضيّة قضيّة حقّ لا مناص منه ، ولو قُدّر للامام (ع) أن يتسلم مقاليد الامور لكانت الاوضاع غير ما هي عليه الآن في العالم الاسلامي ، بيد انّ هذا بحث نظري يتعلّق بالماضي .

امّا بالنسبة الى القضاء ، فلم يكن له الّا الامام علي أيضاً ، وكان هو القاضي بعد النبيّ (ص) ، اما الخلفاء الذين حكموا بعد النبيّ (ص) فلم يتدخلوا في القضاء ، لانّ مهمّته عسيرة ، ويحتاج الى كفاءة علميّة عالية ، ولذلك كان الخلفاء يرسلون خلف الامام لحل كثير من المشاكل والدعاوى القضائية ولا سيما في زمن عمر حيث كان يقول : عليّ يقضي بينكم ، وكان الامام يبادر الى حلّ كلّ معضلة تبرز في هذا الحقل .

لقد كان منصب القضاء منصباً مهمّاً وحسّاساً ، وعندما توسعت رقعة الدولة الاسلامية ازدادت الحاجة الى وجود قضاة أكثر حيث كانت كل ولاية بحاجة الى قاضٍ ، ولذلك فصل القضاء عن منصب الخلافة ، وأصبحت له استقلاليّته إذ كان الخليفة يمارس عمله في حدود صلاحياته المحددة له ما عدا القضاء الذي كان يمارسه قاض مستقل يعيش في مركز الخلافة ، واما بقيّة الولايات والامصار فكان يعيّن لها القضاة من مركز الخلافة ، ولابد أن يكونوا من العدول .. بعد ذلك إزدادت أهميّة القضاء شيئاً فشيئاً حتى برز منصب جديد في القضاء هو منصب (قاضي القضاة) ، واوّل من تسلم هذا المنصب هو أبو يوسف تلميذ أبو حنيفة . وقد ذكرت قبل ليالٍ انّ ابا حنيفة هذا لم يساوم العباسيين . امّا تلميذه أبو يوسف ، وهو من أبرز تلامذته ، فقد ساومهم ، وذلك بحكم منصبه ومسؤوليته في تعيين القضاة وارسالهم الى الولايات والامصار علماً انّهم يجب أن يُرسلوا من مركز الخلافة ، فلابد اذن من وجود منصب أعلى في القضاء ، وهو قاضي القضاة حتى يتسنى له ارسال القضاة ، وكان هذا المنصب يُشبه وزارة العدل في يومنا هذا تقريباً .

كان ابو يوسف أول شخص يتولى هذا المنصب . وهو أول من فصل زي القاضي عن الازياء الاخرى ، حيث كان الزي قبله موحّداً . ولكي يكون هناك امتياز معيّن للقضاة ، قام

باختيار زي مستقل لهم يختلف عن بقيّة الازياء. ولا أدري هل كان هذا العرف سائداً في عصور ما قبل الاسلام أو لا ؟ أي : هل كان زي القضاة مستقلاً ومتميزاً في تلك العصور، أو انّه ظهر لاول مرة في عصر هارون الرشيد ؟ علماً انّ زي طلبة العلوم الدينيّة قد استقلّ وتميّز عن بقيّة الأزياء منذ ذلك العصر.

انّ الموضوع الذي تعرضت له البارحة عن الحركة الدستورية بقي ناقصاً، وعليّ أن أتمّه فأقول في هذا المجال : انّ هناك موضوعين ينبغي علاجهما . الاول : وضع القانون، وقد ذكرت فيه انه لا يحق لأحد وضع قانون يعارض القوانين الالهية، امّا اذا كان مستمداً من تلك القوانين لحل الامور الجزئية في الحياة، فلا مانع في ذلك . الثاني : قُدسية الحكومة في الاسلام، وأنّها بتعيين من الله -جل شأنه- وقد يثار سؤال هنا وهو: اذا كانت الحكومة بتعيين من الله -تعالىٰ-، فلم وضع الاسلام شرائط معيّنة، لو توفرت، قامت الحكومة في ضوئها ؟ نقول : إنّ حق الحكم - في معنىً من معانيه - هو ليس لله أساساً، كما اراد بذلك الخوارج وقالوا : انّ الله يجب ان يحكم بين الناس .. كلاّ .. إنّ هذا الكلام خاطىء، لكن لو كانت الحكومة بمعنى آخر من معانيها، فانه صحيح . اي انّ حق الحكم يكون لحكومة واجدة للشرائط التي وضعها الاسلام . ولو توفرت هذه الشرائط انتفت الحاجة الىٰ التعيينَ المباشر للأشخاص، فيستطيع المفتي، الحائز لها، من الافتاء حتىٰ لولم يعيّن مباشرة من قبل الله -تعالىٰ-، وكذلك الحاكم، يستطيع الحكم اذا كان واجداً لها من دون تعيين مباشر.

و بالنسبة الى وضع القانون فانه يشبه قضيّة الحكومة . اي : علينا أن نتعرف علىٰ موقف الاسلام من وضع القانون، هل انه ترك الاختيار للناس في ذلك أو لا ؟ ومثالنا على ذلك محيط الاسرة، اذ لا يمكن القول انّ الاسلام ترك قوانينها للناس يضعونها كيفما شاءوا . وقد يضع الولد قانوناً يوجب فيه اطاعة والده له ! وقد تضع الزوجة قانوناً توجب فيه إطاعة زوجها لها ! كلاّ، ليس الأمر كذلك .. فان الاسلام، وان لم يضع قانوناً جزئياً تفصيلياً لمثل هذه القضايا، لكنه حدّد من يكون رئيس الأسرة، وما هي الحقوق والواجبات الملقاة على عاتق أعضاء الاسرة الواحدة، واكّد علىٰ انّ الحقّ لربّ الاسرة في وضع قوانين اسرته، ومقرراتها .

وكذلك الأمر بالنسبة الى المؤسّسات الاجتماعية العامّة، فانّ الاسلام لا يرىٰ مانعاً في وضع نظام معيّن لها من قبل الأشخاص الذين أسّسوها، و بذلوا جهودهم في سبيل ذلك، وهم

أصحاب التصرف فيها ، والمالكون لها .

هذا ما أردت ان اقوله ، ولو لم اكن راغباً أن اخوض فيه لكن بناءً على تذكيرات بعض الأصدقاء ، فقد ذكرت هذه التتمّة لموضوع البارحة ، في آخر محاضرتنا لهذا اليوم .

متطلّبات العصر (١)

متطلبات العصر (٢)

قال تعالى: «... أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ...»[١] انّ المواضيع التي تعرضنا لها في الليالي الماضية ترتبط بالتاريخ الفكري للمسلمين حيث تحدثنا عن ظهور تيارات فكرية مختلفة في العالم الاسلامي، وأكّدنا على ضرورة تسميتها بالتطرف أو الجهل، لما كانت عليه من توجهات متزمتة، وتصرفات غير مسؤولة تجسدت في تلاعبها بالدين، ودعمنا حديثنا عنها بأمثلة مناسبة. كما ذكرنا بروز تيارات فكرية اخرىٰ مثّلت الجمود والتحجر بكل ما للكلمتين من معنىٰ، مشفوعة بالامثلة المناسبة أيضاً، علماً انّ كلّ ما ذكرناه يرتبط بالماضي، وكان تمهيداً لنا حتىٰ نتعرف على مسؤوليتنا في الواقع المعاصر، حيث انّ محور محاضراتنا هو قضيّة الانسجام مع متطلبات العصر، والتكيف مع تطوراته، ولا ينبغي ان ننسى ذٰلك عندما يذهب بنا الحديث مذاهب شتّىٰ. فقضيّة الانسجام مع متطلبات العصر، واستيعاب ظروف تطوره هي الاساس. وبما انّه يمكن بروز لونين من التفكير فيها: احدهما: التطرف والجهل، والثاني: الجمود والتحجر، فعلى الانسان المسلم أن يتخذ موقفاً معتدلاً حيال هذين اللونين، من خلال تَربّيهِ القرآني، ومعايشته الاعتقادية والعملية مع القرآن الكريم. وعلينا جميعاً تشخيص مسؤوليتنا، وتحديد مهمّتنا في خضم كل ألوان الجمود والجهل. وبعبارة اخرىٰ: بما انّنا مسلمون، فلا بُدّ أن يكون لنا موقف من متطلبات العصر، وينبغي أن يكون موقفاً صحيحاً صائباً متّسماً بالفضيلة وبعيداً عن

---

(١) سورة الرعد/ ١٧.

رذيلتي التطرف والجمود . وهذا الموقف يتطلب وجود معيار سليم للتشخيص ، و بدونه لا يمكن اتخاذ هذا الموقف ، فما هو هذا المعيار ، حتى نطمئن هل اننا من أهل الاعتدال والامة الوسط التي ذكرها القرآن ، أو من ذوي الجهل والانحراف ؟

ما هو المقصود من متطلبات العصر؟

المقصود هو انّ الزمان في تطور ، وانّ لكل مرحلة من مراحله متطلباتها الخاصّة بها ، و بعبارة اخرى : (لو وضعنا كلمة «طلبات» بدل كلمة «متطلبات» لتيسّر فهم الموضوع أكثر) فلكل عصر طلباته المختلفة ، وتطوراته المتنوعة . ونلاحظ هذا من خلال تماسنا المتواصل مع الحياة ، حيث نحن الآن في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري ، والنصف الثاني من القرن العشرين ، ونرى انّ لهذه الفترة طلباتها التي تختلف تماماً عن طلبات النصف الاول من هذا القرن . ولو تساءلنا عن معنى الطلب ، نقول : اننا نعبّر عنه تارةً بظهور شيء جديد في هذا القرن (فالطلب أساساً يعني ظهور شيء جديد) ، فيكون لهذا القرن طلبه أو تطوره الخاص به ، فكلما ظهر فيه شيء جديد فهو طلب ، والتبعية لمتطلبات العصر أو طلباته تعني بروز ظواهر جديدة في ذلك العصر ، تتمخض عنها طلبات جديدة فيه ، لذلك ينبغي تكييف أنفسنا مع تلك الطلبات أو الظواهر الجديدة ، والقبول بها . فهذا لون من التعبير غن الطلب سأتعرض له عاجلاً .

امّا اللون الآخر من التعبير فيعني طلب الناس في كل زمان ، أي : رغبتهم ، وذوقهم وطبيعتهم ، بمعنى انّ هذه الاشياء تختلف باختلاف كل عصر . ومن نافلة القول أن نذكر انّ لكل زمان ذوقاً خاصّاً به ، وطبيعةً تسود وجوده ، لانّ الامثلة على ذلك كثيرة ، وما نشاهده من موضة الأزياء **والأحذية** لكل فترة الّا دليلاً على ما نقول حيث انّ لكل فترة موضتها الخاصّة بها ، وتبعاً لتغير **الموضة** تتغير رغبات الناس . وهذا يعني انّ عليهم الانسجام مع متطلبات كل مرحلة ، واتّباع رغبة الأكثرية والذوق العام السائد ، وكما قالوا قديماً : (اذا لم ترد ان تفتضح فكن مع الجماعة) فاذا اختارت الجماعة اسلوباً معيّناً في الحياة فلا تشذ عنهم .

هذان لونان من التعبير عن متطلبات العصر ، ولو كانت متطلبات العصر بهذا المعنى فكلا التعبيرين غيرُ صحيحين حيث يكون الانسان أسيراً لمتطلبات عصره . ولو أخذنا المعنى الاول : فهو يعني : ان نكون مع كل ظاهرة جديدة يفرزها العصر الذي نعيش فيه . . .

و يقفز هنا سؤال مفاده : هل انّ كل ظاهرة جديدة صحيحة ، وتصبّ في صالح البشرية وسعادتها ؟ هل انّ البشرية خُلقت بشكل يكون فيه كل شيء جديد في صالحها ، ولأجل تقدمها ؟ هل المجتمع غير معرض للانحراف ؟ ألا يمكن أن تؤدي تلك الظاهرة الجديدة الىٰ الانحراف والتردي ؟ ولم لا يمكن ؟ فانّ ظواهر كل زمان يمكن ان تكون في صالح البشرية ، ويمكن ان لا تكون . ودليل ذلك وجود انسان مصلح ينهض ضد عصره ، وآخر رجعي ينهض ضد عصره أيضاً ، مع وجود الفارق بينهما ، وهو : انّ الرجعي ينهض ضد تقدم عصره ، امّا المصلح فهو ينهض ضد فساد عصره وانحرافه ، فكلاهما ينهض ضد عصره .

اننا نعتبر السيد جمال الدين الافغاني مصلحاً ، وكل العالم يعتبره كذلك ، فهو قد ثار ضد الاوضاع السائدة في عصره ، اي انه لم يخضع لظروف زمانه ، ولم يتأثر بها ، ولم يواكب الجديد الذي ظهر آنذاك ، فلم نسمّيه مصلحاً ؟

اننا نسمّيه كذلك لاننا نرفض المبدأ القائل ان كل ظاهرة جديدة في الحياة صحيحة ، أو أينما كانت الاكثرية فهي على حق وصواب،ونقول - بكل موضوعية - إنّ السّيّد ثار ضدّ الفساد والانحراف اللذين كان يعجُّ بهما زمانه . وفي مقابل ذلك ، انّ كل من طالع تأريخ ذلك العالم الاخباري الذي ذكرته قبل ليالٍ ، يسمّيه رجعيّاً ، اي انه ثار ضد الرقي والتقدّم في عصره .

اذن يمكن أن يكون هناك مصلح ، ويمكن ان يكون هناك رجعي في كل زمان . والحق انّ الظواهر الجديدة التي تبرز في كل زمان : إما تحمل صبغة التقدّم ، أو صبغة الانحطاط . وفي ضوء هذه الحقيقة الموضوعية تنتفى صحّة المقولة الشائعة بوجوب الانسجام مع العصر وتطوراته ومتطلباته . وقد وضحت فلسفة هذا الأمر وسرّه آنفاً ، وقلتُ : انّ الله تعالىٰ فرّق في الخلقة بين الانسان والحيوان بأن جعل الانسان كائناً مختاراً حُرّاً ومبدعاً . وجعل الحيوان كائناً ثابتاً على وتيرة واحدة ، وأودع فيه ما يناسبه من الغرائز، فلا حريّة ، ولا ابداع ، ولا اختيار له . ولا يتقدم أو يتأخر عن نظامه التكويني ، و يظلّ على ما كان عليه منذ خلقته الاولىٰ .

و ينقل التأريخ انّ الانسان عندما تعرف على النحل ثبت له انّ نظام خلاياها الذي كانت عليه سابقاً لا زال قائماً ، وفي وقت كان الانسان متخلفاً من الناحية الحضارية كان هذا النظام موجوداً ، وتقدم الانسان قاطعاً أشواطاً كبيرة ، والنظام على ما كان عليه ، فلا تقدم ، ولا

تأخر، فيه، ولا انحراف نحو اليمين، أو نحو الشمال .. **أمّا الانسان فهو مختار حرّ مبدع .**

قال تعالىٰ: «انّي جاعل في الارض خليفة»[١] .. فسمّىٰ الانسان خليفة، وما أعظمهما من تسمية! ولم أطلق عليه هذا الاسم، ولم يطلقه على النحل أو الحيوانات الاخرىٰ؟ نقول: انّ لهذه التسمية أسبابها الكثيرة، ومن هذه الأسباب، انّ الله ـ تعالىٰ ـ أودع في الانسان قابلية الابداع بحيث يمكنه أن يلعب دوراً مؤثراً في الحياة، و يأتي بجديدٍ ما عهدته، علماً انّ حياته تبدأ من الصفر، ثم يتدرج فيها حتىٰ يُبدع ما يبعث على الانبهار والعجب، و باذن الله ما يبدعه! و بحكم كونه خليفة الله، فلابّد أن يضع حضارته بتخطيطه وابداعه. وما تفننه في انتاج طراز متنوع من السيارات في كل عام الّا دليلاً على تلك القابلية المودعة فيه، و بها يتقدم الانسان، و يصل أعلى درجات الرقي. وما كان هذا الّا لانّه خلق حرّاً مختاراً، ولا يخفىٰ فانّ هذا الانسان نفسه يستطيع ان يتأخر و يرجع الى الوراء إذ لم يكن طريق الرجعة مقطوعاً عليه.

يقول الامام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع): (اليمين والشمال مضلّة والطريق الوسطىٰ هي الجادّة)[٢] ونستشّف من هذا الكلام انّ الانسان يمكنه أن يتقدم، ويمكنه أن يتخلف، و بناءً على هذا فانّ احتمال الانحراف وارد لديه. فلا يمكن إذن الاقرار بكلّ ظاهرة جديدة في الحياة على انّها صحيحة، أو أنّها «تجدد»، اي انّ السير وراء كل ما هو جديد توجّه مغلوط فيه. فالمفروض ان نكون نابهين واعين، ونحسب لكل ظاهرة حسابها، ونقوّمها التقويم الصائب وفق المعايير الاخرىٰ التي سأذكرها، فاذا كانت صحيحة أخذنا بها، واذا كانت خاطئة رفضناها. ولذلك لايمكن أن ننظر الىٰ متطلبات العصر على انّها تمثّل موضة أو رغبة، أو حسّ عام، أي لا يكن معيارنا ذوق الأغلبية من الناس، وتوجهها العام، كما نقرأ في الصحف انّ موضة الازياء وغيرها تمثّل ظاهرة جديدة من ظواهر العصر، ولهذا أقبلت عليها الاغلبية وأخذت بها ..

ما معنىٰ ظاهرة العصر؟ إن الهيروئين يُعَدّ من ظواهر العصر، إذ لم يكن موجوداً في الماضي، وقد ظهر على اثر التقدم العلمي الحاصل في الكيمياء، فهل هو شيء صحيح مقبول؟

(١) سورة البقرة / ٣٠.

(٢) نهج البلاغة / خطبة ١٦.

فحذار اذاً من ظاهرة العصر التي تفرض على المجتمع فرضاً .. وانها لمهزلة ـ حقّاً ـ أن يعتبر الزي النسائي الذي يعلو على الركبة ظاهرة جديدة من ظواهر العصر! ولا أدري فأية ظاهرة هذه ! ؟ ما المقصود بهذه الظاهرة ؟ ولعلّ هناك من يقول : **يجب النزول** عند رغبة الاغلبية ، فهي التي تؤيّد هذا التوجه بالنسبة الى الازياء ، وعالم اليوم غير عالم الأمس ، إذ يرغب ان تكون الازياء بشكلها الحالي ، ولا تكون كما كانت عليه في عالم الأمس .

ولا أدري! فما هو معنى رغبة الاكثرية ؟ وما معنى انّ عالم اليوم يرغب كذا ولا يرغب غيره ؟ انّ هذه الرغبة ـ مجرّد انها رغبة ـ لا تصح ان تكون دليلاً على ضرورة الانسجام مع متطلبات العصر! ولا ادري لماذا عندما يدور الحديث حول قطع يد السارق يعلو هذه الاكثرية الضجيج ، وتقوم قيامتها ! ؟ بحجّة انّ هذا حكم لا ينسجم ومتطلبات العصر! والكل يقرّ انّ السرقة جريمة اجتماعية دنيئة ، ولا بّد من الحيلولة دون وقوعها لما تسببه من مساوىء للمجتمع . **فماذا يقول هؤلاء المتعصرنون** ؟ هل نقف بوجه هذه الجريمة ، أو لا ؟

الكل طبعاً يقولون : يجب الوقوف بوجهها .. فما ذنب الاسلام اذاً وهو يريد خير الناس وسعادتهم وأمنهم ؟ انّ ذنبه الوحيد هو انه وضع قانوناً لعقوبة السارق ، قد أثبت جدارته من الناحية العملية حيث انه **أنجع** قانون لاستئصال السرقة . و يتذكر الحجّاج جيّداً انّ قطّاع الطرق في صحراء الجزيرة العربيّة كانوا يداهمون الحجيج و يتعرضون لقوافلهم قبل خمسين سنة ! وكان اللصوص لا يحجمون عن نهب قافلة تضمّ خمسمائة حاج ! ! ولكن عندما قطعت اربع أيدٍ من أيدي هؤلاء الجناة ساد الأمن في ربوعها .

فهل مثل هذه الأحكام المفيدة للبشرية ، يرفضها عالم اليوم ؟ وهل هناك بديل أفضل لاجتثاث جريمة السرقة من أساسها ؟ ولو كان هناك بديل أفضل ، وتمخض عن نتائج أحسن فاننا نأخذ به ، ونقبله بكلّ رحابة صدر . و يطرح المعترضون دعوة تنادي بضرورة تربية السارق أولاً ، ونحن نتفق مع هذه الدعوة حيث انّ السارق ينبغي ان يخضع لتربية خاصّة تؤثّر فيه ، لكن حديثنا يدور حول الذي لم تؤثّر فيه التربية . ونقول : ما هو الحل لمثل هذه النماذج ؟ وهل آتى التعليم والتربية اكلهما في عالم اليوم للوقوف بوجه الجريمة ؟ ولو حقق التعليم والتربية أهدافهما لما تعد هناك حاجة للعقوبات كليّة ، فلم لا يكون ذلك ؟ وإن دلّ هذا على شيء ، فانّما يدلّ على انّ التربية والتعليم غير قادرين وحدهما على الحيلولة دون وقوع الجريمة . وقد

أحصى تقرير خبري رسمي نشر في العام الماضي في المانيا الغربية بضع وثمانين سرقة مسلحة على المصارف خلال سنة واحدة . وقد بلغ الأمر في اميركا حدّاً فتحت فيه مدرسة خاصة لعصابات السرقة ، لتعليم المنتمين اليها فنون السرقة !

ولا أدري ما هو العلاج المطروح في العالم هذا اليوم للحيلولة دون السرقة ؟ ولا شيء هناك الّا استهجان هذا العمل الاجرامي ! أو التنديد به ! فما جدوىٰ ذلك ؟

أتذكر قصّة ذلك المريض الذي كثر الجدال حول اختيار الطبيب المناسب له . وفي خضم ذلك الجدال قال أحد الحاضرين : أعرف طبيباً هو أفضل من رأيت من الاطباء في عمري . قالوا له : كيف ؟ قال : ابتلي أحد الاشخاص بمرض عانى منه طويلاً ، فهرع اليه الاطباء من الدرجة الاولىٰ . و بذلوا جهوداً كثيرة في علاجه من خلال تشكيل فريق طبّي ، وإعطائه الوصفات المتعددة ، وتبديل وصفة بوصفة اخرىٰ أحسن منها .. وكل تلك الجهود ذهبت سُدىً علماً انه كان يطرأ عليه تحسن أحياناً . بعد ذلك وصف أحد الاشخاص طبيباً فحلبوه له . ولمّا حضر الطبيب عنده ، وفحصه ، قال بجرأة نادرة : لم يفهم اولئك الاطبّاء علّة هذا المريض . وقد أخطأوا في التشخيص ، وكان كلامهم فارغاً ، بعدها أمر فوراً بأخذه الى المستشفىٰ ليرقد هناك من أجل إجراء عملية جراحية له . و بالفعل كان ما أراد ، ورقد في المستشفىٰ ،ولم تمر ساعة واحدة على رقوده حتىٰ اجريت له العملية ، وعندها صمت ولم ينبس بنبت شفة .. بعد لحظات سأله أحد الحاضرين عن حالة المريض ، فأجاب : انّه قد مات ، فقالوا : بعد كلّ هذا الكلام ، وكل هذا المدح والثناء يموت المريض ! فالذي يظهر ان ذلك الشخص المسكين وقع تحت تأثير ذلك الطبيب ، واغتبط دون ان يفكّر بعاقبته ، و بعد ذلك جاء ذلك الطبيب وأنهىٰ عمله بكل حزم ثم ذهب ! فما هي الفائدة المرجوّة من تعليم الطرق والاساليب دون التفكير بالنتائج ؟ وعالم اليوم يستنكر قطع يد السارق ، فما الحيلة ؟ انّ من الاشياء التي لاينبغي للمسلم أن يقع تحت تأثيرها هو الاعجاب ، أي لا يعجب بأعمال الاكثرية و ينبهر بها ، ونعم ما قاله الامام علي ـ عليه السلام ـ في هذا المجال «لا تستوحشوا في طريق الحق لقلة أهله ...»[1] اي انه يريد ان يقول : كونوا أصحاب شخصية ، وليكن لكم

---

(١) نهج البلاغة خطبة ١٩٩ .

استقلالكم ورأيكم حيث انّ فقدان الشخصية هو الذي قصم ظهور الناس . ولا أدري لماذا عندما يرىٰ شعب من الشعوب نفسه انه أقليّه ، و يرىٰ الاكثرية متساقة وراء موضة من الموضات أو فكرة من الافكار ، يقلّدها تقليداً أعمىٰ ، ويحتقر نفسه ، ولا يجرأ أن يُخطّأ تلك الاكثرية التي من الممكن أن تكون على خطأ ، و يكون هو على صواب ! ؟

وأتذكر قصّة اخرىٰ شاهدتها بنفسي حيث كنتُ حاضراً في جلسة من الجلسات التي أُقيمت في إحدىٰ المناسبات ورأيت أحد العلماء الكبار مشغولاً في حساب الحروف الابجدية ، وما تمالكت نفسي فانتقدته ، وطلبت منه عدم الانشغال بمثل هذه الأعمال التي لا تُجدى ، وما هي جدوىٰ عمل تُحسب فيه حروف الآية الكريمة « إنّا من المجرمين منتقمون » [1] لانطباقها على ابي بكر وعثمان مثلاً ، أو على اسم مدينة واسم حسن في آن واحد ، فيكون حسن ساكناً في تلك المدينة حتماً . ؟ وقلتُ : ان هذه خزعبلات لا أساس لها ، فاعترض عليّ أحد الحاضرين في الجلسة ، وكان انساناً فاضلاً جدّاً ، فلم أقبل اعتراضه ، فردّ عليّ بانّه هو أيضاً شاهد مثل هذه الحادثة بحضور أحد العلماء الكبار ، ونقل تلك الحادثة قائلاً ، في سنة من السنين كنتُ في احدى المدن ، وحضرتُ جلسة كان فيها علماء كبار (وذكر اسماءهم) فجاء شخص كان قد حسب حروف الآية الكريمة : « انّ الارض يرثها عبادي الصالحون » [2] حول ظهور الامام المهدي ـ عليه السلام ـ فانطبقت على سنة (١٣٦١) الشمسية ، أيّ : يكون ظهوره في تلك السنة .

هذه ـ واقعاً ـ أباطيل لا ينبغي أن نشغل انفسنا بها ، ونضيع أوقاتنا دون فائدة .

ويمكن ان يكون هناك تفسير آخر لمتطلبات العصر يقول : انّ متطلبات العصر تعني الحاجات الحقيقية في كل عصر ، والتي هي في تغير مستمر ، فاذا ما احتاج الانسان شيئاً فهذا يعني انه يطلب شيئاً .

كلٌّ يعلم انّ الحاجة هي محور النشاط البشري . اي انّ الله تعالىٰ خلق الانسان مفطوراً على حاجات تلازمه ، مثل الحاجة الى الطعام ، والحاجة الىٰ اللباس ، والحاجة الى السكن ،

---

(١) السجدة / ٢٢ .

(٢) الانبياء / ١٠٥ .

والزراعة ، والخياطة ، والزينة ، والنقل ، والسفر ، والعلم ، والوسائل الفنية ، وما الى ذلك من الحاجات المتنوعة . فالحاجة قضيّةٌ جديّة لازمة اي : ان الانسان مجبول على السير وراء إشباع حاجاته ، ولا بدّ له من ذلك ، واذا لم يفعل ، يتعرض الى نكبات الدهر .

ولو أراد شخص ان يعبّر عن أمثال هذه الامور بالحتمية التاريخية ، فليُعبّر . حيث انّ هناك جملة من الحاجات ثابتة لا تتغير ، ولا مناص منها لكلّ انسان ، فلا بُدّ له من نظامٍ لاشباع حاجاته الروحية ، ولا بد له من نظام اخلاقي لتهذيب نفسه ، وهذه امور لا يختلف فيها عصر عن عصر آخر ، كذلك لا بد له من نظام يوجّه علاقاته الاجتماعية ، ونظام يوجّه علاقاته مع الله تعالىٰ ، ومع الارض ، والطبيعة ، والنبات ، والحيوان ، و يبيّن ما هو حقّ الانسان على النبات ، أو حقّ النبات عليه .. هذه كلها واحدة في كل زمان ، وثابتة لا تتغير ، بيد انّ الانسان يحتاج الىٰ عدد من الوسائل لتأمينها . وهذه الوسائل تختلف في كل عصر لانها من إبداع الانسان نفسه ، ولا علاقة للدين بها (طبعاً الوسائل الشرعية) حيث انه يعيّن الهدف ، وكيفية بلوغه وتحقيقه . امّا الوسائل المتبناة في تحقيق حاجات الانسان فهي من مهمّة العقل ، حيث يؤدّي دوره في هذا المضمار تدريجياً من خلال تفننه في ابداع الوسيلة الافضل والأنسب . والانسان بصفته المخلوق الأتم والاكمل (على حد تعبير العلاّمة الطباطبائي) يحاول تحقيق هدفه عن أيّ طريق يكون سهلاً ، وأقلّ نفقة ، أي لا يكلّف كثيراً . وعندما تتغير الوسائل الضامنة لتأمين حاجات هذا الانسان تبعاً للتطورات الحاصلة في كل عصر ، فان متطلبات العصر تتغير أيضاً .

وهذه حقّاً هي متطلبات العصر ، ولا يخطر على البال انّها تمثّل ظاهرة محضة أو رغبةً أو اعجاباً أو موضة قط . انها حاجات حقيقة تفرض نفسها ولابدّ من إشباعها ، وموقف الاسلام منها موقف ايجابي ، إذ لا يقف حائلاً دون تحقيقها ، لا سيما وهي حقيقية واقعية .

وانما يقف الاسلام بوجه الهوس والتعصرن اللامعقول . ولا يدين الاّ من يبقىٰ متخلفاً عن ركب الحضارة والمدنية التي فيها خير البشرية ونفعها ، من أمثال من يفضّل المحراث علىٰ الجرّار في حراثة الارض مع انّ الاخير أفضل بكثير من المحراث ، ولا مانع ـ من وجهة نظر اسلامية ـ في استعمال تلك الآلة ما دامت هي الافضل . ولا يدين الاّ التهتك والخلاعة والميوعة والمجون ، و يقف ـ بكل حزم ـ بوجه كل لون من ألوان الفساد الاخلاقي والاجتماعي ،

و يرفض بشدّة إرتداء الزي الذي يعلوعلى الركبة مثلاً ، أو الافلام المثيرة والهدّامة ، فهذه ليست حاجات واقعية ضرورية ، كما لا يمكن القبول بها كظاهرة جديدة صحيحة من ظواهر العصر .

ولا يخفىٰ فان الوسيلة المستعملة في تأمين الحاجات المتنوعة ، يمكن أن تستخدم في تحقيق أهداف مشروعة ، ويمكن أن تستخدم في أهداف غير مشروعة ايضاً . فهي خرساء ولا موقف لها ، مثل : مكبّرة الصوت التي تقوم بتقوية الصوت حتىٰ يصل الى أبعد حدّ ممكن . فهي تقوم بواجبها فيما اذا كانت الأهداف مشروعة أو غير مشروعة ، فلو كان الهدف ذكر الله والدعوة الى الصلاة ، تقوم بواجبها ، ولو كان الهدف الغناء والدعوة الى الكفر، تقوم بواجبها أيضاً .

فالمؤاخذة علىٰ من يستعملها ، وعلى هدفها . وكذلك المذياع فهووسيلة للبث الىٰ أبعد مدىٰ ممكن فهو ـ في حدّ ذاته ـ وسيلة ، يمكن الاستفادة منها في مجال الخير كبث القرآن الكريم ، ويمكن أن تكون في مجال الشر كبثّ الاغاني وغيرها ، فهوبنفسه لا يتكلم الّا اذا كان هناك من يبثّ فيه . وكذلك التلفاز علىٰ نفس تلك الشاكلة . ولو اعترض أحد على أمثال هذه الوسائل التي توصل الانسان الىٰ أهدافه الصحيحة ، ورفض استخدامها ، في وقت يأتي فيه شخص آخر و يستخدمها في أهداف غير مشروعة وغير صحيحة مع امكان استخدامها في أهداف مشروعة وصحيحة من قبل ذلك الشخص الاول ، فهو محكوم بالخيبة والخسران . ومثله كمثل المسلم الذي يجاهد في سبيل الله مع آخر يقاتل في سبيل الطاغوت بكل ألوانه ، وهذا يستخدم الاسلحة الحديثة من دبّابة ومدفع رشاش ومدفع هاون ، في حين يعرض الاول عن هذه الاسلحة ، و يلجأ الىٰ السيف والرمح وأمثالهما من الاسلحة القديمة ، فهذا مُدان حقّاً ، وهدفه مدان أيضاً ، ولا يلقى الّا الخزي والاستهزاء لانه أدان نفسه بما جنت يداه .

هذا هو معنىٰ متطلبات العصر أو مطالبه .. ولا ينبغي الخلط بين متطلبات العصر ورغبة الناس واعجابهم ، أو الظواهر التي تبرز في كل عصر . انّ الحاجات الاولية للانسان ثابتة ، امّا الحاجات الثانوية التي توصل الانسان الىٰ حاجاته الاولية فهي متغيرة . فالانسان العاقل **يكيّف** نفسه مع متطلبات العصر التي هي في تغير، ولو تعنت ، ولم يواكب تلك المتطلبات فلا يجنى غير الخيبة والخسران . و يفقد شخصيته إذ لا يسمع كلامه أحد ، ولا يقام له اي وزن واعتبار إذ يرى المذياع يصل صوته الى ثلا ثة وعشرين مليون نسمة في آن واحد ، ويسمع

طفله الذي عمره خمس سنوات يردّد أغاني ذلك المذياع ، وهولا زال على تعنته وتزمته .

انّ العالم الذي اخترع جهاز التسجيل لم يدرفي خلده انه سيستعمل لتسجيل الاغاني التي تفسد أخلاق الناس ، بل اخترعه لتسجيل الكلمات والخطب ، ووقائع الاحتفالات والندوات والمؤتمرات حتىٰ تصل الىٰ اقصى نقاط المعمورة ، فليس الذنب ذنبه ، أو ذنب جهازه ، بل الذنب ذنب من يستعمله في غيرالطريق الصحيح ، أوذنب من لا يستفيد من هذا الجهاز العظيم لتحقيق أهدافه الصحيحة والسليمة .. وكذلك الامر بالنسبة الىٰ الفلم ، فعندما ظهرت الافلام الىٰ عالم الوجود لم يكن الناس على درجة من الوعي والفطنة ليدركوا انّ هناك من سيستخدم هذه الافلام لأهداف فاسدة هدّامة هي أسوأ من الهيروئين واكثرمنه تخديراً . فما أشجع من يقف حائلاً دون هذه الافلام الفاسدة ! وهل هناك أفضل من هذا العمل ؟

واما من لم يقدرعلى ذلك فلينافس ، أعني فلينافس هذه الافلام الهدّامة بأفلام بنّاءة مفيدة ولكن مع الاسف لاينافس الىٰ أن يتصدىٰ بعضٌ في عرض فلم عن الكعبة في نفس المكان الذي تعرض فيه الافلام الماجنة الخليعة ، وهذا عيب ناشيء عن تقصيراولئك الذين لم يفكّروا مسبقاً بانّ الافلام يجب ان تدخل الى حياة الناس في مختلف شؤونها ولا سيما الدينية منها . و ينبغي المبادرة الىٰ عرض الافلام الهادفة المفيدة في دار خاصّة للتبليغ قبل ان يبادر الآخرون الىٰ عرض افلامهم المبتذلة في تلك الاماكن . واؤكّد قولي انه انْ وقف أحد دون عرض الافلام المبتذلة ، فذلك أفضل ، والاّ فالمبادرة والتصدي لعرض الافلام المفيدة هوالبديل علماً انّ الافلام المفيدة لاتقتصرعلى عرض الكعبة أو حجّاج بيت الله الحرام ، بل توجد أفلام اخرىٰ كثيرة وجيّدة تستطيع أن تؤدّي دورها في كسب نصف الشباب أو اكثرالىٰ خطّ الهداية والرشاد ،وهل هناك فيلم أفضل من فلم يعرض كيفية تكوّن الجنين ، أو كيفية تفتح الاوراد ، أو حركات القلب ، أو ما شاكل ذلك ؟ واني أجزم انّه لوعرضت مثل هذه الافلام فسيكون لها تأثيرها البالغ ، وما هي الاّ مواد مفيدة من درس التوحيد ، ولو تحقق هذا ، وتحدثنا حول متطلبات العصر ، فسيقول الآخرون : انّ هذا الفلم دليل على ذلك ، و يبقى الفلم بريئاً لانه وسيلة سمعية بصرية من وسائل التعليم .. امّا الجهل والعناد فهما مرضان فتّاكان ، ولهما تأثيرات سيّئة حتىٰ على الدين نفسه ، ولعل هناك من سمع بضجّة البعض حينما ظهرت مكبّرة الصوت الى الوجود ! إذ ينقل الشيخ فلسفي : انّي أول خطيب منبري استعمل مكبّرة الصوت

في الخطابة ، و يضيف : وقد عانيتُ كثيراً في البداية ... وحدثت ضجّة ضدّي ، واتذكّر مرّةً استعملتُ فيها الجهاز، وكان دوري في الخطابة بعد أحد الواعظين الذي عندما صعد المنبر ووضعت اللاقطة أمامه ، قال : ارفعوا بوق الشيطان عنّي ، وكان ازدحام الحاضرين شديداً لذلك لم يتسن لهم سماعه والاستفادة منه . . ولمّا ارتقيتُ المنبر قلتُ : عليّ ببوق الشيطان !

لا أدري الى ايّ مدىٰ يصل الجمود والتعنّت ؟ ولم هذا الجمود ؟ ولم هذا التزمت ؟ وما أدرىٰ هؤلاء كم يضر الدين تصرفهم هذا ؟ وكم يؤثّروا على سمعته ؟ فمن الذي قال ؟ انّ آلة التكبير هي بوق من أبواق الشيطان ! ؟

متطلّبات العصر (٢)

متطلبات العصر(٢)

قال تعالى: «إنّ شرّ الدّوابّ عند الله الصمّ البكم الذين لا يعقلون»[1].

تعرّضنا البارحة الى موضوع متطلبات العصر، و بيّنا معنى هذه المتطلبات، مع نبذة من الظواهر الجديدة التي تبرز في كل عصر، والاتجاهين المطروحين منها: الاتجاه الذي يتفق مع متطلبات العصر،ويقرّبكلّ ظاهرة جديدة، و يريد من الآخرين القبول بها، والآخرالذي يرفضهاو يعتبرها توجهات خيالية واهية. ولكي يكون المؤمنون الهادفون على بصيرةٍ من أمرهم فيما اذا واجهوا أصحاب هذين الاتجاهين، و يتخذوا موقفاً سليماً منهم بفتح باب النقاش الفكري الهادىء من أجل توضيح الموضوع بصورة صحيحة .... فاني اذكر خلاصة لموضوع أمس.

لقد ذكرتُ انّ أحد التفسيرين المطروحين لمتطلبات العصر وهو الظواهر الجديدة التي تبرز في هذا العصر أو ذاك، فلو برزت ظاهرة معيّنة في عصر متأخر عن عصر سابق فيجب القبول بها باعتبار انّها جديدة للعصر المتأخر، وعلى هذا الأساس يتم تأييد كل ظواهر العصر الجديد، وهذا ما يطلق عليه اسم التجدد أو الرقيّ أو التقدم.

هذا اتّجاه خاطىء، وتصور مغلوط فيه وذلك لانّ ظواهر كل عصر جديد تنقسم الى قسمين: الاول: الظواهر التي يمكن أن تنبثق عن نوع من أنواع الرقي والتقدم. الثاني: الظواهر التي يمكن ان تتمخض عن الانحراف. وهذان الامكانان موجودان في كل عصر،

---

(١) سورة الانفال / ٢٢.

و بعبارة اخرىٰ : لايمكن الاقرار بكل شيء على أساس انه جديد ، ولا رفض كل شيء على أساس قدمه ، فلا الجديد دليل على الجودة أو الرداءة ، ولا القديم كذلك .. و يلغىٰ وفق ذلك مقياس الجودة والرداءة على أساس الحداثة والقدم . وربما يكون الشيء جيّداً ، و ينبغي الاخذ به في حين هو قديم ، وربما يكون رديئاً و ينبغي رفضه في حين هو جديد . فليس كل جديد مستحسناً ولا كل قديم مستهجناً .

هذا أحد التفسيرين لمتطلبات العصر ، اما التفسير الآخر فيرى ان المتطلبات تعني ذوق الناس ورغبتهم ، و بعبارة اخرىٰ تعني مطالب الناس . فالناس يرغبون في شيء ، ولا يرغبون في آخر. فهل على الانسان أن ينسجم مع متطلبات العصر أو مع أذواق الناس ورغباتهم ؟

وهذا أيضاً اتجاه خاطىء لانّ اذواق الناس ورغباتهم يمكن أن تكون صحيحة ، ويمكن ان لاتكون كذلك . وكم حدث ان كثيراً من الناس أصحاب أذواق مريضة ، واتجاهات منحرفة في وقت يمثّلون فيه غالبية المجتمع ؟ وهذا ما تعرضنا له أيضاً .

و بالاضافة الىٰ هذين التفسيرين ، هناك تفسير آخر لمتطلبات العصر ينبغي التأمل فيه ، والقبول به ، وهذا التفسير يقول : انّ متطلبات العصر تعني حاجات العصر. فالانسان يحتاج الىٰ جملة امور هي في عداد الحاجات الثانو ية التي تنبثق من الحاجات الاساسية من أجل بلوغ الأهداف التي لا بد منها في كل عصر ، وهذا ما يتطلب منه البحث عن وسيلة لتأمين تلك الحاجات . ولا يخفىٰ فالوسائل في تطور ، وأغلبها يسير نحو التكامل . والتطورات الحاصلة في المجتمع البشري من هذه الناحية تؤثّر على متطلبات العصر في ضوء معناها الأخير أي : حاجات العصر ، فتطوّرها معها .

وهناك مثال يوضّح لنا هذا التفسير أكثر وهو : انّ الانسان يحتاج الى التدفئة في فصل الشتاء ، وما دام فصل الشتاء موجوداً فهذه الحاجة قائمة ، ولا تختلف الّا وسائل التدفئة التي يستعملها ، والتي تتفاوت من عصر لآخر. ففي البداية كان الفحم هو الوسيلة الوحيدة للتدفئة ، وكان له دوره الأساس في ذلك ، لهذا كان ذا قيمة خاصّة بلغت حدّاً كان الشاعر «نسيم شمال» يخاطبه : «ايّها السيّد فحم » ، «ايها الملك فحم » ، «أيّها الأمير فحم » ! ولكن هل كانت للفحم اصالته ؟ وهل كان في عداد الحاجات الاولية للانسان ؟ لا ، اذ انّ الفحم كان

مجرد وسيلة لتدفئة الانسان في عصر من العصور، ولم تعد له **قيمة** تذكر بعد اكتشاف النفط الذي هو أفضل من الفحم بكثير من حيث رخصه وسهولة إعداده . فالفحم أو النفط حاجة ثانوية للانسان إذ الحاجة الآوليّة والاساسيّة هي التدفئة .

فهذا مثال بسبط يبيّن لنا انّ حاجات العصر في تبدل وتغير دائمين . وهناك أمثلة ونماذج اخرىٰ يلحظ من خلالها التغيير الحاصل في حاجات الانسان ، بالشكل الذي تحل فيه وسيلة أفضل وأزهد وأيسر وأقوىٰ ، مكان وسيلة اخرىٰ . فهذه واقعاً هي متطلبات العصر التي لا بدّ لكل عاقل وعالم أن يقرّبها .

هذه خلاصة لحديث أمس . أمّا حديث اليوم فانه يدور حول الانسان ، ووجود نوعين من الحاجات له ، الاول : الحاجات الثابتة ، الثاني : الحاجات المتغيّرة .

البعض يقولون : ان جميع حاجات الانسان متغيرة . ولا توجد هناك حاجات ثابتة . اي لا وجود لشيء في العالم يحتاجه الانسان في جميع مراحل حياته ، و يقولون : انّ كل شيء مثل الفحم .

فيأتي عصر يحتاج اليه الانسان ، و يأتي عصر آخر لا يحتاج اليه . وبما انه لا يحتاج اليه في هذا العصر فسينتفى وجوده بحكم الحتمية التاريخية شاء الانسان أم أبىٰ . وهؤلاء الذين يتشدقون بهذا الكلام يحكمون على الماديات والمعنويات بنفس الحكم من حيث التغير لا الثبات . وعندما يناقشون موضوع الدين ، فانّ حسّاسيتهم منه تصل الى حدٍ يكونون فيه غير مستعدين لمناقشة الدين فيما اذا كان وجوده ضرورة أو لا ! و يدّعون ان لا ضرورة هناك تقتضي الخوض في هذا الموضوع ، لانّ الدين ظهر في عصر كان الناس بحاجةٍ اليه ، وبما انّ هذه الحاجة متغيرة ولا تظل على حالها ، لذلك يرتفع وجوبها تدريجياً ، ولا تعد هناك اية ضرورة لوجودها ، واذا ما تحقق هذا فلا يبقى لها أي وجود أبداً شاء الانسان أم أبىٰ . وعندها يكون الدين كالفحم إذ يصادر بحكم عدم الحاجة اليه . وقد بذل أصحاب هذه الافكار قصارىٰ جهدهم من أجل تجميل افكارهم الساخرة هذه ، واظهارها بمظهرٍ برّاق كي تجذب الآخرين ، وهذا التوجه هو نفس توجه أعضاء حزب توده وأنصاره ، وغيرهم من الماديّين . يقولون : لا وجود لحاجة ثابتة في العالم ، وكل شيء في تطور . وحاجات الناس تتطور تبعاً لتطور العصور ، وقد اثّروا بكلماتهم الجوفاء في مئات بل آلاف من الشباب فحرفوهم وسمّموا عقولهم . ولا بدّ لنا هنا

من توضيح هذا الموضوع .

انّ هذا القانون العام يتخذ من حيث الاصل طابعين هما : الطابع الفلسفي ، والطابع الاجتماعي . فمن حيث طابعه الفلسفي : انّ كل شيء في العالم متغير وليس له بقاء ، ومن حيث طابعه الاجتماعي : انّ كل شيء في المجتمع وليد الحاجة ، وبما انّ الحاجات الاجتماعية في تطور ، لذلك يكون بقاء الاشياء مؤقتاً .

اما الطابع الاول ، هل هو صحيح أو لا ؟ نقول : هو بشكل مطلق غير صحيح ، اي : ان كل شيء في تطور ، غير صحيح ، و ينطبق هذا فقط على الماديّات ، والعالم الماديّ ، اي لو قلنا : انّ جميع الاشكال المادية لهذا العالم في تطور ، فهذا صحيح اذ لا يتسنىٰ لنا أبداً العثور على شيء يحمل المواصفات الماديّة ، وهو باق على حاله منذ الازل ، وسيبقىٰ على هذه الحال في المستقبل . وهل الجبال التي نشاهدها أو البحار التي نلاحظها هي على حالها منذ الازل ؟ وستبقى على نفس الحال في المستقبل ؟ لا ، فلا بدّ من تطور قد طرأ و يطرأ عليها . وقد التفت الحكماء المسلمون منذ القديم الىٰ هذه الآية الكريمة : «وترىٰ الجبال تحسبها جامدة وهي تمرُّ مرّ السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء ...»[١] فذكروا انها تخصُّ التطور الحاصل في جميع الاشياء الماديّة ، بحكم قرينة : «صنع الله الذي أتقن كل شيء» .

ولا يخفىٰ فانّ الجبال ذكرت هنا كمثال ، والمقصود جميع الاشياء ، إذ تحمل ذات الصفة التي عليها الجبال . وقد قال أحد الحكماء قديماً : «لا يغسل المرء في نهرٍ مرّتين» وقصده هو لو اغتسل الانسان هذا اليوم في نهر ، وذهب اليه غداً ليغتسل ، فلا يجد الماء ماء الأمس ، ولا يجد نفسه شخص الأمس ، فاذاً لا يتسنى لكل أحد أن يغتسل في نهر مرتين أبداً . ولا نقاش في الحقيقة القائلة : ان الاجسام و بقيّة الاشياء الماديّة في تطور . وتدل الدراسات الجغرافية التي أجريت على بحر الخزر الواقع في محافظة مازندران انّ امتداداً ملحوظاً قد طرأ على ساحله باتجاه الطرف الآخر منذ أربعين سنة الى الآن . وهناك قرائن علمية أثبتت وجود طريق بري كان يربطنا مع الولايات المتحدة ، و بسبب التطورات التدريجية الحاصلة في الارض فقد حالت المحيطات الموجودة في العالم هذا اليوم بيننا و بينها .فلا البحار ،ولا السهول، ولا البراري ، ولا

(١) سورة النمل / ٨٨ .

المناطق تبقى على نفس حالها الذي كانت عليه منذ القديم . وطهران الحالية تختلف عن طهران قبل خمسين سنة من حيث التقلبات الجوية حرّاً و برداً . فلا وجود الآن لموجات البرد القارص الذي كانت تتعرض له طهران قديماً ، وما يدرينا لعلّها تتبدل الى منطقة حارّة في المستقبل . وربما تتبدل المنطقة الحارّة هذا اليوم الى منطقة باردة غداً .. وهكذا فكل شيء في الدنيا يسير نحو الشيخوخة والهرم حتى الجزيئات الصغيرة التي تتكون منها الذرّة فانها تمر بمراحل التوالد والتكاثر والشباب والشيخوخة . وقد ثبت علمياً انّ لها اشعاعات تتكسر وتتحطم بالتدريج ، بعدها تظهر جزيئات اخرى تكوّن ذرّة جديدة ، وهكذا .. إذاً لابقاء لجسم مادي في العالم على وتيرة واحدة . ولا تختلف الاجسام المادية في انطباق هذه الحقيقة عليها الاّ من حيث وقت بقائها وطول أعمارها فقط إذ ربّما يكون عمر بعضها قصيراً ، في حين يكون عمر البعض الآخر طويلاً .

قال تعالى : «وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد افأن متَّ فهم الخالدون»[1] وقال تعالى : «كُلُّ نفس ذائقة الموت ..»[2] وهاتان الآيتان توضّحان بما لايقبل الشك انّ كل شيء يسير نحو التغيير والزوال وليست المسألة الاّ مسألة وقت فقط ، اذ البعض يعيش أكثر في الحياة ، والبعض الآخر لايعيش الاّ قليلاً ، ومهما عاش الاثنان فلابّد من الموت . ولو فسّرنا النفس في الآية الثانية بالذات فهي تعني ان جميع الاشياء تسير نحو الفناء . ولكن هل انّ عبارة «كل شيء في تطور مستمر صحيحة ؟ لا ؛ لانّه يمكن ان يكون في العالم شيء متغير ولكن ليس من جنس الاجسام المادية كالروح الانسانية مثلاً . فجسم الانسان يكبر و يهرم و يتغير ثم يفنى ، ولكن روحه هي ليست كذلك .

وقد ثبت علمياً ان جسم الانسان يتكون من احياء مجهرية صغيرة هي الخلايا . وهذه الخلايا قسمان : خلايا عصبية ، وخلايا غير عصبية . وكان القدماء يقولون : ان الخلايا غير العصبية تبلى وتتجدد ، وهذا ما ثبت في عصرنا الحاضر . اما بالنسبة الى الخلايا العصبية ، فانهم يقولون : انّ الخليّة نفسها لاتموت ، ولكن يتبدل شكلها وقالبها .

---

(١) سورة الانبياء / ٣٤ .

(٢) الانبياء : ٣٥ .

اذا اخذنا هذا المسجد بنظر الاعتبار، وقلنا: انه لو تمّ تغيير جميع اجزائه من سقف، وارضيّة، وجدران، فانّ الذي يراه بعد هذا التغيير، يتصور انه هو نفسه المسجد الذي رآه فيما مضىٰ، في حين لم يبق من المسجد القديم جزء واحد. والواقع هو هكذا حيث انّ هذا المسجد هو ليس ذلك المسجد الذي كان سابقاً. ومثل جسم الانسان كمثل المسجد إذ لو تأملنا فيه بدقة فاننا نلاحظ انّه يتغير عدّة مرّات علىٰ امتداد عمره، وكم بلي منه، وكم تجدد، وكم تغير. هذه حقيقة لا مناص من الاذعان بها لكن لا بدّ من القول انّه في الوقت الذي يتعرض فيه جسم الانسان للتغيير مراراً، تظل شخصيته كما هي دون تغيير حيث انّ في جسم الانسان حقيقة ثابتة كانت ولا زالت، هي التي تكوّن شخصية الانسان وما حكم المتغيرات الطارئة الّا كحكم الملابس التي يرتديها الانسان.

ينقل انّ لابن سينا تلميذاً اسمه «بهمنيار»، كان على ما يبدو من شمال ايران، وكان في البداية مجوسيّاً ثمّ أسلم، و يعتبر من فضلاء طلاّب ابن سينا. وله مناقشة حول الزمن يقول فيها: بما انّ الزمن هو الشاخص لكل شيء، اي: انه أحد أجزاء ذات كل شيء، فانّه في تطور بحكم تطور الاشياء، وكان ابن سينا لا يتفق معه في هذا الرأي. وحدث مرّة انْ سأل بهمنيار اُستاذه سؤالاً، فلم يجبه. فاستفسر منه مستغرباً عن سبب عدم ردّ الجواب. فأجابه ابن سينا بقوله: خذ الجواب ممّن سألته! فقال له: انا سألتُ منك، ولم أسأل أحداً غيرك. وهنا أجابه ابن سينا: إنّك سألتَ من شخص كان موجوداً، والآن ليس له وجود، لانّه تطور مع الزمن، فلم يعد له وجود، والسائل هو الآخر ليس له وجود، اذاً ممّن تريد الجواب؟ فقبل وسلّم بانّ شخصية الانسان حقيقة ثابتة. وان شخصيّتك واحدة حيث انّك تلميذي.

نحن الآن لا نتعرض للروح في بحثنا هذا، وما ذكرناه من موضوع كان لا ثبات بطلان المبدأ الفلسفي القائل بتطور كل شيء وعدم ثباته، ومن المسلّمات في نقضه قضيّة الروح.

وهناك موضوع آخر وهو: انّ كل شيء في تطور أمر، وانّ القوانين في تطور أمر آخر.

انّ القانون يعني ذلك المبدأ، وذلك الناموس الذي يجري في ضوءه تطور الأشياء. ونحن نقول: انّه لا يبقىٰ شكل من الاشكال في العالم على حاله، لكن، هل انّ القانون الّذي يخصّ شكلاً من الاشكال يتطور أيضاً؟ لا، لانّ القانون بما هو قانون ثابت. فمثلاً دارو ين يعتقد انه قد اكتشف سلسلة من القوانين التي تتعلق بالكائنات الحيّة، وقال: انّ هذه

الكائنات في تطور وتكامل . ولنا أن نسأل هنا ونقول : اذا كانت تلك الكائنات في تطور وتكامل فهل انّ قوانين داروين نفسه هي في تطور وتكامل ؟ اي : هل انّ مثلها كمثل الطفل الصغير الذي يكبر ، أو يتطور نوعيّاً على حدّ تعبير داروين إذ يقول : انّ الانواع تتطور تطوراً نوعيّاً حيث يتطور نوع من الانواع الىٰ نوع آخر بالتدريج . فهل انّ القوانين العلمية لداروين نفسه تتطور ؟

لا ، انّها قوانين عالميّة ثابتة كانت ولا زالت تُحكم سيطرتها على العالم ، وتلعب دورها في شتّىٰ الحقول العلميّة كقانون الجاذبيّة العامّة الّذي يعتبر أحد تلك القوانين الثابتة .

ولو قلنا : انّ النبيّ ـ صلى الله عليه وآله ـ خالدٌ بجسمه فربّما يعترض معترض بقوله : انه حسب القانون الفلسفي لا يظل شيئاً ثابتاً على حاله ، وعندئذٍ تنتفي قضية خلود النبيّ ـ صلى الله عليه وآله ـ بشخصه ، والحال انّ محور البحث ليس الشخص بما هو شخص ، ولا الشيء بما هو شيء حسب مواصفاته الشيئيّة المادّية ، بل انّ محور البحث هو القانون .. فالقرآن الكريم ـ على سبيل المثال ـ قانون ، وقانون ثابت ، وحقائقه ثابتة ، ومفاهيمه خالدة ، فلو قال احد : انّ اوراقه تبلىٰ ، نقول له : إنّ الورق وجود ماديّ ولا بد ان يبلىٰ ، لكن القرآن بما هو قرآن خالد لا يبلىٰ ، و يظل على خلوده واشعاعاته ، يبيّن الحقائق و يطرح المفاهيم ، و يقدّم للبشرية قوانين لا يجد اليها البلىٰ سبيلاً .

انّ القانون ليس جسماً ماديّاً فالجسم يبلىٰ و يفنىٰ .. امّا القانون فهو ثابت لا سيّما اذا كان مطابقاً للواقع ، وامّا اذا كان غير مطابق فهو ليس صحيحاً منذ يومه الاوّل .

على ايّ حال ، لاضير ان تكون للبشريّة قوانين ثابتة وخالدة لا ينالها البلىٰ ، فالبلىٰ ينال الأجسام المادّية فقط ، وهذه حقيقةٌ نقرّ بها ، ولا نرفضها . وقد أشار اليها القرآن في كثير من آياته اذ قال ـ عزّ من قائل ـ : «كلّ من عليها فان»[١] وقال ـ جل شأنه ـ : «اذا الشمس كوّرت . واذا النجوم انكدرت ...»[٢] فلا أبديّة لجسم من الأجسام ، ولا خلود له ، بيد انّ بحثنا لا يدور حول الاجسام ، بل حول القوانين . وكلامنا هو : انّ للبشرية سلسلة من القوانين

(١) الرحمن : ٢٦ .
(٢) التكوير : ١-٢ .

السماوية باقية ما بقي الدهر. وما أفدحه من خطأ يرتكبه من يتصور انّ رداءة الاشياء بسبب قدمها لانّ القدم ليس دليلاً على الرداءة، كما انّ الحداثة ليست دليلاً على الجودة، وكم من قديم هو جيّد مفيد، وكم من جديد هو مضر ردىء.

انّ أصحاب هذا التصور يقولون -مثلاً- انّ الاقطاع أصبح قديماً، ولم تعد له قيمة تذكر هذا اليوم، لذلك فهو ردىء بسبب قدمه. وكأنّه كان جيّداً في يومه الاول بسبب حداثته، ولا نقص فيه الاّ قدمه.. وما أتفه أصحاب هذا التصور إذ يرفضون الاقطاع لقدمه -بزعمهم- في حين هو **مرفوض** منذ يومه الاول، ومنذ أن كان جديداً! وهل هو الاّ ان يستولي أحد الاشخاص علىٰ أراض كثيرة بمنطق القوّة والعنجهيّة، مستعبداً عدداً من الفلاّحين كي يعملوا له بكل مشقّة وهو يأكل حصيلة أتعابهم، فأين جودته اذن؟

انّ هؤلاء يتصورون انّ نظام الاقطاع كنظام السيّارة فهو جيّد ما دام جديداً، امّا اذا أصبح قديماً فانه يفقد جودته.. ولا أدري ماذا أقول لهؤلاء، وانّي حائر حقّاً فهل الاقطاع كان جيّداً عندما كان جديداً؟ انّ نظاماً كهذا لا يقاس بقدم ولا حداثة، ولا تتوقف جودته ورداءته على قدمه وحداثته، إذ هو اليوم ردىء كما كان رديئاً بالأمس، وسيظل علىٰ رداءته مهما بلى الزمان أو تجدد.. ولا معنىٰ لرداءته بسبب قدمه... علماً انّه بسبب هذه التوجهات الخاطئة يعتبر أصحاب هذا التصور كل قديم رديئاً.. و يرون انّ قدم الاشياء كلها دليل على رداءتها، و يقولون: الىٰ متىٰ يظل الانسان يرتدي نوعاً واحداً من الملابس؟ ولا أدري فهل انّ حكم جميع الاشياء كحكم الحذاء والملابس؟!

مزيداً من اليقظة اذاً حيث انّ ذلك المبدأ الفلسفي لا ينطبق على المبادىء والقوانين بل ينطبق على الاشياء والاجسام. ولنتوقف عند هذه النقطة لنطرح الموضوع بشكل آخر ذكرته في البداية **ولا أراني** استوفيه بالبحث هذه الليلة، وهذا الموضوع هو موضوع الحاجات حيث اشير اليه اشارة عابرة.

لقد ذكرتُ انّ للانسان حاجات ثابتة، واخرىٰ متغيّرة. أمّا أصحاب ذلك التصور فانهم يرون انّ جميع الحاجات متغيرة، ووضعوا لرؤيتهم هذه أساساً مزعوماً رفضه الشيوعيون أنفسهم. وهذا الاساس هو انهم يرون ان كل ما في المجتمع من علم، وفن، وصناعة، وقضاء، ودين ومذهب، واخلاق، ومعلومات، وسياسة، وحقوق عائلية، هي كلها بني

فوقية ، وبمثابة أغصان الشجرة ، وفرضوا لها جميعاً بنية تحتية وجذراً هو الآخر يتطور ، وبما انّه يتطور فانّ كل شيء يتطور معه أيضاً .

لقد اعتبروا الاقتصاد أساس كل شيء ، وقالوا انّ كل ما يطلبه الانسان سببه العامل الاقتصادي ومن أجل المنفعة الاقتصادية . وفي الاقتصاد تتطور وسيلة الانتاج ، والتبدل الحاصل في وسيلة الانتاج يؤدي الى تبدل في الاخلاق والقيم ، لانها جميعاً تتمخض عن وسيلة الانتاج . هذا هو أساس كلامهم ، لكن قد ثبت اليوم انّ هذا الاساس وهذا المبدأ من أفدح الاخطاء . لان ملخص كلام هؤلاء هو انّ جميع نشاطات الانسان تصبّ في خدمة بطنه .

تراودني هذ الفكرة دائماً وهي انّ الغربيين وامثالهم الذين يضربون على وتر الانسانية ، و يفتخرون انّهم دوّنوا وثيقة حقوق الانسان ، و يتحدثون عن الشرف الانساني ، ليقولوا لنا : كيف ينظرون الى الانسان و يقوّمونه ؟ ولو تحدثنا نحن المسلمين بنفس ما يتحدث به الغربيون عن الانسان والانسانية فهذا هو ديدننا ، وهذه هي هويّتنا ، وذلك انّا نعتقد بقوله تعالى « اني جاعل في الارض خليفة »(١) وقوله تعالى « ولقد كرّمنا بني آدم »(٢) .

انّ هؤلاء الذين يعتقدون بانّ الانسان يعمل لبطنه ، و يعتبرون البطن محور حاجاته ، و يتصورون ان الفن ، والاخلاق ، والامور المعنوية ، والدين ، والعبادة ، وليدة حاجات البطن لا يفكّرون بالانسانية أبداً .. ! وما هو الفارق إذاً بين الانسان والحيوان ؟ ولو كان للانسان بطن فله عقل أيضاً ، وله قلب ، وما أكثر الأعمال التي يمارسها الانسان من وحي عقله لا من وحي بطنه ! وما أكثر الأعمال التي يقوم بها على حساب منافعه الاقتصادية بسبب وجود الوازع الديني عنده ! نحن لا نقول : انّ الاقتصاد ليس عاملاً . كلاّ ، انّه عامل ، لكنّه ليس العامل الرئيس والأساس بل هو أحد العوامل الكثيرة التي يمارس الانسان نشاطاته في ضوئها .

نحن نقول : انّ عبادة الله تعالى مصباح منير في قلب الانسان ، وانّ حسّ الايثار ، والتنازل عن المنافع الاقتصادية الشخصيّة في غايةٍ من السمّو والرفعة .. وكم كان من العلماء الذين سحقوا المنافع الاقتصادية من أجل العلم ! !

---

(١) البقرة : ٣٠ .

(٢) الاسراء : ٧٠ .

ينقل المؤرخون انّ ابن سينا قد سجن فترة ، ثم صدر الامر باطلاق سراحه حيث انّ الملك علم انه قد وُشي ضده ، فأمر باحضاره ، لكنه رفض الخروج من مخبأه ، وأوصى تلاميذه بعدم البروز والظهور.. وكان يقول : انّ عملنا داخل السجن افضل بكثير من الوزارة والرئاسة والمال والمنصب .. وكان له بعض الخدم يصرّون عليه بالخروج ، فكان يرفض .. واخيراً جاؤوه سراً وأخرجوه .

انّ الانسان يمكن ان يتنازل عن منافعه الاقتصادية .. وأخطأ من قال ان جميع الحاجات في تطور باعتبار اعتمادها على عامل واحد .. وهذا الكلام كله لا نصيب له من الصدق والصحّة .

تطوّرات

الزمن في التأريخ الإسلامي

تطورات الزمن في التاريخ الاسلامي

قال تعالى: «وانّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه ولا تتّبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله»[1].

ذكرتُ البارحة انّه من أجل التعرف على منطق المعارضين والمستشكلين، ومن أجل أن نكون قادرين على تحليل مقولا تهم وجواب اشكالا تهم، نذكر ملخّصاً لكلامهم.

قد قلتُ انّ هذه الشريحة الاجتماعية التي نطلق عليها صفة الجهل لها كلام يجري على لسان افرادها. انهم يقولون: انّ هذا العالم هو عالم التغيير والتطور والحركة، ولا شيء يظل على وتيرة واحدة في لحظتين متفاوتتين، ولا ثبات له بالمعنى الحقيقي للثبات... و يردفون قائلين: بما انّ الاشياء في تغيير وتطور فانّها فاقدة لقابلية البقاء والاستمرارية. وكل ما في الوجود وجوده مؤقت ومحدود وغير ثابت. بعد ذلك يخرجون علينا بهذه النتيجة من خلال تساءلهم: فكيف يمكن للاسلام أن يبقىٰ الى الابد، و يكون صالحاً لكل زمان؟ اقول: انّ الذي أضفوا عليه صبغة فلسفية: ينطبق على الاشياء المادية، اي انّ الاشياء المادية فقط قابلة للتغيير والبلىٰ، وكل جسم من الاجسام المادية هو كذلك، لكن كلامنا لايدور حول الاجسام. ولو ادّعى احد بالخلود المادي فيكون الكلام المطروح مناسباً له في هذا المجال، او قال أحد بخلود أوراق القرآن كما كانت، فالكلام معه صحيح ومناسب، لكن الكلام لايدور حول الشخص بمواصفاته المادية، أو حول الورق والحبر، بل الكلام يدور حول القانون،

---

(١) الانعام: ١٥٣.

وحول عدد من الحقائق لا سبيل الى انكارها البتة .

انّ الاشياء المادية في العالم تبلى ، فما هي علاقتها بحقائق العالم ؟ فمثلاً نقول : انّ في الصدق رضا الله ، أو انّ الاستقامة صفة محمودة في الانسان . فهذه حقائق ثابتة ، وقانون لتنظيم حياة البشرية ، غير قابل للتبدل والتغيير . ولكن قلنا : ان هناك موضوعاً آخر يرتبط بحاجات الحياة حيث انّ الحاجات تتبدل وتتطور ، وبما انّها تتبدل فالقوانين يجب ان تتبدل في ضوئها .

وذكرتُ البارحة انّ الحاجات الاساسية للانسان لا تتبدل ، وانما تتبدل حاجاته الثانوية . ووعدتكم ان اواصل كلامي في حدود هذا الموضوع ، لكن بما انّ هذه الليلة هي ليلة ميلاد الامام الحسن المجتبى ـ عليه السلام ـ لذلك اكتفي بذكر قسم من ذلك الموضوع لنحافظ على حرارة هذه المناسبة المباركة ونعطيها حقّها أوّلاً ، ونبقى عند الموضوع الرئيس ثانياً .

انّ من خصائص الدين الاسلامي انّه ركّز على الحاجات الاساسية والثابتة وضاعف من صفة ثباتها ، وجعل الحاجات المتغيرة تابعةً لها . وهذا باعتقادي من اعجازات هذا الدين العظيم . وسأوضّح هذا الموضوع من خلال الامثلة التي أذكرها ، ولكن قبل التعرض له ، هناك مقدّمة قصيرة انوّه عليها وهي : اننا نحن اتباع أهل البيت ـ عليهم السلام ـ نتفوق على غيرنا من اخواننا المسلمين بوجود امتيازات نتمتع بها ، اي : اننا نحظى بنعم ليست عند غيرنا . اننا واخواننا نشترك بوجود القرآن والسُنّة ، ولكن هؤلاء لا يتجاوزونهما ، اي : لا يرجعوا الى مصادر اخرى غيرهما ، امّا نحن فنتميز عليهم باعتقادنا بوجود الائمّة المعصومين الذين هم امتداد طبيعي لصاحب الرسالة ـ صلى الله عليه وآله ـ ، وهم المصادر الموثوقة والغنيّة المغنية التي نرجع لها لأخذ كل ما نريد من أحكام .

كم عاش النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ بعد البعثة ؟ لقد عاش ثلاث وعشرين سنة ، قضى منها ثلاث عشرة سنة في مكّة ، والباقي في المدينة . وكان كلامه وفعله وتقريره سُنّةً ومصدراً للأحكام . ولا يخفى فانّ الزمن الذي نتحدث عنه هذه الليالي ، وكان مجموع سنينه ثلاث وعشرين سنة قد شهد تبدلات وتطورات كثيرة ، فكان الوضع في مكّة شيئاً ، وفي المدينة شيئاً آخر . وفي مكة نفسها كان وضعها قبل وفاة ابي طالب وخديجة غير وضعها بعد وفاتهما ـ عليهما السلام ـ . وكان الوضع في السنين الثلاث الاولى من البعثة غير الوضع الذي كان بعد

نزول قوله تعالىٰ : «فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين»[(١)] حيث انّ النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ اتّخذ اسلوباً آخر في العمل . ولنا تقسيمنا الخاص بنا للفترة التي عاشها النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ ولعامّة المسلمين تقسيمهم . فهم يقولون مثلاً في صدد تقسيم الفترة التي عاشها النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ بعد البعثة : من السنة الاولى للبعثة حتىٰ اسلام عمر ... و يعتقدون انّ الاوضاع قد تغيّرت بعد اسلامه ، ونحن نذكر اسلام حمزة ونقول : كان المسلمون في وضعٍ حرج للغاية قبل اسلامه ، امّا بعد اسلامه فقد قويت شوكتهم واشتدت عزيمتهم ، علماً انّ اخواننا المسلمين يقرّون باسلام حمزة وتأثيره . وعندما قويت شوكه الاسلام حدثت تغييرات كثيرة في أساليب العمل .

وكذلك الوضع في المدينة فيقسم الىٰ ما قبل معركة بدر وما بعدها ، وما قبل فتح مكة وما بعده . وخلال تلك المدّة التي بلغ مجموعها ثلاث وعشرون سنة طرأت تغييرات متعددة ، وحدثت تطورات كثيرة ، وكانت ظروف المسلمين تختلف من فترة الى اخرىٰ ، ولكن مجموع سنين تلك المدّة كانت ثلاث وعشرين سنة هي المدار عند غيرنا ، امّا بالنسبة الينا أتباع مدرسة أهل البيت ـ فانّ المدّة لا تقتصر على تلك السنين رغم عظم عطائها ، لاننا نعتقد انّ مرحلة العصمة بلغت (٢٧٣) سنة ، حيث انّ ثلاث وعشرين سنة منها كانت في عصر النبيّ ، صلىّ الله على وآله ، وهذا ما نتفق به مع عامّة المسلمين ، امّا السنون الباقية ـ وهي مائتا وخمسون سنة اعتباراً من السنة العاشرة للهجرة حتىٰ سنة مئتي وستين حيث وفاة الامام العسكري ـ عليه السلام ـ الامام الحادي عشر من ائمة اهل البيت ـ عليهم السلام ـ فهي تخصّنا ولا تخصّهم .

انّ المئتي والخمسين سنة في مرحلة العصمة ـ أي مرحلة الامام المعصوم الظاهر الذي تعتبر سيرته حجةً لنا ـ تدخل ضمن تقسيمنا ، ولها ميزتها الخاصّة بها ، امّا عامّة المسلمين من غير أتباع أهل البيت فانّ المدار عندهم تلك المدّة اي ثلاث وعشرين سنة ، فقط وفيها يعتقدون بحجيّة السيرة النبويّة الشريفة . وقد ذكرت انّ تقلّبات كثيرة قد حصلت في تلك المدّة التي عاشها النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ ، وكذلك قد حصلت مثلها بل أكثر منها بكثير خلال المدّة المتبقيّة من مرحلة العصمة : أعني : خلال المائتي والخمسين سنة. ولا يخفىٰ فانّ لتلك المدّة عظيم

---

(١) الحجر : ٩٤ .

العطاء لنا حيث انها عالجت كثيراً من المعضلات ، وقدّمت أنجع الحلول بالنسبة الى متطلّبات العصر . واستطيع القول انّ اعتبار هذا الامر من صميم اعتقادنا أغنانا عن استجداء الحلول لكثير من المشاكل التي طرأت وتطرأ .

انّ الائمّة واكبوا تطورات العصر، وكانوا بالمستوى المطلوب بالنسبة الى متطلباته . ولعلكم تصادفون أحياناً انّ سيرة بعضهم قد اختلفت عن البعض الآخر، وهذا بسبب الظروف المختلفة التي عاشوها ، فمثلاً الامام الحسن يصالح ، في حين الامام الحسين يقاتل . وهكذا بقيّة الائـمّة . وكذلك الأمر بالنسبة الى وضعهم في حياتهم الخاصّة واسلوب معيشتهم . فمثلاً نجد الامام عليّاً ـ عليه السلام ـ يكتفي من لباسه بطمريه ، في حين كان الامام السجّاد ـ عليه السلام ـ يرتدي لباس الخز، وكان يهيىء لنفسه ثوباً منه كل عام . والحال انّ هذين اللونين من اللباس لم يلاحظا في سيرة النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ .

«جاء في الكافي انّ سفيان الثوري دخل ذات يوم على الامام الصادق ـ عليه السلام ـ فرأى عليه ثياب بيض كأنها غرقىء[1] البيض . فقال له : انّ هذا اللباس ليس من لباسك ، فقال له : اسمع منّي وعِ ما أقول لك فانّه خيرٌ لك عاجلاً وآجلاً إن انت متّ على السُنّة والحقّ ولم تمت على بدعة أُخبرك انّ رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ كان في زمان مقفر جدب فأمّا اذا أقبلت الدنيا فأحقّ أهلها بها أبرارها لا فجّارها ومؤمنوها لا منافقوها ومسلموها لا كفّارها فما أنكرت يا ثوري فوالله انني لمع ما ترى ما أتى عليّ مذ عقلت صباح ولا مساء ولله في مالي حقٌّ أمرني أن أضعه موضعاً إلّا وضعته .

قال : فأتاه قوم ممّن يظهرون الزهد و يدعون الناس أن يكونوا معهم على مثل الذي هم عليه من التقشف ، فقالوا له : انّ صاحبنا حصر عن كلامك ولم تحضره حججه . فقال لهم : فهاتوا حججكم ، فقالوا له : انّ حججنا من كتاب الله فقال لهم : فادلوا بها فانّها أحقّ ما اتّبع وعمل به ....»[2] . و بعد أن قرأوا عليه آيات من القرآن الكريم أجابهم ـ سلام الله عليه ـ فأفحمهم ، ولم يقدروا على الجواب . واستنبط من كلامهم انّ النبيّ ـ صلّى الله عليه

(١) الغرقىء ـ كزبرج ـ: القشرة الملتزمة ببياض البيض أو البياض الذي يؤكل ، قال الفراء : وهمزته زائدة. (الصحاح) .

(٢) الكافي / الفروع، ٦٥/٥ .

وآله ـ، وامير المؤمنين ـ عليه السلام ـ والصحابة، لم يلبسوا مثل هذه الثياب. فأجابهم بلسان حاله: ان هذه القضيّة لا ترتبط بالاسلام، وانما بالزمان وتطوراته، ولو كنتُ في زمن النبيّ (ص) للبست مثل لباسه، وكذلك لو كان هو في زماني للبس مثل لباسي.

فالاصالة في الاسلام للمواساة اي: ان يواسي المسلمون بعضهم بعضا. والمسلم الحقيقي هو الذي يدفع ما عليه من حقوقٍ واجبة. وهذا أمر ثابت غير قابل للتغير مع تغير الازمنة والعصور. و ينبغي ان يكون اعتماد المؤمن على الله لا على المال، وهذا هو المعنىٰ الحقيقي للزهد.

ممّا لا يخفىٰ انّ الوضع العام للناس في عهد النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ كان شديداً وعسيراً، وكلّنا قرأنا في التأريخ ان الجيش الاسلامي في غزوة تبوك عرف بجيش العُسرة مع ان تعداده كان ثلاثين ألفاً لشدّة ماعاناة من عُسر وضيق وقلّة في الارزاق حتىٰ ضعفت القلوب، وتفادياً لهذا الضعف كان الثلاثة والاربعة يتقاسمون في تمرة واحدة لاشباع بطونهم. وفي معركة بدر كان عدد المسلمين ثلاثمائة وثلاثة عشر، ولم تتجاوز سيوفهم الاربعين، وكانت لهم ثلاثة أو أربعة من الخيول، في حين كان عدد المشركين بين التسعمائة والالف، وكانوا ينحرون عدداً من الابل كل يوم طعاماً لهم. وكان اهل الصفة في وضع يُرثىٰ له حيث وصل حالهم حدّاً كانوا يتناوبون فيه على لباس واحد لتأدية الصلاة..

وقرأنا كذلك انّ رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ دخل بيت فاطمة ذات يوم فوجد ستارة معلّقة، فرجع. ولما علمت الزهراء بذلك، أنزلتها، وكذلك نزعت سواراً من فضّة كان في يدها، فقدّمتهما الى النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ لينفقهما على الفقراء.

فعامل الزمن يلعب دوره حيث كانت المواساة تقتضي مثلاً ان تبقىٰ ستارة في البيت لانّ ظروف الفقر والبؤس كانت تفرض ذلك، امّا اليوم فقد تبدل كل شيء في حياة الناس لكن لا يعني هذا الغاء مبدأ المواساة، كما لا يعني الخروج عن حدّ الاعتدال، وعندما أقول: تبدل كل شيء، فانّي اقصد انّ الحالة ليست هي الحالة التي كان عليها المسلمون في الصدر الاول بحيث تستوجب عدم بقاء الستارة في البيت مثلاً.. وحينما أرتدس لباساً فانّما أرتدى لباساً ملائماً يتناسب وهذا العصر.. و بعبارة اخرىٰ: لا أصالة للملبس أو المأكل في الاسلام، ولا يفرض الاسلام على اتباعه أن يرتدوا نوعاً معيّناً من اللباس بل له تعليماته الخاصّة به التي في

ضوئها يكون الملبس أو المأكل مثلاً . وهذه التعليمات مبادىء ثابتة توجه الانسان كيف يكيّف نفسه مع التطور، وكيف يمارس عمله ، وكيف يؤدّي مسؤوليته .. ولو كانت هناك أصالة لشيء من الاشياء وفق الرؤية الاسلاميّة ، فهو غير قابل للتغيير والتبدل .

فالثابت في الاسلام هو الاصول والمبادىء ، والمتغير هو كيفية تنفيذ تلك الاصول والمبادىء . وهذا ما يخضع لتطورات العصر التي تلعب دورها في تبديل صور التكليف ، ولو لم يكن هذا ، ولو كانت هناك أصالة لهذه القضايا الجزئية ، فمن المستحيل ان يمارس الامام علي -عليه السلام- اسلوباً في العمل يختلف عن غيره من الائمّة .. وهناك مفردات تجسّد الأصالة للقضايا الأساسية الثابتة التي لا تتبدل بفعل تطورات العصر ومتطلباته ، مثل عبادة الله تعالىٰ ، والخوف منه ، ومواساة الفقراء وتفقدهم ... وما الى ذلك ، وفي هذا الأمر يتساوىٰ الامام عليّ -عليه السلام- مثلاً مع الامام السجّاد -عليه السلام- ، فقد كان الامام أمير المؤمنين -عليه السلام- مشغولاً في العبادة من اول اللّيل حتىٰ الصباح ، وكان يصلّي في بعض الليالي ألف ركعة ، وكذلك كان الامام السجّاد -عليه السلام- ، والامام الرضا -عليه السلام- فكلهم كانوا يتفقّدون الفقراء ... وهذا مبدأ ثابت وله أصالته ولا يتبدل بفعل التطورات والمتطلبات ، ولكن ايّ نوع من اللباس يلبس الانسان ، فهذا يرتبط بالتطورات الحاصلة في كل زمان .

ينقل الكليني في الكافي[1] عن معلّى بن خنيس «قال : خرج ابو عبدالله -عليه السلام- في ليلة قد رشّت[2] وهو يريد ظلّة بني ساعدة فاتبعته فاذا هو قد سقط منه شيء فقال : بسم الله ، اللهم ردّ علينا ، قال : فاتيته فسلّمت عليه . قال : فقال : معلّى ؟ قلت : نعم جُعلت فداك . فقال لي : التمس بيدك فما وجدت من شيء فادفعه اليّ فاذا انا بخبز منتشر كثير فجعلت ادفع اليه ما وجدتُ فاذا انا بجراب اعجز عن حمله من خبز . فقلت : جعلت فداك احمله على رأسي . فقال : لا انا اولى به منك ولكن امض معي . قال : فأتينا ظلّة بني ساعدة فاذا نحن بقوم نيام فجعل يدسُّ الرغيف والرغيفين حتىٰ اتى على آخرهم ثم انصرفنا ، فقلتُ : جعلت فداك ، يعرف هؤلاء الحق فقال : «لو عرفوه لواسيناهم بالدُّقة»»[3] .

---

(١) ج ٤ صفحة ٨ - ٩ .

(٢) أمطرت .

(٣) الملحَ .

فهذه القصّة وأمثالها لا تتعلق بعصر دون آخر، لانها تترجم لنا المواساة، والمواساة لا تخصّ زمناً دون آخر بل هي في كلّ الازمنة والعصور.

لماذا عقد الامام الحسن -عليه السلام- الصلح مع معاوية؟ ولماذا قاتل الامام الحسين -عليه السلام- يزيد؟ وأمثال هذه الاسئلة المثارة، ولا ادري لماذا نناقش اسلوب هذين الامامين في العمل فقط، فلو رجعنا الىٰ الوراء قليلاً، لننظر لماذا لم ينهض الامام علي بن ابي طالب -عليه السلام- في عصر الخليفة الاوّل أو الثاني أو الثالث؟ ولكن بعد الخليفة الثالث عندما جاءه المسلمون و بايعوه وقف بكل حزم ولم يهادن.. في حين انّ الخليفة الاول - في عقيدته - غاصب للخلافة كما كان معاوية من بعده غاصباً فلها. فمصلحة الاسلام هي الاهم عند عليّ بن ابي طالب، والاصالة وفق المنظور الاسلامي هي للدفاع عن الاسلام والمحافظة عليه، وهذا الموضوع مقدّم على كلّ شيء، وله اولويّته.

والاسلام عندما قرّر انّ الخلافة لعليّ، فانما اراد تثبيت دعائمه وتوطيد اركانه لانّه الشخص الوحيد الجدير لها بين علية القوم، ولو كان الناس والصحابة قد أطاعوا نبيّهم الكريم -صلّى الله عليه وآله- و بايعوا عليّاً، وقدّر له استلام الخلافة لتحقق هدف الاسلام، وطموح النبيّ -صلّى الله عليه وآله- بتعزيز اسس الرسالة الاسلامية من خلال خلافة عليّ -عليه السلام-.. وكلنا نعلم انّ النبيّ -صلّى الله عليه وآله- قد نصب عليّاً للخلافة، ولكن بمجرد أن التحق بالرفيق الاعلىٰ تغيرت مجريات الامور بظهور تيار جديد يضم أكابر الصحابة ومشيخة المهاجرين والانصار. وقد استغل هذا التيار الموقف لتكون الخلافة لصالح من يهواه معرضاً عن عليّ و بني هاشم.. وفي مثل تلك الظروف الحرجة كان بين المسلمين اناس لم يتمكن الاسلام من نفوسهم، وكان الاسلام قد ذاع صيته جديداً خارج الجزيرة العربية، لذلك كانت المصلحة الاسلامية تقتضي ان يستتب الامن والهدوء، وان لايكون هناك اي شرخ داخلي من شأنه أن يضعف الحكومة الجديدة، لا سيما وقد هدّدت كيانها أخطار، كان عليها ان تواجهها بحزم وصلابة.. مثل فتنة المرتدين التي يجب على الحكومة الجديدة ان تكون بالمستوىٰ المطلوب لاخمادها. وكذلك هناك الوافدون على المدينة من نقاط بعيدة حيث تنعدم عندهم المقاييس الصحيحة في التقويم فلا يفرّقون بين عليّ وأبي بكر.. كلّ هذه وأمثالها تقتضي أن تكون المصلحة الاسلامية هي الأهم، وان تقدّم على كل مصلحة بالرغم من

الانحراف الذي طرأ من خلال تنحية الامام علي -عليه السلام- عن الخلافة وهو الاجدر والاكفأ لها ، لكن منطق الحكمة يفرض عليه وهو صاحب الحق المهتضم ان يتنازل عن حقه و يصبر على مضض من اجل مصلحة الاسلام حيث كانت هي هدفه الأعلىٰ وكان لا يهمّه الاّ أن يكون الاسلام بخير ، لذلك كان يعطي رأيه للخلفاء الثلاثة و يشاركهم ، وكانوا يستشيرونه ويحتاجونه عندما تستعصي عليهم كثير من المسائل ، وهكذا كان تعامله بكل صدق ونزاهة مع ابي بكر ، ومع عمر ، ومع عثمان .. وهذه -لعمر الله- اعلى درجات النبل والسمو حيث يرضي ان تمتهن كرامته ، وتبقى كرامة الاسلام محفوظة ، والاصالة وفق مقياسه الصائب للمصلحة الاسلامية المبدئية لا للمصلحة الشخصية ، رغم ان مطالبته بحقّه لا يعد مصلحة شخصية مهما تقول المتقولون بل يعد مصلحة اسلامية حقيقية لانه يكون بهذا قد عمل بما يمليه عليه واجبه القرآني ، وبما اوصت به السنّة النبوية الشريفة . لقد سكت -سلام الله عليه- طيلة تلك الفترة العصيبة حفظاً للمصلحة الاسلامية ، ولكن عندما تغيرت مجريات الأحداث ، واتسعت رقعة النفوذ الاسلامي ، وشاءت المقادير ان يكون معاوية خصمه ، لم يسكت ، ولم يهدأ ، بل كان الواجب يملي عليه ان يواجه هذا الخطر المحدق برسالة السماء ، لانّ معاوية لا يمتلك شخصيّة كشخصية ابي بكر وعمر .. ولانّ تأريخه لا يخفىٰ على احد حيث حارب الاسلام مع أبيه سنيناً طوالاً ، فتبدلت المعادلات اذاً .

وكان الموقف يتطلب من عليّ محاربة معاوية ، وبالفعل فقد حاربه .. و يأتي بعد ذلك دور الامام الحسن -عليه السلام- ، واذا بها مرحلة عصيبة زاخرة بالمحن المرّة التي كانت وليدة الاحداث الكثيرة التي ظهرت في عصر أبيه .. وابتُلي بأصحاب ضعاف النفوس ، خائري الارادة ، ولو كان قد قاتل معاوية لقتل قتلاً غير مشرّف ليس كقتل اخيه سيّد الشهداء ، الذي قدّم نفسه الزكيّة مع اثنين وسبعين من أصحابه البررة حتىٰ استشهد شهادة شرف وفخر واعتزاز.. ولا زالت دماؤهم الطاهرة تسقى شجرة الاسلام .

لقد ظهرت على أتباع اهل البيت(ع) في عصر الامام الحسن -عليه السلام- حالةٌ من الارتخاء والفتور والضعف والتعب بحيث لو خاض المعركة مع معاوية لخسر الجولة ، ولسُلّم مكتوف الايدي الى طاغية الشام ، و ياله من ذُلّ ! لاسيما وان معاوية لم يظهر من القسوة والظلم شيئاً تلك الفترة حتىٰ يمتعض منه الناس ويحاربوه .. ولكن حينما غصب الخلافة

وحكم عشرين سنة ، وولّى المغيرة بن شعبه وزياد بن ابيه على الناس ، يجورون ويحيفون عليهم حتىٰ ذاقوا شتىٰ ألوان المحن والو يلات منهم ، عند ذلك عرف الناس من هومعاو ية ، ومن هو علي ، وعضّوا على اناملهم ندماً وحسرة على ما فرّطوا في جنب عليّ ولم يلبّوا دعوته ، وتألموا على تقصيرهم بحقّه وحق ولده المجتبىٰ ، وولده سيّد الشهداء ... ولذلك قامت انتفاضات كثيرة بعد واقعة الطف ، ومنها انتفاضة التوّابين الذين التفّوا حول المختار.

ولعلّ تشخيص الناس لحقيقة الحكم الاموي في عصر الامام الحسن ، كان من العوامل المساعدة علىٰ ثورة الامام الحسين ـ عليه السلام ـ واضافة الى ذلك فان يزيد كان يختلف عن أبيه معاو ية . حيث كان معاو ية قد مارس اسلوب النفاق والمراوغة في سياسته ، امّا يزيد فقد اظهر الكفر علناً . وكان معاو ية يغطّي على أعماله المشينة ، فلم يشرب الخمر علناً ، ولم يهارش الكلاب علناً ، امّا يزيد فقد كان شاباً نزقاً ماجناً خليعاً لم يحسب للامور حسابها وكيفما تكون فالناس يسمّونه خليفة رسول الله . وكان يشرب الخمر علناً حتى الثمالة ، و ينال من النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ بمحضر من الناس، فلو لم تكن كربلاء ، ولو لم ينهض الامام الحسين ـ تلك النهضة العظيمة التي آلت الى سقوط يزيد فيما بعد ، والذي لو ظلّ لحكم مثل ابيه عابثاً بالحكم مدةً طو يلة ـ لما كان للاسلام وجود .. فالظروف كانت تختلف من عصر لآخر.. وما قام به الامام الحسن ـ عليه السلام ـ قام به الامام الحسين ـ عليه السلام ـ ، وكذلك ما قام به الامام الحسين ـ عليه السلام ـ قام به الامام الحسن ـ عليه السلام ـ ولم يتغير الّا اسلوب العمل امّا الموقف فهوواحد ، والروح واحدة ..

هذان مثالان وددتُ ان اطرحهما في هذا المجال .

الإجتهاد والتفقّه في الدّين

الاجتهاد والتفقه في الدين

قال تعالى: «فلولا نفر من كلّ فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلّهم يحذرون» [١] .

قبل الدخول في موضوع الاجتهاد والتفقه في الدين احببتُ أن اتحدث قليلاً عن أحد المفكّرين في العالم الاسلامي ممّن خاض في الاجتهاد واكّد عليه ، وهذا المفكّر هو محمد اقبال اللاهوري ، وهو من المفكّرين المعاصرين ، و ينحدر من شبه القارة الهنديّة ، الهند سابقاً والباكستان حاليّاً . . نشأ في أُسرة مسلمة ، ودرس العلوم الجديدة ، وانهى دراسته علماً انه قد درس العلوم القديمة أيضاً . وكان ذا حسٍّ اسلامي على العكس من الاغلبية الساحقة من طلاّبنا الايرانيين الذين سرعان ما يتأثرون بالاجانب تأثراً عجيباً . وكانت له شهادة عليا في فرع الفلسفة ، وألّف كتباً باللغة الانجليزية تعد من المصادر التي اعتمد عليها المستشرقون . وكان متحمساً للاسلام ، وعلى درجة عالية من الوعي الاسلامي . وكان يعتقد انّ الاسلام هو المنقذ الوحيد للبشرية . وبالاضافة الى انه من المجدّدين وأصحاب الاّطلاع على الافكار الحديثة ، فقد قال شعراً كثيراً . . ولا تهمّنا الآن هذه الجوانب من حياته .

يقول هذا المفكّر: قال لي أبي جملة أصبحت درساً لي في حياتي . قالها عندما كنتُ مشغولاً بتلاوة القرآن . فسألني : ماذا تفعل ؟ قلتُ له : أقرأ القرآن . قال : يا بُنيّ ! إقرأ القرآن كأنّه نزل عليك . فأثّرت هذه الجملة في قلبي أثر النقش في الحجر، وكنت بعدها كلّما اقرأ آية

---

(١) التوبة : ١٢٢ .

لا أتجاوزها حتى أتأمل فيها واتدبر.

انّ الذي دعاني ان اذكر هذه الشخصية كلامه في الاجتهاد، موضوع بحثنا هذا.

يقول اقبال: انّ الاجتهاد هو القوّة المحرّكة في الاسلام، مثله في ذلك مثل القوّة التي تحرّك السيّارة، فالسيّارة لاتتحرك ما لم تكن لها قوّة تحرّكها. ولابن سينا أيضاً كلام حول الاجتهاد يذكره في بحث جامع له في كتاب الشفاء عندما يتطرق فيه الى المبادىء الاجتماعية والمبادىء العائليّة. يقول: لاحدّ للحاجات التي تظهر في حياة الانسان. انّ الاصول في الاسلام ثابتة لاتتغير، وليست ثابتة من وجهة نظر الاسلام فقط، بل هي حقائق يسلم بها كمبادىء حياتية في كافة الازمنة والعصور. وحكمها حكم منهج واقعي حقيقي لا بد منه. امّا الفروع فهي متغيرة ولاحدّ لها.

ثم يردف قائلاً: لهذا السبب نقول بضرورة الاجتهاد وأهميته. و بعبارة اخرى: لا بد من وجود أخصائيّين وخبراء في كل عصر، لهم القدرة على تقديم الحلول المناسبة لمشكلات ذلك العصر من خلال استنباط الاحكام الجزئية التفصيلية الملائمة لكل فترة من المصادر المجملة للتشريع الاسلامي، ولهم القابلية على الاستجابة للتطورات الحاصلة من خلال ادراكهم ان المسألة الفلانية الجديدة في اي أصل من الاصول.

ويمكن القول انّ الاجتهاد قد فقد روحه في واقعنا المعاصر ولم تعد له تلك المنزلة التي تناسبه حيث يتصور الناس انّ مسؤولية المجتهد تكمن في استنباط المسائل والاحكام الفقهية فقط والتي لها حكم واحد مهما تعاقبت الازمنة والعصور مثل التيمم. هل تكفي ضربة واحدة أو ضربتان؟ فاحد الفقهاء يقول: الاقوى ضربة واحدة، والثاني يقول: الاحوط ضربتان، وأمثال هذه المسائل. في حين انّ هذه المسائل ليس لها أهميّة تذكر، اذ انّ الاهميّة ينبغي ان تُركّز على المسائل الجديدة والمستحدثة التي تظهر في كل عصر، ويجب التأكد والاطمئنان من انطباقها على ما هو موجود في الشريعة من أحكام مجملة. لذلك فانّ ابن سينا ينطلق من هذا المنطلق في تأكيده على ضرورة الاجتهاد ولزوم ترك بابه مفتوحاً في جميع الازمنة والعصور. ولو أخذنا هذا الأمر بنظر الاعتبار، و بذلنا جهودنا لاعادة الحياة للاجتهاد بحقيقته. فسنكون على خلاف واضح مع عامّة المسلمين من غير أتباع أهل البيت، إذ يرون ان الاجتهاد مقتصر على اشخاص معيّنين، وهذا ما لا يراه أتباع اهل البيت حيث يطالبون بترك باب الاجتهاد مفتوحاً

في كل عصر من العصور، في حين يرى عامّة المسلمين انّ المجتهدين أربعة فقط وهم : ابو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل . ويجوّزون عليهم الخطأ .

يقول القرآن الكريم : «وما كان المؤمنون لينفروا كافّة فلولا نفر من كُلّ فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين . . .»[1] فالنفر المذكور هنا هو النفر من أجل الاجتهاد ، ومهما قيل في منطوق الآية فالهدف واضح من ذلك النفر من خلال التعبير القرآني نفسه عندما يقول : «ليتفقّهوا في الدين» فالقرآن تطرق الى هذه القضيّة المهمّة ، وسمّاها : التفقه في الدين وهذا التعبير أعمق معنىً من تعبير علم الدين . . فهناك تعبيران اذاً ، أحدهما : علم الدين ، والثاني : التفقه في الدين . والعلم مفهومه واسع ، ويمكن اطلاقه على كثير من حقول المعرفة . امّا التفقه فهو ليس كذلك ، ولا يمكن استعماله في كلّ مكان لانّه يعني التعمق في العلم ، ودرجته أعلى من درجة العلم ، وهو بعبارة اخرى : العلم العميق الذي لا يتسنى لكل أحد . . ويمكن ان نسمّى العلم السطحي علماً ولا نسمّيه تفقهاً .

يقول الراغب الاصفهاني : «التفقه هو التوسل بعلم ظاهر الى علم باطن» فهو التقاط اللب من بين القشور ، وهو ادراك اللامحسوس من خلال المحسوسات ، وهو يعني : انّ الانسان لا يتعامل مع الدين تعاملاً سطحياً ، بل تعاملاً عميقاً هادفاً ، مدركاً انّ في الدين جانبين : الجانب الروحي ، والجانب المادي ، مبتعداً عن الفهم المبتور المشوّه للدين من خلال التركيز على جانب واحد فقط . ولا تتيسر معرفة الدين معرفة واعية من خلال جانب واحد فحسب ، بل من خلال كلا جانبيه .

انّنا نطالع الاحاديث والروايات الواردة أحياناً فنجد بعضها يقول : «يأتي على الناس زمان لا يبقى فيهم من القرآن الّا رسمه ومن الاسلام الّا اسمه»[2] وهذا الكلام للامام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ ، وله كلام آخر قاله وهو يستعرض مستقبل بني اميّة ، ومنه : «ايها الناس ! سيأتي عليكم زمان يكفأ فيه الاسلام كما يكفأ الاناء بما فيه»[3] .

---

(١) التوبة / ١٢٢ .

(٢) نهج البلاغة / قصار الحكم ٣٦٩-١ .

(٣) نهج البلاغة / خطبة ١٠٣-١١ .

فهذه الاقوال تبيّن لنا انّ قسماً من التعاليم الدينية تشبه الاناء ، وهي وعاء للقسم الآخر من التعاليم الدينية التي تشبه الماء . فهذا الوعاء ضروري ولكن لذلك الماء ، ولو كان هذا الوعاء نفسه فلا يُكفأ ماؤه . امّا اذا كان هذا الوعاء موجوداً بدون ذلك الماء فكأنّه غير موجود . فالامام -عليه السلام- اراد من وراء هذا التشبيه أن يقول بانّ الامويّين يفرغون الاسلام من محتواه ، و يقضون على جوهره ، و يشوّهون حقيقته ، ولا يُبقون للناس منه الاّ القشور..

وللامام -عليه السلام- كلام آخر وهو أيضاً في صدد الحديث عن بني اُميّة ، يقول فيه : «ولبس الاسلام لبس الفرو مقلوباً»[١] واذا كان الاسلام هكذا فهذا يعني انّه فقد روحه ، وأصبح معرضاً للسخرية والاستهزاء بسبب تصرفات الامويين المنحرفين .

فكل ما مرّ من اقوال وأمثالها تبيّن انّ بعض الناس يدّعى الاسلام ولكنه الاسلام الفارغ من محتواه ، الفاقد لروحه وحركيته .. والبعض الآخر يدّعيه كدين فاعل مؤثّر اي : الاسلام بما هو اسلام بحقيقته ومعناه .

ينقل احد **الأصدقاء** انّه في مرّة من المرّات واجهته مشكلة ، فذهب الى أحد معارفه يلتمس منه حلّها ، مع انّها كانت مشكلة بسيطة ، ولكن بالنسبة الى صاحبها كانت لها أهميتها الخاصّة . يقول : فاعتذر بعلّة انّه يريد الذهاب الى صلاة الجماعة . فلوقال احد هنا انّ الاسلام قد أكّد على صلاة الجماعة تأكيداً كثيراً الى الحدّ الذي لم يلتفت معه الىٰ قيمة العمل المؤدّىٰ في قضاء الحاجة فهذا كلام خاطىء ، وهل هناك فرق في حساب الله بين ان نصلّى فرادى أو نصلّي جماعة ؟ ولم اكّد الاسلام على صلاة الجماعة ؟ أليس ذلك من اجل ان يعيش الناس جوّاً روحيّاً ومعنوياً ، يلتقى احدهم بالآخر ، و يتفقد احدهم احوال الآخر؟ وهو كذلك . وما ذكر من التأكيد على صلاة الجماعة وكثرة ثوابها هو لكي تصنع من الناس اناساً ذوي عطف وضمير ، و يسعىٰ احدهم في قضاء حوائج الآخر. فصلاة الجماعة قشر في داخله لبٌّ كامن ، وما هذا اللب الاّ العواطف الاجتماعية والتفكير بامور الآخرين .

كل ذلك يدلّل على انّ في الاسلام لبّ وقشور ، وله ظاهر و باطن .. فلا بدّ من التفقه

---

(١) نهج البلاغة / خطبة ١٠٧ .

اذاً .. والتفقه يعني حصول الانسان على المعنىٰ المراد . فلو قال احد : انّ الاجتهاد هو القوّة المحرّكة للاسلام ، أو قال آخر : انّه ضروري في كل عصر وزمان وروح الاسلام روح ثابتة في كافّة الازمنة والعصور ، فلا مكان للشبهة القائلة بانّ متطلبات العصر تستوجب نقض حكم الاسلام . وهنا اودّ ان اذكر مثالاً من القرآن ، وهو قوله تعالىٰ : «واعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم ...»[١] فهذا أمر بالاعداد واضح بكل صراحة ، والهدف مذكور ايضاً ، فالاسلام دين القوّة لا دين الضعف ، وهذا ما يقرّبه اعداؤه من الاجانب .

يقول و يل ديورانت : لا وجود لدين دعا أتباعه الى القوّة كالاسلام . فالاسلام أكّد على القوّة ، وطلب من المسلمين أن يكونوا أقوياء ، و يسوءه ان يرىٰ المسلمين ضعفاء ، ولا ينسجم منطق **الضعف** مع تعاليمه لانه يوصي المجتمع الاسلامي باعداد نفسه بكلّ ما يملك من قوّة لمواجهة الاعداء . ومن ناحية الهدف والغاية يصدر الامر السماوي بان يكون المسلمون اقوياء من الناحية المادّية الى الحد الذي يرهبون به أعداء الله ، وكما نرىٰ الدول الكبرىٰ هذا اليوم كيف ادخلت الرعب في قلوب الشعوب ، فكذلك يريد القرآن من المسلمين ان يكونوا أقوياء الى الحدّ الذي لو رآهم أعداؤهم ، يهابون سطوتهم ، ويخافون منهم ، ولا يخطر في بالهم الاعتداء عليهم . وهناك صنفان من القائلين بمنطق القوّة : صنف يطلب القوّة من اجل الاعتداء على الآخرين ، وصنف آخر يطلبها لمواجها ذلك الاعتداء ، والحيلولة دون استفحاله . وهذا عين ما يريده القرآن الكريم اذ ينادي بالقوّة للوقوف بوجه الاعتداء والسلب والنهب ، ولا يوصي المسلمين بالقوّة وسيلةً للاعتداء .. وما أروع الادب القرآني إذ يقول : «ولا يجرمنكم شنآن قوم على ان لا تعدلوا ..»[٢] وهنا يخاطب المسلمين أن لا يخرجوا عن حدّ العدالة حتىٰ مع أعداء الله الذين اساؤا اليهم .. وكذلك لا يجيز لغيرهم الاعتداء .. فهذه أوامر ينبغي اطاعتها .

وعندما نأتي الىٰ السُنة النبويّة الشريفة فاننا نلتقي بسلسلةٍ من الآداب والسنن المحمّديّة التي رسمها معلّم الإنسانية الاوّل لتكون منهجاً للحياة .. والتي تتّصل بموضوعنا

---

(١) الانفال / ٦٠ .

(٢) المائدة / ٨ .

سالف الذكر، ومن هذه الآداب السبق والرماية ، ـكما يصطلح عليهما في الفقه ـ وأكّد الاسلام على استحبابهما . وحرّم كل لون من الوان المقامرة الّا بهما . وهذا من مسلّمات الفقه اذ توجد أمثال هذه السنن والآداب في ديننا .

قد يأتي هنا من يتصف بالتزمت والجمود فيقول : انّ الامر الوارد في قوله تعالىٰ : « واعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة . . » شيء ، وأمر الفروسيّة والرماية شيء آخر . اي : انّ النبيّ ـصلّى الله عليه وآله ـ عندما أوصى بهما ، واكّد على تعليمهما لاولادنا ، فانما يدلّل على ولع منه فيهما ، ولذلك يجب بقاؤهما على ما هما عليه في كافّة الازمنة والعصور ! والحال انّ القضيّة ليست بهذا الشكل لانّ الرماية وركوب الخيل هما وليدا قوله تعالىٰ : « واعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة » والمهم في الاسلام ان يكون المسلمون في الحد الأعلىٰ من القوّة ، وما الرماية وركوب الخيل الّا مثالان عليها ولا أصالة لهما لانّهما يمثّلان الشكل التطبيقي لها .

و بعبارة اخرىٰ : هما كاللباس على البدن . . والاسلام لا يرىٰ لهما أصالة بل يرىٰ الاصالة للقوّة ، وهما امارتان على تلك القوّة . . علماً اننا لا نقصد من كلامنا عدم الاصالة على اعتبار انّهما من اوامر النبيّ ـصلّى الله عليه وآله ـ نفسه ، لا من اوامر الله الواردة في كتابه العزيز ! كلاّ ، إذ لا فصل بين أوامر الله وأوامر نبيّه ، فهي أوامر واحدة ، فليفهم من أراد ! والقضية : انّ الاسلام امر بشيء واراد هو تنفيذه هو بذاته ، مرّةً ، وأُخرىٰ امر بشيء مقدّمة لشيء آخر ، وما دور التفقه في الدين الّا انّه يساعد الانسان على بلوغ مراده .

وهناك مثال آخر في نهج البلاغة ، حيث ينقل انّ شخصاً جاء الى الامام أمير المؤمنين ـعليه السلام ـ وقال له : لو غيّرتَ شيبكَ يا أمير المؤمنين ، ألم يقل رسول الله صلّى الله عليه وآله : « غيّروا الشيب » فقال عليه السلام : « الخضاب زينة ونحن قوم في مصيبة » (يريد وفاة رسول الله صلّى الله عليه وآله) وكأنه يريد ان يقول ـعليه السلام ـ انّ هذا الامر ليس له أصالة وذلك لانه كان لهدف معيّن يخصّ ذلك العصر امّا الآن فقد انتفىٰ ذلك الهدف . . لقد كان عدد المسلمين قليلاً ، و بينهم شيوخ كبار قد اشتعلت لحاهم شيبا ، وعندما كان ينظر اليهم العدو يراهم قطعة بيضاء من الشيب فتقوىٰ عزيمته ، و يشتد ساعده ، وترتفع معنو يته ، ولا يخفىٰ فانّ قوّة المعنو يات لها الدور الاول في المعركة ، لذلك أمر النبيّ ـصلّى الله عليه وآله ـ الشيوخ المقاتلين ان يغيّروا شيبهم حتىٰ لا تقوىٰ عزيمة العدو حينما ينظر الى كبر سنّهم .

فهذا هدف كان يخصّ تلك الفترة بالذات ، امّا اليوم فلا وجود له ، لهذا كل شخص حر من هذه الناحية . فتغيير الشيب امر طارىء متغير ،أمّا قوّة المعنويات فهي أمر ثابت غير قابل للتغيير ، ويجب ان يبقى مفعولها سارياً في كافّة الازمنة والعصور ، وكذلك اضعاف معنويات الاعداء في حربٍ أو في سلم ، ينبغي أن تبقىٰ على حرارتها في كل عصر.. وما علينا نحن المسلمين الاّ الالتفات الىٰ هذه النقطة الحسّاسة ، ورفع النواقص الموجودة عندنا ، ولا نعمل ما من شأنه ان يستضعفنا الاعداء .. وهذا مبدأ ثابت تتفاوت أساليب تنفيذه بين فترة واخرىٰ ، وقد يكون تغيير الشيب اسلوباً ملائماً لفترة معيّنة ، وقد يكون هناك اسلوب آخر لفترة اخرىٰ ، فلا تتغير الاّ أساليب التنفيذ لا غير ، وهذا هو مغزىٰ التفقه في الدين والبصيرة فيه إذ يقدّم لنا أنجع الاساليب وأنسبها في كل عصر منبثقة من تلك الثوابت الاساسية في الشريعة .

انّ من مميّزات الاسلام انّه جعل المتغيّرات التي تتبدل في كل عصر متّصلة بالثوابت التي لا يطرأ عليها اي تغيير ، اي : انّه جعل للاحكام الفرعية التفصيلية علاقة بالاحكام المجملة في الشريعة ، ولا يستطيع ان يكشف هذه العلاقة الاّ المجتهد الذي يعطي رأي الاسلام في كلّ واقعة من خلال الملكة التي يختصّ بها . وهذه هي القوّة الحركيّة في الاسلام .

انّ من مظاهر الجمود والتزمت الذي عليه الاخباريون موقفهم من التحنّك علم انه ورد التأكيد عندنا على هذه القضيّة . ولا يخفىٰ فانّ مظاهر الجمود عند الاخباريين كثيرة ، وقد تحرر المرحوم الفيض الكاشاني من ربقتهم رغم اخباريته ، و بالاضافة الى انّه كان اخباريّاً بيد انه كان شبه فيلسوف ممّا ساعد هذا الامر على تنوير فكره ..

والتحنّك يقابلُ الاقتعاط في اللغة العربية والاقتعاط يعني شدّ العمامة على الرأس .

لقد جمع المرحوم الفيض الكاشاني بين متطلبات الروح والجسد ، واوتي قدرة على التشخيص . يقول هذا العالم : كان الاقتعاط شعار المشركين ، اي : انهم كانوا لا يتحنكّون بل كانوا يشدّونها ، لذلك فانّ عدم التحنّك يعني القبول بشعار المشركين ، وفي ضوء هذا التوجه الذي عليه المشركون صدر الامر بالتحنّك .. امّا في الحقيقة فلا موضوعية لهذا الأمر بما هو ، بل الموضوعيّة تكمن في معارضة المشركين ، وعلى المسلم الحقيقي ان لا يتمسك بشعار غير اسلامي وغريب عليه ..

لقد كان هذا الأمر ساري المفعول في وقت كان يعيش فيه اولئك المشركون بذلك

الشعار، امّا اليوم فلا وجود لهم ولا وجود لشعارهم ، لذلك لا ضرورة لهذا الشعار الذي كانت فلسفته معاكسة ومعارضة المشركين .

هذا كلام المرحوم الفيض .. فهل نسخ حكماً اسلامياً بكلامه هذا ؟

لا ، بل انه استوعب فلسفة الأمر الصادر بالتحنّك وعرف مغزاه .. وهذا هو معنى الاجتهاد الذي عبّر عنه محمد اقبال بالقوّة المحرّكة في الاسلام ، وهونفسه الذي رأى ابن سينا ضرورته في كل عصروزمان .. ولقد ميّز المرحوم الفيض بين اللب والقشور.

وهناك مثال آخر: لو سأل أحد : هل انّ لبس القُبّعة الاجنبية ، أو لبس السترة والبنطلون حرام ؟ نقول : لا ، حيث انّ هذه الاشياء قد حُرّمت في عصرمن العصوروالآن هي غير محرّمة . فمثلاً كانت القُبّعة تخصّ الاجانب في وقت من الاوقات ، وكان لبسها يعني انّ الانسان مسيحي .. لذلك كان المسلم اذا لبسها يرتكب حراماً ، ولكن بما انّها اليوم اصبحت زيّاً سائداً ، وفقدت هدفيتها ، وليست اليوم كما كانت بالأمس ؛ لذلك لبسها غير حرام .. ولا حاجة ان يأتي نبيّ من الانبياء ليحكم في هذه القضيّة ، كما انّ حكم الاسلام واحد لم يتغير.

في اعتقادي انّ الاجتهاد من معجزات الاسلام .. ولا يعني الاجتهاد ان يجلس شخص و يفتي كيف يشاء .. كلاّ ، بل له قوانينه الخاصّة به .. وكما ذكرت سلفاً فانّ الاسلام تميز بمواصفات ذاتية جعلته قادراً على مواصلة در به ، وديمومة حركيّته دون أن يكون هناك تعارض أو تضارب مع قوانينه وقواعده الثابتة ، ولسنا نحن الذين نمنحه قوّة الحركة والفاعلية .. وفيه ثوابت لا ينال منها تطور الزمان شيئاً ، ومتغيرات تستوعب ظروف التطور، ورغم انّه جعل التغيرات تابعة للثوابت ، فانّ زمام الاموريظل بيده ...

انّ التفقه في الدين من اكبر النعم على الانسان ، و به يكون هذا الانسان ذا بصيرة ووعي .

قاعدة الملازمة

قاعدة الملازمة

قال تعالىٰ : «فلولا نفر من كلّ فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم ..»[1] .

ذكرتُ البارحة انّ احد المفاهيم الموجودة في الدين الاسلامي هو التفقه . والتفقه يعني معرفة الاحكام الاسلامية معرفة عميقة ، و يعني كذلك انّ في الاسلام خصوصيات لاتنكشف الّا بالتفقه ، و بعبارة اخرىٰ : انّ في الدين ظاهراً و باطناً ، ولكي لايكون هناك لبس ، فانّ المقصود بالظاهر والباطن في حدود المسائل التي ذكرتها ليلة أمس ، وسأُذكر منها نماذج هذه الليلة . المهم ان ديننا يتميز بوجود عنصر الاجتهاد فيه ، و بفضله يمكن اكتشاف الجذور العميقة للاحكام الشرعية ، والاسرار الخفيّة الموجودة في الشريعة .

انّ من القضايا المطروحة بين المسلمين منذ الصدر الاول هي انّه لايّوجد تكليف تعبدي محض ، اي : خال من حكمة أو مصلحة . وعليّ ان اوضّح معنىٰ التعبّد .

انّ التعبد لايعني اننا لانعمل بالتكاليف الموجودة ما لم نعرف حكمتها بل علينا العمل بكل ما جاء في الدين وصحّ دليله تعبّداً سواءً عرفنا حكمته أم لم نعرفها . ولا وجود لتعبد محض في الدين اي : بدون حكمة أو مصلحة ، اذ كل ما جاء في الدين فيه حكمة خفيّة لانعرفها . وفي ضوء هذا الامر وضع العلماء قاعدتين متعاكستين أطلقوا عليهما «قاعدة الملازمة» .

---

(١) التوبة : ١٢٢ .

يقول العلماء : انّ هناك تلازماً بين ما يحكم به العقل وما يحكم به الشرع ، فكل ما حكم العقل بضرورته حكم الدين بضرورته ايضاً والعكس هو الصحيح . ولو كشف العقل مصلحة معينة (الكشف اليقيني والقطعي لا الكشف الإحتمالي والظنّي طبعاً) في عمل من الأعمال فاننا نحكم بشرعيّة هذا العمل من الناحية الدينية ، اي : نحكم بانّ الاسلام أمر بنفس ذلك العمل ، حتىٰ لولم يصلنا منه شيء . وقد افتىٰ الفقهاء في مواطن كثيرة دون حصول الدليل النقلي .. وكان افتاؤهم بما حكم به العقل . وفي الفقه مسألة تسمّى «ولاية الحاكم» اي : انّ الحاكم الشرعي له حقّ الولاية في كثيرمن الامور . فلومات شخص مثلاً ، ولم يعيّن وصيّاً له ، وليس لاولاده قيّم شرعي ، فما هوتكليفهم ؟

هنا يأتي دورالحاكم الشرعي لتعيين ذلك التكليف في حين لا وجود لآية تصرّح بهذا المعنىٰ ، ولا خبرموثوق مائة بالمائة يتطرق الىٰ هذا الموضوع . والذي نقوله هنا : انّ الاسلام دين عظيم حكيم لم يترك مصالح الناس دون تكليف ، وانيما حكم الشارع حكم العقل . ولا يعني هذا انّ الشارع عندما يعطي حكماً في قضيّة معيّنة فانّ العقل يبادر الى اعطاء نفس الحكم ، فلوقال الشاعر ان لحم الخنزيرحرام ، فانّ العقل يفهم ايضاً انّه حرام ، لكن المقصود غيرهذا ، بل المقصود انّ في كل حكم من احكام الشارع رمزاً لوادركه العقل فانّه يصدّقه .. فهذه هي قاعدة الملازمة ، وفي ضوء هذه القاعدة يقول علماء الاسلام : انّ كلّ حكم من احكام الاسلام الواجبة أو المستحبة او المحرمة أو المكروهة فيها حكمة ومصلحة ، أوفيها دفع مفسدة ، ولهذا تتميز هذه الاحكام بخصوصيتها الحكيمة .. ولا يشرّع الاسلام شيئاً اعتباطياً ، ولا يأمر بشيء جزافاً ، وهذه الآصرة الصميمية بين العقل والاسلام ، لا وجود لمثلها في الاديان الاخرىٰ ، ولوسئل علماء الاديان الاخرىٰ عن العلاقة بين الدين والعقل فانّهم يجيبون بالنفي ، و ينكرون ايّة علاقة بينهما . فالمسيحية مثلاً تبدأ بالتثليث ولها اعتقاداتها الخاصّة بها ، ولوقيل لأ تباعها : لا تتفق أقوالكم ومدّعياتكم مع العقل ، لقالوا : وان كانت لا تتفق ، ثمّ ماذا ؟

فهؤلاء عندما يردّدون كلمة التعبد فانهم يقصدون ترك العقل جانباً ، والتسليم الأعمىٰ أمام الدين .. في حين لا يوجد في الاسلام تسليم أعمى ، أوتسليم يقف ضدّ العقل ، ولكن هناك تسليم لما فوق العقل وفق المعنى الذي ذكرته سلفاً وهونفسه التسليم المطابق لحكم العقل .. والعقل يقول أيضاً اذا لم يكن عندك علم بشيء فاسمع كلام من هوأعلم منك . وهذا

هو الذي أضفىٰ على الاسلام خصوصية الخلود . اي ان في الاسلام مرونةً لا نظير لها ولا مثيل ، وهي ما يصطلح عليه الفقهاء بالمهمّ والاهمّ . فلووقف الانسان بين حكمين من الاحكام ولم يستطع القيام بهما كليهما ، فعليه هنا ان يقدّم الأهم على المهم .. وهناك مثال يذكر دائماً لطلبة العلوم الدينية في صدد الأهم والمهم .. يقولون : لو كان هناك مكان لا يرضى صاحبهُ الدخول فيه ، وانت ترىٰ فيه حوضاً قد سقط فيه طفل ولا أحد غيرك ينقذه ، فهنا أنت بين امرين : امّا ان تدخل المكان رغم عدم رضا صاحبه لتنقذ الطفل من الغرق ، وامّا ان تقف لتتفرج ويموت الطفل .. فالعلماء يقولون : عليك ان ترىٰ لمن تكون الحرمة اكثر للروح ام للمال .. ولا بدّ انّها للروح .. اذاً عليك دخول المكان وانقاذ الطفل حيث تضّحىٰ بعمل صغير من اجل عمل كبير، وتقدّم بذلك الاهم على المهمّ .

وهناك مثال آخر : لو دهست امرأة وأُريد نقلها الىٰ المستشفىٰ ، فهل ينتظر حتىٰ يصل أحد محارمها و ينقلها ؟ فربّما تموت ، أو لا ، تنقل الى المستشفىٰ من قبل غير محارمها ؟ وهنا تظهر مسألة ، وهي انه لا يجوز مس جسد غير المحارم لاسيما وانها اذا نقلت الى المستشفىٰ فستكون تحت مبضع الجرّاح ، وهو أجنبي اي : من غير محارمها ، واذا كانت تحت مبضعه فيستدعي هذا تعريتها ، فما هو الموقف الصحيح تجاه هذه الحادثة ؟ واذا اقترب مخاض امرأة حامل ولم تنفعها القوابل حتىٰ وصلت بها الحاجة الىٰ ان يجري لها طبيب جرّاح عمليّة قيصريّة ، فماذا نفعل ؟

ففي مثل هذه الحالات لا بدّ من اظهار المرونة وعدم التزمت والاصرار الى الحدّ الذي يفضّل الانسان موت مريضته على انقاذها باجراء عمليّة لها . وربّما لا تقبل المرأة نفسها أيضاً .

وهكذا كله تزمت وتحجر ، فلابد من الاذعان للواقع وتسليم الامر بيد الطبيب علماً انّ الاسلام يُفضّل انقاذ روح الانسان على مسألة لمس الجسد من قبل غير المحارم ، و يرىٰ انّ الاولى هي الاهم .. وهذه امور يحكم بها العقل أيضاً لكن لا بُدّ من التذكير انّه قد يكون هناك خروج عن الحدّ الشرعي أو يكون هناك تجاوز متعمّد على الاحكام الشرعية ، كأن تطلب المرأة الماخض رجلاً يولّدها ، لا امرأة ، مع وجود المرأة . فهذا التوجه يرفضه الاسلام ولا يقرّبه .

وقد ذكرت مرّةً انّ النساء اللواتي يدّعين المساواة مع الرجال ، لماذا لا يسلّمن بهذه القضيّة ، اي : قضيّة القبالة ؟ ولماذا لا يردن الّا الرجال لقبالتهن ؟ فأين المساواة التي يتشدّقن

بها ؟ واذا لم يكن فرق بين المرأة والرجل ، فليقبلن بالمرأة قابلةً ، وما القبالة الآ مهنتها لا مهنة الرجل ! ولعلّ هناك من يقول انّ سبب تخلف المرأة هو لانّ الأعمال لم تفوّض اليها على مرّ التأريخ بل فُوّضت الىٰ الرجل ، ولو كانت قد فُوّضت إليها لتفوّقت ولمع نجمها .. ولو قال احد : انّ المعمل لا يصلح لادارته الآ المرأة ، أو التمريض لا تصلح له الآ المرأة ، لقالوا : لا ، لا فرق في ذلك بين المرأة والرجل ، ونقول : انّ من الأعمال المعروفة التي تختص بها المرأة هي القبالة ، فلقد كانت مهنة المرأة منذ فجر التأريخ ، وذلك لانّ العمل يخصّها وحدها باعتبار انّ الرجل لا ينجب اوّلاً ، ولانّ المرأة نفسها مارست هذا العمل منذ البداية ثانياً .. فلماذا اذاً تذهب النساء عند اقتراب مخاضهنّ الىٰ الاطبّاء ؟

ألا يدلّ هذا على تفوق الرجل على المرأة ؟ علماً انّي لا اؤيّد كلام من يقول بافضليّة الرجل على المرأة في القبالة ، بَيدَ انّي توخيّتُ ان اثبت بطلان أمثال هذه التخرصات الجوفاء ، وانّها تنطلق من الهوى والهوس . وليس هدفي من المثال الذي ذكرته القول بعدم وجود فرق بين الرجل والمرأة ، أو تشجيع المرأة على الذهاب الى الطبيب عند ولادتها .. كلاّ ! بل يجب ان تكون المرأة هي القابلة ، ولكن لو فرضنا انّ السكّين قد بلغت العظم ، وضاقت كلّ السُّبل ، حتىٰ تصل الحالة الىٰ خطر الموت ، فلتذهب تلك المرأة الى الطبيب ولا مانع في ذلك .

انّ من القضايا التي يطرحها الطلبة الجامعيّون ، والتي أصبحت ذريعة بيد البعض للتهجم علىٰ الدين الاسلامي الحنيف هي انّ الاسلام لا يساير التطور ، ولا ينسجم مع الواقع المعاصر، ولو أراد المسلم ان يتمسك بدينه و يتقيد به ، فانه يتأخر عن ركب الحضارة .. و يضربون مثالاً على ذلك بعلم التشريح وهو أحد فروع علم الطب ، ومن أركانه الاساسية منذ القدم .. وتدريسه مقرّر في كليّة الطب ، كما انّه موجود في كافة أرجاء العالم ، وضرورة العلم وحدها تقتضي وجوده .. وكان يُطبّق تارة على جسم الانسان ، واخرىٰ على جسم الحيوان ، علماً انّ تشريح جسم الحيوان مفيد ، لكن عطاؤه العلمي قليل اذا ما قورن بتشريح جسم الانسان ، كما انّه لا يفي بالغرض المطلوب ، ولا يتمخض عن نتائج جيّدة كالنتائج التي يتمخض عنها تشريح الانسان ، فاذاً يُفضّل تشريح الانسان لفائدته العظيمة ونتائجه العلمية الدقيقة النافعة .. فكيف يتلاءهم هذا مع موقف الاسلام الداعي الىٰ احترام الميّت وعدم اهانته ، وله آداب خاصّة به تعتبر من ضمن الواجبات الكفائيّة ، مثل التعجيل بتجهيزه ، وعدم

تأخير جنازته ، والمبادرة الى غسله ، وتكفينه ، ودفنه ؟ وهذا ما يتنافى مع الاهداف المتوخاة من علم التشريح .

هذه ليست قضيّة مهمّة ذات بال ، وهي من القضايا التي تطرقت اليها سلفاً . انّ الاسلام يؤكد على احترام جسم المؤمن بعد وفاته (من الطبيعي انّه ينبغي دفن كلّ ميت حتى لو كان كافراً رغم عدم جواز غسله وتجهيزه ، ولكن يجب دفنه وعدم ترك جثته دون مواراتها الثرىٰ) وأنتم تقولون انّ علم الطب يتوقف على التشريح ، حيث لا يتسنى معرفة كثير من الامراض وطرق معالجتها الّا به ، ونحن نقول انّ الطب ـ من منظور الاسلامي ـ واجب كفائي كما انّ دفن الميت واجب كفائي . ولا بُدّ ان يكون بين الناس من يتخصص بعلم الطب ، وكلّ عمل يتوقف عليه تشخيص المرض ، أو وصف الدواء فهوبمثابة مقدّمة الواجب ، ايّ : انّه واجب أيضاً ، لانّ مقدّمة الواجب واجبة .. فنحن اذاً الآن بين واجبين في الاسلام ، فما هو موقفنا حيال هذه الواجبين ؟

انّ على طالب الطب ـ اذا كان مسلماً ـ ان يعلم بانّه يؤدّي واجباً كفائياً من خلال دراسته . وانّه يمكن ان يحقّق هدف الطب في التشريح من خلال تشريح جثة انسان غيرمسلم ، وما أكثر الاجانب المستعدين لان تكون جثثهم بعد موتهم تحت تصرف علم الطب ! لذلك يتحقق هدف علم الطب من خلال تشريح جثث هؤلاء .. ولعلّ هناك من يقول : ان هذا غير ممكن ، اي : انّ هؤلاء الاجانب غير مستعدّين ، أو لا يمكن ان تكون جثثهم في متناول ايدينا ، فهل انّ تقدم علم الطب أهم ، أو احترام جثّة المسلم ؟ والجواب هو : انّ تقدم علم الطب أهم ، ولا بُدّ منه كعملٍ جبّار مفيد على حساب حُرمة جثّة المسلم ، بيد انّه ينبغي التذكير انّ جزئيات وتفاصيل كثيرة تتعلق بهذا الموضوع ، يستطيع المجتهد بحثها ودراستها .

سئل أحد العلماء المعاصرين عن موضوع التشريح واحتمال عدم توفر جثث غير المسلمين ، فأجاب : لو فرضنا عدم توفر جثث غير المسلمين بمقدار كافٍ ، وكل ما موجود هو جثث المسلمين فقط . هنا يجب وضع ضوابط معيّنة لجثثهم طبقاً لشخصيّاتهم عندما كانوا على قيد الحياة فكلّما كان المتوفىٰ ذا شخصيّة اسلامية مرموقة متميّزة قلّ عرض جثته على التشريح .. أي يكون احترام جثّة المؤمن كاحترامه عندما كان حيّاً . فلا يتساوىٰ مثلاً احترام المرحوم آية الله العظمى السيّد البروجردي مع احترام غيره من عامّة المسلمين ، لانّ هتك حرمته

تعني هتاك حرمة كافّة المسلمين باعتباره زعيمهم ، ومثلهم الأعلىٰ ، وقدوتهم العظمىٰ ، فمن المقطوع به ان يكون احترام جثّته اكثر من احترام جثث غيره . ولو فرضنا وجود آلاف الجثث مع جثّة شخصيّة مثله فان تلك الجثث تُشَرّح وجثّة هذه الشخصيّة لا تُشرّح .. وكذلك هناك فرق بين جثث الموتى العاديّين حيث انّ الجثّة التي يكون اولياؤها أحياء وحاضرين عندها تختلف عن الجثّة المجهولة الاولياء .. فليتبصّر المتبصّرون حيث انّ معادلات الاسلام دقيقة ومركّزة ، وانّ قاعدة الأهم والمهم قاعدة موضوعيّة منطقيّة في قاموسه إذ ينادي بتقديم الأهم على المهم عند الضرورة ، وهذا ما أضفي عليه مرونة اكثر ، وهي صفته التي يتميّز بها منذ ان اشرقت انواره على البشريّة ، ولم نكن نحن الذين لصقنا به هذه الصفة بل هي طبيعته التي تفضّل بها على بني الانسان .. ولو كنّا قد اردنا أن نقحم به المرونة بالقوّة فما كان من حقّنا هذا ، فالاسلام هو الذي منح نفسه تلك الصفة ، وهو الذي قدّم لنا نفسه بتلك الصفة وفق حساب دقيق . وفي الاسلام مسألة غير مسألة الاهم والمهم ، وهذه المسألة هي وجود الاشكال المتنوعة للاحكام الصريحة الواردة حسب الظروف المختلفة ، وفي درجة لا نظير لها من التساهل والتسامح ، فمثلاً يأمر الاسلام بالصلاة والصوم ، و يأمر بالوضوء والغسل قبل الصلاة ، وهذه كلّها من الواجبات المؤكّدة .. وتتجلّى عظمة الاسلام هنا عندما يُعطي تلك الواجبات اشكالاً مختلفة حسب الظروف ، فمثلاً يقول : عندما لا يستطيع الانسان ان يصلّي وقوفاً لِعلّة فليصلّ جالساً ، وان لم يقدر ان يصلّي من جلوس فليصلّ وهو مضطجع في فراشه مكتفياً بالذكر فقط ، ولو أمره الطبيب بعدم التكلم فليصلّ بالايماء ، ولا حاجة الىٰ العناد واللجاجة في مثل هذه المواطن .

ينقل انّه جاء أحد العلماء الىٰ طهران للتداوي قبل سنين حيث اجريت له عمليّة جراحية في عينه ، وكانت ناجحة ، وقبل خروجه من المستشفىٰ منعه الاطباء من ايصال الماء اليها ، لكنّه لم يمتثل لعناده وتزمته ، وكان يقول : انّ الاطباء لا يفهمون غير التضميد وخياطة الجرح . بعد ذلك ذهب الى قم دون اذن من الطبيب ، وهناك ذهب الى احد حمّامات المدينة ودخـــل في حوض فيه ماء وسخ ، وغسل جسمه بما فيه عينه ، ممّا ادّىٰ الى التهابها حتىٰ عميت ، وفقد بصره على اثر ذلك . فهذا رجل قد خالف حكم الاسلام ، لانّ الاسلام يقول اذا كان في الوضوء ضرر فليتيمّم الإنسان اذا اراد الصلاة ، ولو خالف وتوضأ فصلاته باطلة .. ولو

قال الطبيب لاحد : ان الصوم مضرّ لك ، أو فيه خوف الضرر ، فليس له الحق ان يعترض ، ولو خالف وصام ، فصومه باطل ، وعليه قضاؤه .

لذلك فانّ لاحكام الدين اشكالاً مختلفة يحار فيها الانسان ، وما هذه الاشكال الّا بسبب اختلاف المصالح ووجود حساب الاهم والمهم .. ففي السفر مثلاً يأمر بالصلاة قصراً ، و ينهىٰ عن الصوم . قال تعالىٰ : «فمن كان منكم مريضاً أو علىٰ سفر فعدّة من ايّام اخر»[1] ولم هذا الحكم ؟ فالآية التي بعدها تجيب : «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر»[2] وانّها حقّاً الشريعة السهلة السمحاء ، ولكنّ اكثر الناس لا يؤمنون ولا يرضون .. وقد كان في عصر صدر الاسلام ثلّة منهم ، حيث يحدّث التأريخ ان معركة بدر كانت في شهر رمضان لكنّ النبيّ الاكرم ـصلّى الله عليه وآلهـ أمر المسلمين بالافطار لانهم في سفر ، فاعترض بعضهم بالقول : كيف نفطر في شهر رمضان ؟ وامتعضوا من عدم أداء صيامهم ، والحال انّه لا ينبغي لهم ان يمتضعوا لانه حكم سماوي ، عليهم ان يطيعوه لوجود مصلحة خافية علينا .

نقل عن المرحوم الشيخ عبدالكريم الحائري انه كان مريضاً ، وقد تقدم به السن ، لكنه كان يصوم في شهر رمضان احياناً . فقالوا له : كيف تصوم وانت لا تجوّز الصوم في مثل هذه الحالة ؟ فقال : هذا صحيح . لا يجوز الصوم بيد انّ الحسّ الديني الذي أحمله لا يسمح لي بالافطار . علماً انّ الفقه يقول : لو خاف الانسان على نفسه الضرر فلا يجوز له الصوم ، حتىٰ لو لم تكن هناك مشقّةٌ عليه في الصوم ، وهذا الحكم يشمل الشيخ الكبير والمرأة العجوز .

هذه الامور وأمثالها تبيّن لنا كيف انّ الاسلام نفسه ينطبق على كل عصر ، و يصلح لكل زمان دون الحاجة الى تدخلنا لجعله كذلك .. لكن لا يخفىٰ اننا قد نقوم بأعمال لا تنسجم ومنطق الاسلام كرفع عبارة «حي على خير العمل» من الاذان ، ووضع عبارة اخرىٰ مكانها أو نصلّي باللغة التركية . فهذه الأعمال لا تسمّىٰ متطلبات العصر ، أو تطورات الزمن ، بل هي واقعاً جهلٌ محض حيث انها لا تدلّ على علم ومعرفة ووعي ، وذلك لانّ الاسلام أعدّ لكلّ شيء حسابه وفيه من الحكم والاسرار ما لا سبيل لنا الىٰ الاستفادة منها الّا ان نكون متفقهين واعين .

---

(١) البقرة / ١٨٤ .

(٢) البقرة / ١٨٥ .

الإمام عليّ (ع)

الشخصيّة المتألّقة دوماً

الامام عليّ الشخصيّة المتألّقة دوماً

قال تعالىٰ : «والشمس وضحيٰـها والقمر اذا تليٰـها » [1] .

لقد تطرقنا في الليالي الماضية الى الحديث عن القوانين الثابتة والقوانين المتغيرة ، وقلنا انّ القوانين الاصلية والفطرية مبادىء ثابتة لاتقبل التطور والتبدل ، امّا القوانين الفرعية فوضعها يتعلق بالظروف الموجودة في كل زمان ومكان ، وهي في تبدل وتطور بحكم تبدل الظروف وتطورها . ومثل تلك القوانين بلونيها كمثل الشجرة ، فالشجرة ذات جذر وجذع واغصان . والذي يقومّها هو جذرها وجذعها حيث يشكّلان الاساس المحكم لها ، وهما باقيان ما تعاقبت السنون والاعوام ، امّا أغصان الشجرة واوراقها فلا بقاء لها على مرّ السنين إذ هي معرّضة للتغير في كل عام ، ولا تبقىٰ أوراق السنة الماضية على حالها في السنة التالية . ولا يخفىٰ فان الجذر والجذع هما اللّذان ينتجان تلك الاوراق والاغصان .

هذا المثال يقرّب لنا فهمنا للقوانين . . والحديث عن القوانين متشعب لا تستوعبه جلسة أو جلستان ، والقاعدة تقتضي ان اتابع المواضيع التي طرحتها في الليالي المنصرمة لكن هذه الليلة هي ليلة التاسع عشر من شهر رمضان وهي من ليالي الاحياء ، وفيها مناسبة جرح الامام علي ـ عليه السلام ـ فلا اجد من الانصاف ان نتطرق الىٰ حديث آخر لا يمتُّ لهذه المناسبة بصلة ، واشعر انّه مما يبعث على الاسف ان لا نطرح موضوعاً يتعلق بامام المتقّين عليّ بن ابي طالب ـ عليه السلام ـ .

---

(١) سورة الشمس : ١ ، ٢ .

انّ ما اريد ان اتعرض له هذه الليلة يرتبط بالمواضيع السابقة الى حدٍّ ما وكذلك له علاقة بالمناسبة التي نعيشها هذه الليلة.

لقد ذكرت فيما مضى انّ القوانين تنقسم الى قسمين: قوانين ثابتة، واخرى متغيرة. وارى انّ هذا التقسيم ينطبق على الشخصيات الانسانية كذلك حيث انّ بعض الشخصيات ثابتة، و بعثها الآخر متغيرة. واقصد من وراء ذلك انّ بعض الشخصيات تخصُّ عصرها، وتعيش لزمانها فقط، في حين انّ بعضها الآخر يبقى متألّقاً مهما تعاقبت الازمنة والعصور، ولا يزيدها تجدد الدهور الّا تجدّداً.

انّ بعض الشخصيات تتألّق في زمانها، وتجذب اليها الانصار والمحبّين، ولكن عندما تتغير الظروف تفقد تلك الشخصية اعتبارها، و يضعف انشداد الانصار اليها إذ يصيبهم الفتور، ولا أُريد ان اذكر مثالاً هنا لانكم تستطيعون التشخيص.

انّنا نلاحظ بروز بعض الشخصيّات وتألّقها في حقل من حقول الحياة الى الحد الذي يذيع صيتها في الآفاق فيكثر الثناء والاطراء عليها، وقد يستغرق ذلك عشر سنين او عشرين سنة أو خمسين، ولكن سرعان ما تأفل فيعفى عليها الدهر. وقد تكون سياسية أو علميّة، والتأريخ زاخر بالامثلة والشواهد حيث انّ هناك شخصيات علميّة، كان العلماء انفسهم يقدّسونها، والناس يعبدونها، ولكن سرعان ماانكدر نجمها وذوى بريقها.. ولا اظن شخصاً في هذا الميدان كارسطو، الفيلسوف اليوناني المعروف حيث كان رياضيّاً، وفلكيّاً، وطبيباً، و بيولوجيّاً.. ولمّا ظهر في عصره اطلقوا عليه لقب «معلّم البشر»، وهذا يعني انّه كان استاذاً في كافّة العلوم، وكان متضلّعاً فيها، و بلغت شخصيّته حدّاً لم يجرأ فيه فيلسوف أو عالم أن يبدي رأياً مخالفاً لرأيه. ولو كان كذلك لاعترضوا عليه بسبب رأيه المخالف، ووصل الامر حدّاً بحيث انّ ابن سينا يذكر في مقدّمة الحكمة المشرقيّة قائلاً: لو كانت لنا أحياناً آراء تخصّنا نحن، فلا نجرأ على اظهارها على انّها آراؤنا، بل كنّا نذكرها في طيّات آراء ارسطو نفسه حتى يقبل بها الناس، ولو لم نفعل ذلك لما تقبّل احدٌ منّا ايّ كلام تُشمّ منه مخالفة لارسطو. وكان ابن رشد الاندلسي متعصبّاً لآراء ارسطو، وله موقف عدائي من ابن سينا بسبب مخالفته لآراء ارسطو في كثير من المواطن، واظهاره لآراء مستقلّة من عندياته.

يقول الاوربيّون انّ ارسطو هو الذي عرّف الطبيعة وتكلم عنها. وقد عرفوا ذلك من

خلال ابن رشد الذي قام بتعريفه لهم عندما انبرىٰ الىٰ ترجمة آثاره وشرحها وذلك في القرن الحادي عشر والثاني عشر حيث موّنهم بتلك الافكار خلالهما ، ولعلّ التطور الحاصل في العلوم الجديدة وليد تلك الجهود التي بذلها ابن رشد في ترجمته وشروحه ، ولكن هل ظلّت شخصية ارسطو خالدة ؟

لا ، بل افل نجمه ورمست افكاره ، وقد ظهر في شرق الارض اناس نسفوا كثيراً من تلك الافكار بعد ما كانوا يكنّون لها فائق الاحترام ، وجاؤا بافكار جديدة حلّت محلّها . وكذلك في غرب الارض حيث بلغ الامر ان بالغوا في اعتباره مسؤولاً عن الانحراف الفكري للبشريّة ، ووصموه بالتخلف عندما نسبوا الانحطاط العلمي اليـه إذ ذكروا انّه هو سبب الانحطاط العلمي للانسانية بتأخيرها الفي سنة عن الركب العلمي والحضاري .

والذي نستنتجه من كلّ هذا انّ ارسطو قد نُسخ ولم يعدّ علماً من أعلام الفكر والفلسفة كما كان في عصره ، وهكذا أمثاله .

اننا لانستطيع ان نعثر على عالم من العلماء من الاسلاميين وغيرهم لم يكن قد نسخ ثمانون بالمائة من افكاره على الاقل ، فهذا ابن سينا قد بليت نصف افكاره ، وهذا ديكارت الذي اصبحت آراؤه موضع هزء وسخرية ، وغيرهم كثير .

اننا عندما نطالع «العدّة» للشيخ الطوسي ونقارنها «برسائل» الشيخ الانصاري نجدها لاتصلح إلّا ان تبقىٰ محفوظة في المكتبات كآثار قديمة إذ فقدت قيمتها ككتاب من الكتب الدراسيّة ، وهكذا كتب الآخرين من أمثال الشيخ الصدوق والمحقّق الحلي ..

انّنا لانستطيع ان نعثر على عالم من العلماء ظلّ كتابه خالداً حيّاً مائة بالمائة .. ولقد جاء علماء طرحوا أفكاراً نسخت افكار من قبلهم اوتوماتيكياً ، علماً انهم لم يكونوا قاصدين ذلك بل الافكار نفسها تنطق به .. ولكن هناك رجال عظام لم يشملهم النسخ والبلى ، ولم يعيشوا لاعصارهم فقط ، ولم يتألّقوا في فترة من فترات التأريخ ، وعليّ واحد من هؤلاء ، فهو الشخصيّة المتألّقة دوماً وأبداً .

انّ الآيتين اللتين تلوتهما في بداية الحديث ، هما «والشمس وضحيٰـها والقمر اذا تليٰـها» ، والذي يبدو من الآيتين انّ الشمس والقمر هما هذان الكوكبان اللذان نراهما ، ولكن ورد في بعض الروايات تأويل لطيف لهما يذكر انّ الشمس رسول الله ـ صلّى الله عليه

وآله وسلم ـ ، والقمر عليّ بن ابي طالب ـ عليه السلام ـ ، وهو تابع له يقتبس من نوره .

وقد قال رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ في شأن القرآن : «القرآن يجري كما يجري الشمس والقمر» والمقصود هو كما انّ الشمس والقمر غير ثابتين في مكان معيّن ينيرانه فقط ولا يتجاوزانه ، فالقرآن كذلك لا يخصّ قوماً معيّنين ، ولا منطقة معيّنة ، ولا فترة محدّدة ، بل يشعّ دائماً وابداً في الازمان والاعصار ، وهو نابض بالحياة ما تعاقب الجديدان ، ولا تتصوروا انه يموت لو أعرض عنه طائفة من الناس لانّ الله يُيسّر له قوماً آخرين يحتضنونه كأفضل ما يكون ، لا سيما وانّ احد اِعجازات القرآن خلوده وحيويته بالرغم من التفاسير العديدة التي تناولته ، و بعبارة اخرىٰ موقعه في ظل تعدد التفاسير ، فهو قد نزل قبل اربعة عشر قرناً ، واوّل من فسّره هم الطبقة الاولى من الصحابة كعبدالله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، بعد ذلك فسّرهُ التابعون مثل السدّى ، وابن شبرمة ، وهكذا في كلّ مرحلة يظهر علماء يفسّرونه بحسب قابليّاتهم المختلفة . فعلوم الناس في تطور واستعداداتهم متفاوتة ، ولقد جاءت تفاسير نسخت ما قبلها من التفاسير ، وعندما يظهر تفسير جديد ، يرىٰ الناس انّ التفاسير السابقة لم تعد صالحة للقراءة والمطالعة ، امّا القرآن نفسه فهو نابض بالحيوية في كلّ عصر ، وانّ التفسير الذي يتناوله اليوم يناسبه اكثر من تفسير الأمس ، فهو في تقدم لا تزيده كثرة التفاسير وتعاقب السنين الاّ حداثة وأناقة .. ولقد فسّره العلماء في القرن الاول الهجري وكذلك في القرن الثاني ، وعندما اتّسع نطاق العلوم في القرن الثالث ظهرت تفاسير جديدة .. وفي عصرنا الحاضر تفاسير جمّة يراها الناس افضل من سابقتها لملائمتها الواقع المعاصر اكثر ، وعندما يطالعونها يهزأون بتلك التفاسير المندثرة التي لا يمكن احياؤها ابداً ، وهكذا تتصرم القرون ، والقرآنُ على ما هو عليه في تقدم مطّرد رغم كثرة التفاسير التي تبلىٰ كلّما انطوت السنون ، ولا غرو فهو كتاب الله الخالد ، وكل من طالعه من العلماء والمفكّرين يلتذّ و يشعره انّه من الكتب الممتعة الجديرة بالمطالعة .

يتحدث المستشرق المعروف ادوارد براون في الجزء الاول من كتابه «تأريخ الآداب» عن التأريخ الفكري للايرانيين متطرقاً الىٰ وضعهم في عصر صدر الاسلام ، ولا يخفىٰ فهو يخلط بين الغثّ والسمين في كلامه ، وله كلام جيّد في بعض المواطن ، وفي بعضها الآخر رديّ لانّه ملىء بالاخطاء والاشتباهات ، ولا يمكن لشخصي اجنبي مثله ان يصيب في مثل هذه الأمور ، بل لا بدّ له من الخطأ بحكم انتمائه الىٰ ثقافة أُخرىٰ . ومن الطبيعي أن يبدر الخطأ من

شخص يلج ابواب حضارة غريبة عليه ، ولا ننكر انّ لهذا المستشرق كلاماً موزوناً في بعض المواطن .

يقول هذا المستشرق : لقد حاولت في كتابي هذا أن اتجنب خطأً فادحاً وقع فيه غيري من ابناء قومي وجلدتي . وهذا الخطأ هو تسميتهم للقرنين الاولين للاسلام في ايران بقرني السكوت (و يريد هنا السيرجان ملكم الذي كتب تأريخ ايران) الى أن جاءت حكومة الطاهريين و بعدها حكومة السامانيين ثم الصفّاريين ، وخلال ذينك القرنين لم يؤسس الايرانيون حكومة لهم بل كانت الحكومة بيد العراقيين ، ومعنى انّهم لم يؤسّسوا حكومة اي لم يكونوا هم الملوك أو الخلفاء فقد كان بايديهم نوع من السلطة لعلها كانت تعادل سلطة الخليفة نفسه ، وكان بينهم وزراء يتمتعون بسلطة كسلطة الخليفة نفسه مثل البرامكة وآل سهل . والقصد من اطلاق كلمة السكوت على القرنين الاولين هو انّ الاسلام قد فرض فرضاً على ايران ، وانّ الشخص الايراني لم يقبله رغبة وطواعية حيث كان منطق القوّة سائداً و بما انّ الخليفة لم يكن من الايرانيين أنفسهم لذلك خيّم السكوت على ايران خلال تلك الفترة .

هذا كلام السير جان ملكم الانجليزي . وقد اخرج كتاباً بعنوان «قرنا السكوت» وقد صُبّت الجهود فيه للطعن بالاسلام ومهاجمته . وظل على حاله الى ان تصدّى له شخص انجليزي آخر فخطّأ ما جاء فيه ، لكن الايرانيون[1] انفسهم لم يرعووا عن غيهم وظلّوا متمسّكين بكلام الاوّل ، يقول ادوارد براون : ولكنّي احاول أن لا ارتكب مثل هذا الخطأ ، لاننا لو ألقينا نظرة على تأريخ ايران خلال تلك الفترة فاننا لم نجد شعباً في نشاطه وحيويته كالشعب الايراني لهذا فالقرنان ليسا قرني السكوت بل قرني النشاط والحركة .

هذا هو الصحيح لاننا لو استقرأنا تأريخ ايران خلال العصر الساساني وحتى ما قبل العصر الساساني ، حيث كانت ايران في اوج عظمتها من الناحية السياسية والعسكرية ، وكانت منافسة للامبراطورية الرومانية لما رأينا فيه علماء بما يعادلون العلماء الموجودين خلال نصف تلك الفترة . والواقع ان ذلك العصر[2] هو عصر تحرر الشعب الايراني ، ولا أريد أن اُدافع عن الحكم العربي الذي كان بنو اميّة على رأسه لانّ وضع هؤلاء واضح بالنسبة الينا .

(١) المقصود هنا الكتّاب الايرانيون القوميون ، والكتّاب التابعون لبلاط الشاه المقبور .

(٢) العصر الذي يشمل القرنين آنفي الذكر .

لكن رغم وجودهم فانّ الشعب الايراني تمتع بحريّة من الناحية العلمية والثقافية لم يعهدها من ذي قبل . ولبراون نفسه كلام آخر يتعلق بزرادشت . يقول : كيف تمكن الاسلام ان ينسخ الدين الزرادشتي ؟ وكيف حلّت الابجدية العربية محل الابجدية البهلوية ؟ و يردف قائلاً : ولعل من المستشرقين من يتشبث بمنطق القوّة حيث يجعله الوسيلة الوحيدة الى ذلك لكن التأريخ يدلل على انّ الشعب الايراني ترك الدين الزرادشتي رغبة وطواعية وتمسك بالاسلام واختاره ديناً له . و يضيف : انّ الحقيقة هي هذه بعينها ، لاننا كاجانب ـ لا مسلمين ولا زرادشيتين ـ لو وضعنا القرآن امامنا ، ووضعنا كتاب الزند وتفسيره (وهي ما اثر عن زرادشت نفسه كما قيل في حين لم تكن لزرادشت اية آثار) فاننا سنلاحظ عدم وجود نسبة بينهما ، ولا مجال اصلاً للمقارنة بينهما وشتّان بين الاثنين ، فالقرآن كتاب حيٌّ خالد ولا زال حيّاً حيث انّ الانسان لا يرىٰ نفسه مستغنياً عنه ، امّا آثار زرادشت فانّها ليست شيئاً ذا بال يستحق الاهتمام والمطالعة .

وكان الايرانيون واعين على مرّ التأريخ حيث كانوا يدركون عدم وجود نسبة بين الاثنين ولا مجال للمقارنة بينهما لهذا حقّ لهم ان يختاروا القرآن وهذا دليل على وعيهم .. ودليل على انّ الشعب الايراني رغم تعلقه بقوميته ، لكن لم يعم التعصب القومي عينيه عن رؤية الحقيقة والتمسك بها ، اي : انّه لم يسحق على الحقيقة استجابة للتعصب القومي . ومن الناحية القوميّة فالمسلّم به انّ الايرانيين لم يلتقوا مع العرب ، ولم يكونوا على وئام معهم في يوم من الايام ، وهذا طبيعي لانهما ينحدران من عنصرين مختلفين ، كما اننا نلاحظ هذه الحقيقة جليّة في واقعنا حيث نشاهد ان اهل قريتين كلّاً يتعصب لقريته ، وكذلك اهل مدينتين أو بلدين ، فكلّ شريحة تتعصب لقريتها أو مدينتها أو بلدها ، وهذه من طبيعة الانسان ، ولا يمكن سلبها منه ، ولم يتحرر منها الّا افراد قلائل ، وهناك من الشعوب من يعميه التعصب الى الحدّ الذي لو رأى الحقيقة بعينها بعرض عنها ، ومنها من تحرر من التعصب اي انها لم ترتّب اثراً على تعصبها ، والشعب الايراني واحد من هذه الشعوب وله الفخر انّه لم يكن متعصباً ، فهو لم يرفض القرآن باعتبار عدم نزوله في بيئته ، ولم يعرض عن الحقيقة ، ولم يعلن عن رفضه لكل شيء حسنه ورديئه على اعتبار انه خارج عن اطاره ، بل سلّم للحسن واعرض عن الرديء حتى لو كان الرديء يعيش في وسطه ، وقد واجه فعلاً كل تمرد على الحق والحقيقة انبثق من بين

بعض افراده ، فقد حارب « المانوية » ، وحارب « بابك الخرّميّ » وقتل « افشين » وهو قائد ايراني .

وهذا ان دلّ على شيء فانّما يدل على انه قد اثبت وعيه من خلال اذعانه للحقيقة حتّى لو كانت خارجة عن اطاره ، ورفضه للباطل حتّى لو انبثق من بين أعضائه ، وما قبوله بالاسلام الّا دعمٌ لما ذكرناه ، وتلك ـ لعمر الله ـ امارة على وعيه وادراكه . على اي حال فقد كان هدفي ان اوضح رأي براون بالنسبة الى القرآن .

وامّا حديثنا عن أمير المؤمنين عليّ بن ابي طالب ـ عليه السلام ـ فلا يستوعبه مقال ولا كتاب ولا يفيه أحد حقّه .... انّ عليّاً ـ عليه السلام ـ من الشخصيات الخالدة أبد الدهور ، ولم يكن ابن زمانه بل هو في كلّ عصر وزمان ، وله شخصيّته الفذّة ، وله صفاته وحالات المدهشة ، وله كلامه البليغ ، لم يزده تعاقب العصور الّا حداثةً وتجدّداً .

اذاً أصبح واضحاً انّ الشخصيات قسمان : شخصيات خالدة ثابتة ، وشخصيات لعصرها فقط ومتغيرة ، وعلي من الصنف الاوّل .. وقد شغف به حتّى غير المسلمين فهذا جبران خليل جبران الكاتب المسيحي اللبناني المعروف ، الذي سافر الى اميركا وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، وله كتب باللغة العربية والانجليزية تُعدّ آية في روعتها ، قد تعلّق بالامام تعلقاً كبيراً ، وقد رأيتُ في آثاره انّه عندما يتطرق الى الشخصيات العظيمة في العالم في ايّ مناسبة من المناسبات ، يذكر السيّد المسيح وعليّ بن ابي طالب ، ومن كلماته في حقّ الامام ما مضمونها : أنا حائر في لغز هذه الدنيا انه لماذا سبق بعض الاشخاص زمانهم الذي عاشوا فيه ، ثم يقول : في عقيدتي فانّ علي بن ابي طالب لم يعش في زمانه ، ولم يكن لذلك الزمان وقد ولد قبل زمانه ، ويضيف : وفي عقيدتي انّ عليّ بن ابي طالب اوّل عربيّ جاور الروح الكليّة وسامرها ..

يقول الامام عليّ ـ عليه السلام ـ في شأن بعض الافذاذ من العلماء : « اللهم بلى لا تخلو الارض من قائم لله بحجّة إما ظاهراً مشهوراً وإمّا خائفاً مغموراً » بعد ذلك يقول : « هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة و باشروا روح اليقين وانسوا بما استوحش منه الجاهلون »[١] .

هذه كلمات رائعة وكم كنت أميل ان استوعب قيمة هذه الكلمات بذلك المقدار

---

(١) نهج البلاغة / الحكمة ١٤٧ .

الذي اعرفه من اللغة العربية ، و يستوعب الآخرون كذلك قيمتها ، عند ذلك ندرك انّ هذه العبارات لا يمكن ان تبلىٰ ، وهي تدلّل على انّها حقيقة ، وكأنّ الوجود كله ينطق بها .

انّه يقول انّ علم هؤلاء ليس من لون العلوم المتغيّرة المنسوخة ، لانهم بلغوا عمق الحقيقة (التي لا بديل لها) و باشروا روح اليقين .

و يقول الامام ـ عليه السلام ـ في موضع آخر : « لوكشف لي الغطاء ما ازددتُ يقيناً » .

ولا شك فانّ كلّ عمل يخصّ الامور المعنويّة صعب على المترفين لكنّه سهل على أهل الحقيقة بل ومرّ لهم ، وهم المقصودون بقوله ـ عليه السلام ـ « وصحبوا الناس بابدان ارواحها معلّقة بالمحل الاعلى » (١) عند ذلك يتبين كم هو صعب حيث تعيش الروح في عذاب اليم لدىٰ مصاحبتها لغير جنسها .. ورجل كعليّ بن ابي طالب يعيش مع الخوارج .. انّها قضية لا يمكن تصورها ! وايّ ألم أشد عندما يقابل الامام معاوية في صفّين ! وكم تحمّل الامام وعانىٰ عندما يكتب الىٰ أحد أقربائه رسالة يقول له فيها ما مضمونه : لما تنكبّ الدهر عليّ خنتني انت ايضاً حقاً انّ الموت أفضل له وأكثر راحةً ، و يقول مخاطباً الامام الحسن : (ملكتني عيني وانا جالس .... ٢) .

---

(١) نفس المصدر.

(٢) نهج البلاغة / الخطبة ٧٢ .

نسبيّة الآداب

نسبيّة الآداب

قال تعالىٰ : «فلولا نفر من كلّ فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين »[(١)] .

هناك قول يردّده البعض ، وقد نسب الى سيّد المتقّين عليّ بن ابي طالب ـ عليه السلام ـ أخيراً وهو : (لا تؤدّبوا اولادكم باخلاقكم لانّهم خلقوا لزمان غير زمانكم) اي : انّ لكلّ زمان أخلاقه الخاصّة به ولا يمكن ان تكون مناسبة الآ لعصرها .

وهنا موضوعان : الاوّل : هل انّ هذا الكلام ثابت انه عن امير المؤمنين عليّ ـ عليه السلام ـ ؟ وما هو سنده ؟ الثاي : بغض النظر عن قائله ، فهل هو كلام صحيح أم لا ؟

امّا الموضوع الاوّل : فانّ هذا الكلام كحديثٍ من أحاديث الامام عليّ ـ عليه السلام ـ لم يرد في ايّ كتاب من الكتب الموثوقة بل وغير الموثوقة ، فلم يذكر في نهج البلاغة ، ولا في كتب الحديث الاربعة ، ولا في كتب الحديث التي دوّنت فيما بعد والتي ضمّت احاديث ضعيفة كبحار الانوار مثلاً ، وانما شاعت نسبته الى الامام في الفترة الاخيرة ، ايّ : لم يمر على هذه النسبة اكثر من خمسين أو ستّين سنة ، لانه لم يذكر حتىٰ في الكتب التي اُلّفت قبل مائة سنة .

وأنا قبل سنين كنت اطالع في أحد كتب التاريخ القديمة وهو «ناسخ التواريخ» فعثرت صدفة علىٰ شرح لحياة افلاطون ، وفيها وجدتُ انّ افلاطون هو القائل : (لا تؤدّبوا ....) عندها فهمتُ انّ الشخص الذي ذكر هذا الحديث لاوّل مرّة ، امّا كان مخطئاً

---

(١) التوبة / ١٢٢ .

أو مغرضاً .

انّ البعض ـ مع الاسف ـ ينسب بعض الاقوال الىٰ ائمّة الدين وهي ليست لهم ظنّاً منهم انها ستكون مفيدة وسيكون لها رواجها . والذي يبدو انّ هذا القول لم يصدر عن الامام علي ـعليه السلام ـ لكن لا يمكن القطع بعدم صدوره بتاتاً لانّ «عدم الوجدان لا يدلّ على عدم الوجود» كما يعبّرون ، لا سيما وانّ كلّ كلام قاله الامام ـعليه السلام ـ ليس في متناول أيدينا لكن يمكننا القول هنا اي في مثل هذا الحديث ان لا دليل عندنا على صدوره عن الامام .. على اي حال ليس هذا محل بحثنا ، وسواء كان صدر عن الامام أو لم يصدر فالذي يهمّنا هو هل انه صحيح أو لا ؟

انّ مناقشة هذا القول ، وهل هو صحيح أو لا يجرّنا الى موضوع طالما تعرض له العلماء قديماً وحديثاً ، ولعلّي أتعرض له في ليلة من الليالي .. وهذا الموضوع هو نسبيّة الاخلاق ، اي : انّ الاخلاق نسبيّة وليست مطلقة ، و بعبارة اخرىٰ لا يوجد خلق حسن بشكل مطلق وكذلك لا يوجد خلق رديء بشكل مطلق ولا يمكن أن نصف شيئاً بالجودة المطلقة أو الراداءة المطلقة في اي زمان ومكان كان ، لأنّ الشيء الجيّد قد يكون جيّداً في زمان ومكان معيّنين وتحت ظروف خاصّة ، وقد يكون رديئاً في ظروف اخرىٰ .. وهذا هو المقصود من نسبيّة الاخلاق ، وهو مبدأ مشهور وله أنصاره . كما انّ هناك موضوعاً آخر يخصُّ العدالة ألا وهو نسبيّة العدالة ، والعدالة أمر يستحسنه جميع الناس ، فهل انّ مفهومها مطلق أو نسبي ؟ والمفهوم المطلق يعني اطلاق صفة العدالة والجودة على شيء بصورة دائميّة . وهذا موضوع آخر.

امّا بالنسبة الىٰ نسبيّة الاخلاق فلعلّها هي المقصودة من وراء هذا القول : «لا تؤدبوا اولادكم باخلاقكم» وما يدرينا لعل القائل قصدها بالذات ، واراد انّ الاخلاق قد تكون مناسبة للأب لكنها غير مناسبة لأولاده . وسأتطرق الى هذا الموضوع وموضوع نسبيّة العدالة فيما بعد . امّا الآن فاني اقول بصراحة انّ نسبيّة الاخلاق محض كذب وافتراء ، وليس من الصحيح ان نطلق النسبيّة على كل شيء يحمل اسم الاخلاق ، ولكن يمكن أن يكون لهذه الجملة معنى آخر مستوحى من كلمة «لا تؤدّبوا» ، وهنا لا بدّ لي من التوضيح :

تطلق الآداب على بعض الامور ، وتطلق الاخلاق على امور اخرىٰ ، وتختلف الآداب عن الاخلاق ، فلو كان قصد القائل : (لا تخلقوا اولادكم باخلاقكم) فهذا خطأ ، ويمكن ان

يكون القول بهذا الشكل : (لا تؤدبوا اولادكم بآدابكم) فلابدّ لنا اذاً من إدراك الفرق بين الاخلاق والآداب .

انّ الاخلاق تتعلق بالانسان نفسه ، أي : كيف ينظّم غرائزه ، وكيف ينسّق طبائعه ، وكيف يبني نفسه ، فالاخلاق تنظيم للغرائز ، والانسان ذو غرائز مختلفة . وكان العلماء الاقدمون يقولون : انّ في الانسان ثلاث قوى اصلية (واحياناً أربع) وهي : القوّة العقليّة ، والقوّة الشهوانيّة (ليس المقصود بها الشهوة الجنسيّة فقط) والقوّة الغضبية . ولكل قوّة من هذه القوى دورها ، فالقوّة الشهوانية مثلاً مهمّتها تحقيق المنفعة للانسان ، وترغمه ان يسعى في طلب ما ينفعه ، والقوّة الغضبية هي القوّة الدافعة (وليس المقصود هنا الغضب بمعناه الخاص) وهي القوّة التي تلزم الانسان ان يدفع ما يراه مضراً من الاشياء آليّاً ، ومثلما تتوفر قوّة الدفع في الجسم ، تتوفر في الروح أيضاً . والانسان عندما يتناول طعامه ، يمضغه . ثم يصل الى المعدة فالامعاء ، ولا يستفيد الانسان منه كله لذلك تفرز الفضلات والزوائد غير المفيدة ، فتأتي هذه القوّة لتدفعها خارج الجسم ، وتتوفر هذه القوّة في الروح أيضاً .

امّا القوّة العقليّة فهي القوّة الموجّهة لسائر القوى لانّ كلّ قوّة تؤدي عملها وتحسب حساب نفسها فقط ، فشهوة الاكل موجودة في الانسان مثلاً ، والقوّة المسؤولة عن هذه الشهوة لاتفكّر الّا في الاكل فقط ، وليس لها اي حساب ، بل هي تلتذّ فقط ولا تهدف الّا الى الاكل . وكذلك الشهوة الجنسيّة ليس لها حساب ايضاً الّا اشباع الغريزة من خلال العمل الجنسي .. وتسري هذه الحالة الى القوّة الغضبيّة .. فالقوى جميعها لا تستغني عن قوّة موجّهة لها ، وعن حساب دقيق لأعمالها وأدوارها ، وما على الانسان الّا تنظيم تلك القوى لانه لو ترك كل قوّة تعمل وحدها كما تشاء فانّها ستدمّره وتفسده وتؤثر في سائر كيانه ، فمثلاً العين تلتذ برؤية بعض الاشياء ، واللسان يلتذّ ببعض الطعام و يريد ان يكون حرّاً في تحصيل لذّته ، لكن الامر لا يقف عنتد اللّذة فحسب إذ لا بدّ من التفكير بما تتمخّض عنهُ هذه اللّذة ، وماذا ستكون نتيجتها بالنسبة إلى كيان الانسان المادي وشخصيته الانسانيّة . فلابد له من نظم إذاً ، ولا بد للعقل أن يكون هو الموجّه وهو الحاكم على جسم الانسان وشخصيته ، و يعطي لكل منهما حقه ، و يوفيه حصّته ، فهذا هو المقصود من تنظيم الغرائز ، وهو يعني تقسيمها وتنظيم أعمالها في ظل هيمنة العقل ، ولكل منها حصّة لا محالة . وانّ احدى مهام الدين تنظيم الغرائز وايفاؤها

حقّها لان العقل وحده عاجز عن ذلك . وهذه المهمّة هي ما نسمّيها بالاخلاق . ومن الطبيعي انّ الاخلاق لا تقتصر على هذه الناحية ، اي انّ الاخلاق الرديئة مثلاً لا تنشأ من سوء تنظيم الغرائز ، وعدم توازن حصصها فحسب بل ان سوء التنظيم برجحان كفّة على اخرىٰ يؤدي الى بروز أعراض غير محمودة .

هذا بالنسبة الىٰ جسم الانسان ، امّا المجتمع فهو يشبه جسم الانسان الى حدّما ، فلو شاعت فيه التقسيمات الطبقيّة الخاطئة بحيث يمتلك البعض كل شيء ، ولا يمتلك البعض الآخر شيئاً فكلاهما سيفسدان ، واذا ما فسدا فانّ جملة من المفاسد ستظهر على صعيد المجتمع ، وهي ناشئة من الا ثنين . فاول ضرر مثلاً يصدر من اولئك المالكين للاشياء فوق طاقتهم . انهم يرون انفسهم وجوداً عاطلاً عابثاً ، واذا لم يكونوا هم فاولادهم ، فلا يمكن لهؤلاء البقاء لثلا ثة أو أربعة أجيال .. اما ما يصدر عن المحرومين فهو انهم يرون انفسهم يكدّون و يكدحون في سبيل ان يأكل الآخرون ، وهذا ما يولد في انفسهم الاحقاد ، و وجود الحقد يؤدي الى التفكير بالاجرام ، والقتل ،وتأسيس الجمعيات ، والانتفاضة ، واراقة الدماء . فمحروم واحد يعيش في بيت من البيوت يرىٰ جميع افراده منغمسين بالترف حتى الثمالة ، و ينالون القسط الا كبر من اللذائذ بمختلف الوانها ، لا بدّ له ان يتألم ويمتعض ، وتتراكم آلامه وعذاباته الى الحد الذي يصبح فيه كبرميل البارود الذي ينتظر ادنىٰ شرارة لينفجر، عندها نقرأ في الصحف انّ الشخص الفلاني قتل المرأة الفلانية أو الرجل الفلاني أو الطفل الفلاني .. وقد يقتل عدداً من الاشخاص ..

فلم يحسب هؤلاء المترفين حسابهم عندما يترنمون بترفهم مستأنسين أمام عينه .. ومثل هذه القضيّة موجودة في القوى النفسانيّة للانسان ، اي : انّ الانسان اذا اشبع بعض قواه وترك الاخرىٰ جائعة فانّ الاخيرة تتمرد على الاولى وتؤدي بالتالي الى تدمير الانسان نفسه ..

وفي ضوء ما تقدم تتبين حكمة الاسلام وعظمته عندما يأمر باداء حقوق جميع القوىٰ ، و يقول انّ للروح حقّاً ، وللجسم حقّاً ، و ينادي باشباع الغريزة الدينية بالعبادة ، واشباع الغريزة الجنسيّة عن الطريق الشرعي ، طريق الفضيلة ، و يؤكّد على أداء حقّ الا ثنين دون تمييز ، فلا يتصور احد انّ الحدّ من الشهوات النفسانية والجسمانية والانشغال المستمر بالعبادة يوجد عند الانسان التوازن ويجعله هادئاً بل لا بدّ في يوم من الايام ان تتمرد تلك الشهوات وتعلن

عن ثورتها على ذلك الانسان الذي لم يعطها حقّها .. ولعل وضع البابوات خير مثال على ذلك ، فالعرف البابوي يقتضي انهم لا يتزوجون لوجود قيود فرضوها علىٰ انفسهم ، هذا التوجه يعني حرمان غريزة من الغرائز من حقها الطبيعي ، لكن ماذا يسجّل التاريخ من جرائم تمخضت عن هذا التوجه المنحرف .. واعتقد ان احد القياصرة ـ كما ينقلون ـ كان ابناً غير شرعي لاحد البابوات ، مع العلم انه لا يمكن القول انّ البابا الفلاني كان فاسداً ، لكن اسلوبه كان خاطئاً .

وفي هذا المضمار نقلت احدى الصحف انّه قد تم تحري بيت أحد القساوسة لأسباب سياسية علماً انّ هذا البيت يجب ان يبقىٰ محروماً من الزواج الىٰ الابد حسب القانون الكنسي ، واثناء هذا التحري تم العثور في سرداب المنزل على احدى عشرة امرأة كان قد جمعهن لنفسه .

يتّضح من كلّ ما تقدم انّ الاخلاق تقسيم حقوقي للغرائز ، فهل هي ـ في ضوء هذا المعنىٰ ـ تختلف باختلاف العصور ؟ اي : هل انّ حصّة العين أو البطن أو حبّ الظهور تتغير بتغير العصور ؟ (انّ غريزة حبّ الظهور من الغرائز المودعة في الانسان ، ومعناها السلبي يكمن في تحولها الى صنميّة وعبادة للجاه . انّ حبّ الظهور او الجاه يعني انّ الانسان يريد ان يكون محترماً في المجتمع . ومن غير المستحسن طبعاً ان لا يريد الانسان ان يكون محترماً لكن عليه ان يطلب ذلك ، اي يطلب المنصب لوجه الله تعالىٰ) .

نعم ، فهل انّ تقسيم الحصص قابل للتغيير ؟ فنقول : «لا تؤدّبوا اولادكم ....» اي انّ حصة اولادكم يجب ان تكون غير حصّتكم في التقسيم ! كلاّ ، انّها واحدة في جميع العصور ، لانّ الناس لا يتغيرون ولا يتبّدلون ، ولو انّ انساناً كان يعيش قبل مائة سنة يختلف عن انسان اليوم من ناحية القوىٰ والغرائز المودعة فيه ، فانّ تقسيم الحصص سوف يتغير لكن الانسان واحد من هذه الناحية في جميع العصور .

هذا بالنسبة الىٰ الاخلاق ، امّا بالنسبة الىٰ الآداب فنقول : انّ الآداب لا تتعلق بتقسيم حصص الغرائز ، بل تتعلّق بامور اكتسابية غير الاخلاق يحتاجها الانسان ، ويجب ان نطلق عليها اسم «الفنون» ، وما على الانسان هنا الاّ تعلمها . مثلاً يحتاج الانسان أن يتعلم الكتابة ، فتعلم الكتابة فن من الفنون و يدخل ضمن الآداب ، ويجب على هذا الانسان ان يكون من اهل القراءة والكتابة . وقد ورد في الحديث النبوي الشريف : «من حقوق الولد

على الوالد ان يحسن اسمه و يعلمه الكتابة و يزوّجه اذا بلغ » .

فالكتابة فنٌّ من الفنون ، وادب من الآداب ، وكذا الخياطة ، والفروسية ، والسباحة .. وهذه الآداب تختلف باختلاف العصور ؛ لذلك ينبغي على المرء ان لا يؤدب ولده بآدابه التي تخص عصره بالذات لانه على سبيل المثال عاش في عصر كان يلزمه ان يتعلم الكتابة و يكتب بيده ، اما في العصر الذي تلاه ظهرت الآلة الطابعة ، ثم بعد ذلك ظهرت آلة الاستنساخ ، فذلك الانسان الذي كان يعرف الكتابة في عصره لا تكفيه الكتابة وحدها في مثل هذا العصر بل عليه ان يتعلم الضرب على الآلة الطابعة أيضاً . وفي عصره مثلاً كانت الخيول وسائل للحمل والنقل لذلك ينبغي له ان يتعلم مهارة الركوب على الخيل امّا في عصر ولده فقد اختلفت الوسيلة حيث حلّت السيارات محل تلك الوسائل لذلك يلزمه في هذا العصر ان يتعلم السياقة أو أن يتعلم ولده السياقة لانّ السياقة لم تكن معروفة في عصره امّا في عصر ولده فقد أصبحت شائعة لذلك لا معنىٰ ان يتعلم ولده ركوب الخيل ، بل يتعلم السياقة ..

وفي ضوء هذا كله لا ينبغي على الاب ان يكون متزمتاً متحجراً ومصراً بان يعلّم ولده ما تعلمه هو في عصره ، فاذاً (لا تؤدبوا اولادكم بآدابكم ....) هي الانسب للمقام وليس العبارة الشائعة : (لا تؤدبوا اولادكم باخلاقكم ....) فلا معنى اذاً ان يبقىٰ الانسان على جهله وجموده و يقول : بما انّني عطار فيجب ان يكون ولدي عطّاراً أيضاً في حين ظهرت في عصر ولده مهن وحرف اخرىٰ افضل من العطارة مائة مرّة ، وفيها فائدة لدنياه وآخرته .. فاصرار الاب علىٰ تعليم ولده مهنته هو الجمود بعينه .. فهذا هو معنى الآداب وحسابها .. فماذا يتغير بتغير العصور ومتطلباتها إذاً ، الاخلاق أم الآداب ؟ والجواب هو : الآداب بلا شك ، امّا الاخلاق فلا تتغير .

ومن الآداب المعروفة هي التقاليد الشائعة بين الناس ، وهذه التقاليد امّا حسنة وامّا رديئة ولا يمكن ان نجزم بحسنها أو بردائتها .. فمثلاً كلّ شريحة من الناس لها تقاليدها الخاصّة بها في حفلات الاعراس ، وكذلك في مجالس الضيافة ..

وهناك قول ينسب الى امير المؤمنين علي بن ابي طالب ـ عليه السلام ـ أيضاً وهو : « بني ! اذا كنت في بلدة غريبة فعاشر بآدابها » فالحديث هنا حديث الآداب .. ولو ذهب احد الىٰ مدينة يأكل أهلها طعامهم وقوفاً ، فعليه ان يأكل مثلهم .

ولو عاش احد بين العرب فانه يرىٰ انهم اذا ارادوا تقديم شيء الىٰ الانسان فانّهم

يرمونه امامه ..

وفي ايران مثلاً اذا اراد احد أن يصنع وليمة فلا بدّ ان يكون عنده مكان يكفي جميع الضيوف امّا بين العرب فلا يشترط هذا الامر حيث يمكن ان يدعوا اناساً كثيرين والمكان ضيّق لا يسعهم ، والعرف السائد ان يأتي الضيف و يتناول طعامه فوراً ثم يذهب حتى يفسح المجال لضيف آخر ، امّا في ايران ، فالعرف ان يجتمع كافّة الضيوف ، ثم يقدم لهم الطعام ..

اذاً لو ذهب احد منّا الى هناك أو الى اي مكان فلا بدّ أن يتأدّب بآداب ذلك المكان ، ولا ضرورة هنا الى التزمّت وضيق النظر بحيث يصرّ على العمل بآدابه فقط .

العبادة حاجة الإنسان الثابتة

العبادة حاجة الانسان الثابتة

قال تعالىٰ : «فلولا نفر من كلّ فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم ...»[1] .

من الضروري للانسان ـ بشكل عام ـ ان يحمل روح النقد ، والنقد لايعني اظهار العيوب أو كشف السلبيات وانما يعني وضع الشيء تحت المحك لتشخيص حسنه من رديئه ، فمثلاً لو أراد أحد أن ينتقد كتاباً معيّناً فلا يعني هذا انه يريد كشف عيوبه وسلبياته بل يعني انه يريد اظهار العيوب والسلبيات من جهة ، والمحاسن والايجابيات من جهة اخرىٰ . ولا بد للانسان ان يكون ناقداً لكل ما يسمعه من الآخرين ، وبعبارة اخرىٰ يكون مراقباً ومحلّلاً لكلامهم . وليس من المستحسن له أن يقبل كلاماً ايّ كلام كان بمجرد ذيوعه في الوسط الاجتماعي وشهرته بين الناس حتىٰ اذا كان كلاماً جميلاً عذباً . فالانسان يجب ان يكون ناقداً في كلّ الاحوال لا سيما فيما يخصّ امور الدين .

انّ ما تعرضت له من احاديث في الليالي المنصرمة ـ ومنها حديث النبيّ الاعظم ـ صلّى الله عليه وآله ـ ومضمونه «اعرضوا حديثي على القرآن فان وافقه فخذوه والّا فدعوه» لون من النقد .

وهناك حديث لا اتذكر نصّه بالضبط ، نقله ائمتنا ـ عليهم السلام ـ عن السيّد المسيح ـ عليه السلام ـ ومضمونه تقريباً : انتم تتعلمون العلم ولكن الاصل ان تكونوا نقّاداً ، اي تتفتق

---

(١) التوبة / ١٢٢ .

عندكم قابليّة الانتقاد ، ولا تقلّدوا القائل تقليداً أعمىٰ صالحاً كان أو غير صالح ، ووردت في هذا الحديث عبارة « كونوا نقاداً » .

وهنا حديث آخر اتذكره مجملاً ، و يتعلق بأصحاب **الكهف** الذين ورد ذكرهم في القرآن حيث قال تعالىٰ : (انّهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم ...)[1] فيقال انّهم كانوا صيارفة ولكن ليسوا صيارفة بالمعنىٰ المتداول اقتصادياً كما ظنّ البعض بل « كانوا صيارفة الكلام » كما ورد على لسان ائـمّة اهل البيت ـ عليهم السلام ـ وليسوا صيارفة الذهب والفضة . و بعبارة اخرىٰ : انهم كانوا حكماء علماء . وبما انهم كانوا حكماء لذلك كانوا يتفننون في قياس ومناقشة ما يعرض عليهم من كلام . والتفقه في الدين الذي ورد في قوله تعالىٰ : « فلولا نفر من كلّ فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ... » يعني انّ الانسان المتفقه يجب ان يكون ناقداً الى الحد الذي يكون فيه قادراً على تحليل كلّ ما يطرح وله علاقة بالدين .

انّ العبارة التي ذكرتها ليلة أمس والتي نسبت الى الامام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ وهي : « لا تؤدّبوا اولادكم .... » مناسبة وملائمة جدّاً من حيث الفاظها الجميلة ، ولذلك لاقت قبولاً واستحساناً في مختلف الاوساط الاجتماعية ، وصارت تكرر من قبل كثير من الاشخاص .

أتذكر قصّة في حياتي وقعت لي اودّ أن انقلها لكم : كنت في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمري وقد درست قليلاً من مقدّمات العربية . وكان ذلك بعد حادثة خراسان المعروفة حيث تعرضت الحوزة العلمية في مشهد الىٰ هجمة شرسة من قبل أزلام النظام ممّا ادّى الى شللها بالكامل وكل من كان يرىٰ تلك الاوضاع المزرية يتصور ان لا تقوم للعلماء قائمة بعدها .

و برزت في تلك الفترة حادثة احتاجت الى كتابة حولها ، فدعيت الى ذلك ، فكتبت مقالة وعندما رآها أحد الاشخاص وكان في منصب حسّاس رمقني بنظرة ثم اعرب عن أسفه لكوني لا زلتُ عالماً دينياً ، وعلّق على ذلك ، ثم نصحني قائلاً : لقد ولّى ذلك الزمان الذي كان

---

(١) الكهف / ١٣-١٤ .

يذهب به الناس الىٰ النجف أو الى قم للدراسة و بلوغ الدرجات العليا في سلّم العلم ، لقد ولّى من غير رجعة والامام علي ـ عليه السلام ـ يقول ما مضمونه : ربّوا أولادكم على عادات زمانهم .

وواصل كلامه قائلاً : هل انّ الاشخاص الذين يتربعون على الكراسي يتميزون عليكم باصبع مضاف الىٰ أصابعهم؟ اي انكم يمكن ان تكونوا مثلهم اذا تركتم زيّكم ! وأطال المقام في حديثه كي يقنعني بالتخلّي عمّا انا فيه لكنه لم يجد مني اذناً صاغية ..

بعد ذلك يمّمت وجهي صوب قم واقمتُ فيها خمس عشرة سنةً ، ثم توجهتُ بعدها الى طهران وهناك صدر لي اول كتاب الّفته وهو «مبادىء الفلسفة» .. امّا ذلك الشخص فقد أصبح عضواً في مجلس النواب ، وكان ذكيّاً فاهماً ، ولم يكن في وضع اجتماعي واقتصادي جيّد ابّان شبابه لكن تبدّل حاله فيما بعد ، وأصبح في وضع جيّد .

كان صدور كتابي آنف الذكر بعد ثماني عشرة سنة من لقائي به ، وعندما وقعت في يده نسخة منه كان قد نسي ذلك اللقاء ونصيحته لي فبدأ يُطري و يثني على الكتاب وكان كلّما جلس في مكان يثني على الكتاب الىٰ حدّ المبالغة ، وحتىٰ صادف مرّةً انّي كنتُ حاضراً في أحد المجالس فأطرى عليّ كثيراً .. وهنا تذكرتُ ذلك الموقف يوم نصحني قبل ثماني عشرة سنة ، وحدّثت نفسي اني لو كنتُ قد سمعتُ نصيحته لكان مثلي مثل الكاتب العادي الذي ينتظر الناس كي يكتب لهم عرائض ، لكنني والحمد لله لم اسمع كلامه ، ولو كنت قد سمعته لما كان كل هذا الاطراء الذي ملأ اذني .

على ايّ حال أردت ان اقول : انّ بعض العبارات تتجاوب مع الذوق وتجد لها سوقاً رائجة وما أسرع ما تنتشر كسرعة الضوء ، وهذا يعني انها محظوظة .. ومثل العبارات كمثل الاشخاص حيث تقبل الدنيا على بعضهم وتدبر ، عن البعض الآخر ، فكذلك العبارات حيث يحالف الحظ بعضها فتشيع في الوسط الاجتماعي بأسرع ما يكون في حين ليس لها قيمة تذكر ، وهناك عبارات تفوق قيمتها قيمة تلك العبارات لكن ليس لها حظ من الشهرة والسمعة .. وانا اعتقد انّ عبارة «لا تؤدّبوا أولادكم باخلاقكم» من العبارات المحظوظة ، وقد حالفها الحظ اعتباطياً .. علماً انّي ذكرت البارحة انّ هذه العبارة ليست بالشكل الذي يتداوله الناس هذا اليوم بل هي بشكل آخر يختلف عمّا في أيدي الناس ، ولا يبعد ان تكون كلمة (بآدابكم) بدلاً عن (باخلاقكم) .. وقد فرّقت بين الآداب والاخلاق فيما طرحته في الليلة المنصرمة ..

وذكرتُ انّ الآداب قسمان : القسم الاول : يمكن ان يكون بمعنى الفنون . وقلت في هذا المضمار انه من اللازم للانسان ان يتعلم مختلف الفنون اضافة الى الاخلاق والصفات الروحية الخاصة والنظم الذي يسبغه على قواه الروحية علماً انّ الفنون التي يتعلمها يجب ان تكون بالمستوى المطلوب ، و ينبغي ان تتمخض عن نتائج مفيدة للبشرية ، وتساعده ايضاً في تسيير امور حياته المختلفة ، وفي هذا الحقل بالذات اي : حقل الفنون يستوجب على الانسان ان يكيّف نفسه مع تطورات العصر، سواء قلنا «لا تؤدبوا اولادكم بآدابكم» صحيحة أو «لا تؤدبوا اولادكم بفنونكم» ذلك انّ الحياة في تطور، ولا بد للانسان ان لا يكون متزمتاً جامداً بحيث يصر على تعليم اولاده ما يعرفه هو من فنون وآداب في حين يمكن ان تكون الفنون الجديدة في عصر ولده افضل وأتم .

هذا بالنسبة الى القسم الاول ، امّا القسم الثاني فهو الاعراف والتقاليد السائدة في المجتمع ، والتي تحتاج الى توضيح اكثر بناءً على الاسئلة التي أُثيرت حولها .

انّ الاعراف والتقاليد على قسمين أيضاً ،فبعضها يسمّى السنن من الناحية الشرعية ، اي ان للشارع المقدّس رأياً فيها . وقد بيّنها في مجال المستحبّات ، وبما انّ الاسلام لم يأمر بشيء الّا وفيه مصلحة لذلك يجب علينا المحافظة على ما شرّعه من امور كمبدأ من مبادئنا .

مثلاً ذكرت في جواب سؤال وجّهه احد السادة البارحة انّ للاسلام آداباً في كيفية تناول الطعام علماً انّه ليس في الاسلام رسميّات خاصّة ومجاملات معيّنة بل له آداب عندما ذكرها ، حسب لها حسابها ، فعندما يقول مثلاً باستحباب اطالة الجلوس عند المائدة ، او استحباب مضغ الطعام كثيراً ،أو قول بسم الله ، أو الحمد لله ، أو غسل اليدين قبل الطعام و بعده ، فهذه ليست روتيناً رسمياً بل هي حقائق لا بدّ منها لانّ الاسلام اهتمّ كثيراً بصحّة الانسان و يريد ان تكون الاسنان والمعدة والاعصاب سليمة اذ لم يؤكّد فقط على الجوانب النفسية والمعنوية في جسم الانسان . وهناك حقيقة من الحقائق وهي انّ الانسان اذا تناول طعامه بسرعة فانّ هذا يسبّب له مرضاً .. فهذه الحقيقة وامثالها لا تخصُّ عصراً معيّناً بل هي لجميع العصور. فالاسلام يؤكّد على استحباب تصغير اللّقمة عند الاكل واطالة الجلوس على المائدة وغسل اليدين قبل الاكل .

ينقل انّ الامام امير المؤمنين ـعليه السلام ـ كان يتردد على مزرعة له يعمل فيها ،

و يقول أبو نيزر انّه جاء ذات يوم الى المزرعة فأخذ معولاً ونزل في البئر ، و بدأ يحفر بسرعة الى ان انهىٰ عمله فخرج من البئر والعرق يتصبب من جبينه ، فسأل عن طعام ، فقلت له : عندي شيء من القرع . فقال : لا بأس .. ثم ذهب الىٰ نهر ماء قريب واخذ شيئاً من الرمل وغسل يديه .. ولمّا نظفت يداه تماماً ، واراد أن يشرب بهما الماء قال : ان كفى انظف الانية .. بعد ذلك شرب الماء .. فهذا الحساب حساب النظافة ، وهي في كلّ زمان ومكان .. وعندما يؤكّد الاسلام على استحباب تخلّل الاسنان ، واستحباب المسواك وتنظيف الاسنان ، فهذا لا يقتصر على زمان أو مكان معينين .. امّا التي ذكرتها آنفاً فلها زمانها ومكانها الخاصّان بها .

واودّ ان استرعي انتباه الجميع لنكتة مهمّة وهي انّ البعض يتزمّت الى الحدّ الـّذي يقول فيه ، بانّ الاسلام دين جامع ولذلك بيّن تكليفاً معيّناً للجزئيات الموجودة في الحياة .. وهذا غير صحيح اذ انّ في الاسلام حساباً آخر ، ولعلّ شمول الاسلام لا يعني ان يكون له رأي في كثير من الامور ، ولا اقصد هنا ان لا يكون له رأي مطلقاً بل اقصد انه ترك الناس احراراً ، وليس فيه ما يسمّىٰ بالتكليف في تلك الامور .. وهناك حديث ورد في هذا الصدد ومضمونه : « انّ الله يحب ان يؤخذ برخصة كما يحب ان يؤخذ بعزائمه » وما اروع ما في هذا الحديث من معنى ! و يقول امير المؤمنين ـ عليه السلام ـ : « ان الله حدد حدوداً فلا تعتدوها ، وفرض فرائض فلا تتركوها ، وسكت لكم عن اشياء ولم يدعها نسياناً فلا تتكلفوها »[1] .

اذاً ما ذكرت من امور هي الاعراف والتقاليد السائدة بين الناس ، ولو مارسها الانسان بطريقها الصحيح فلا تضر ولا تنفع ، وكذلك لو تركها ، فهي تدخل في قائمة الامور التي سكتت عنها الشريعة المقدّسة . انّ الانسان مجبول على حالة لا ينفصل عنها أبداً وهذه الحالة هي رغبته في بعض التشريفات والرسميّات ، وهنا سرٌّ في أمثال هذه المسائل ، لذلك لا يجب الاصرار على ان يقوم الانسان بالعمل الفلاني .

الى هنا اكون قد فرغت من توضيح قضيّة كنت أرى ضرورة في طرحها . امّا في هذه الليلة فانّي اودّ ان اخصّص قسماً من محاضرتي للحديث عن بعض الممارسات العامّة الثابتة التي لا تقبل النسخ والتغيير ، والتي لا يستطيع عامل الزمن أن يؤثّر عليها مطلقاً .. ومن هذه

(١) نهج البلاغة / كلمة ١٠٥ .

الممارسات : العبادة ، وهي من حاجات الانسان .. فما معنى العبادة ؟

انّ العبادة هي الحالة التي يتوجه فيها الانسان باطنياً نحو الحقيقة التي أبدعته ، و يرى نفسه في قبضة قدرتها وملكوتها ، و يشعر انّه محتاج اليها .. وهي في الواقع سير الانسان من الخلق نحو الخالق ، و بغض النظر عن كلّ فائدة يمكن ان تكون فيها فهي نفسها من الحاجات الروحية للانسان .. وعدم القيام بها يؤدي الى حدوث خلل في توازنه . واذكر مثالاً بسيطاً على عدم التوازن بالخرج الذي يوضع علىٰ ظهر الحيوان ، فان هذا الخرج يجب ان يكون متوازناً من طرفيه دون رجحان طرف على آخر .. انّ في وجود الانسان فراغاً يستوعب كثيراً من الاشياء ، وكلّ حاجة لا تشبع تؤدّي الىٰ الاضطراب وفقدان التوازن في روحه . وكما ذكرت البارحة انـهُ اذا اراد الانسان ان يقضّي عمره بالعبادة تاركاً الممارسات الحياتية الاخرى ، ومعرضاً عن تلبية حاجاته المنوّعة فان هذا سوف يبعث على اضطرابه وامتعاضه ، والعكس هو الصحيح اي : اذا ركض الانسان لاهثاً وراء الماديّات فقط دون الاهتمام بالمعنويات والقضايا الروحية فسوف لن يقر لروحه قرار ، وتظل روحه في عذاب دائم . وقد التفت الىٰ هذه الناحية الزعيم الهندي جواهر لال نهرو حيث تغيرت حالته في اواخر ايام حياته بعدما كان علمانياً في عنفوان شبابه ..

يقول هذا الرجل : اشعر انّ في روحي وفي هذا العالم فراغاً لايسدّه شيء الّا المعنويّات ، وما هذا الاضطراب والقلق الذي برز في العالم الّا سبب عدم التوجه الى الجانب الروحي وضعف النزوع الى المعنويات ، وقد تمخض هذا عن فقدان التوازن . ثم يردف قائلاً : وتلحظ هذه الحالة ـ اي القلق ـ بصورة حادّة في الاتّحاد السوفيتي .. فعندما كان الشعب الروسي جائعاً كان لا يفكّر الّا كيف يسدّ جوعه ولذلك كان في دوّامة من التخطيط للنضال من أجل تحصيل قوته .. ولمّا استتب الوضع واستعاد حياته الاعتيادية بعد الثورة برزت في وسطه ظاهرة القلق الروحي .. وها هو يعاني منها .. ولو سنحت فرصة لأحد بعد عمله فانّ اول مأساة يواجهها هي كيف يقضي ساعات فراغه ، وكيف تُقَضّى هذه الساعات .. بعد ذلك يقول نهرو : انا لا اظنّ انّ هؤلاء يستطيعون سدّ فراغهم الّا بالتوجه الى الجانب المعنوي ، والتركيز على المعنويّات في ملء ساعات الفراغ الذي اعاني منه انا أيضاً .

اذاً العبادة حاجة ماسّة للانسان ولابّد له منها ، وما الامراض النفسية المتفشية في

عالم اليوم الآ بسبب إعراض الناس عن العبادة ، ولعلنا لم نحسب لها حسابها ولكن هي حقيقة جليّة ، والصلاة ـبغض النظر عن كل شيء ـ طبيب متواجد في كلّ وقت . اي : اذا كانت الرياضة مفيدة للصحة ، وكان الماء الصافي ضرورياً لكل بيت ، والهواء النقي ضروري لكلّ انسان ، وكذلك الغذاء السالم ، فالصلاة ضرورية ايضاً لصحّة الانسان كضرورة تلك الاشياء وفائدتها .. ولعلكم غافلون عن انّ الانسان لو خصّص ساعة من وقته لمناجاة ربّه لرأى كم تطهر روحه وتصفو ، وكم تفيض عليه هذه المناجاة من نقاء وصفاء واطمئنان ، وتضمحلّ كلّ المفردات الروحية المؤذية التي قد يتعرض لها الانسان .

كنت اتحدث عن العبادة في جلسة من الجلسات فقلت : ليس الاسلام ديناً اجتماعياً ، أو ديناً أخلاقياً فقط ، بل الاسلام دين جامع كامل شامل لكل جوانب الحياة ، وله أرفع الآراء بالنسبة الى التعاليم الاجتماعية حيث جاء في الكتاب العزيز «لقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط »[١] وفيه أسمى المفاهيم حول الاخلاق إذ جاء في القرآن الكريم «هو الذي بعث في الاميّين رسولاً منهم يتلوعليهم آياته و يزكيهم و يعلّمهم الكتاب والحكمة »[٢] ولكن هذا الاسلام الذي رفع من قيمة التعاليم الاجتماعية ، هل قللّ من قيمة العبادة شيئاً ؟ لا ، فلم ينقص من قيمة العبادة شروى نقير بل حفظ لها قيمتها ومقامها ، وجعل منزلتها فوق كل شيء .. ومن وجهة نظره فانّ العبادة هي الهيكل العام لكل تعاليمه ، ولها الصدارة بين تلك التعاليم . ولو كانت صحيحة ، صحّت معها المسائل الاجتماعية والاخلاقية ، والعكس هو الصحيح . ولا يصدّقن أحد انّ شخصاً ما يكون مسلماً جيّداً في الجانب الاجتماعي والاخلاقي ، وغير جيّد في الجانب العبادي ، ونحن**لا نقرّ** باسلام الشخص الذي لايصلّي . وقال أمير المؤمنين ـعليه السلام ـ ما مضمونه : لا شيء بمنزلة الصلاة بعد الايمان بالله .. وقد شبّهها رسول الله ـصلّى الله عليه وآله ـ بالحمّه تكون على باب الرجل فيغتسل منها في اليوم خمس مرّات . وقد ورد التأكيد عليها والامر بها والمحافظة عليها في المأثور «تعاهدوا أمر الصلاة وحافظوا عليها» وقال جل من قائل : «وامر اهلك بالصلاة

---

(١) الحديد / ٢٥ .

(٢) الجمعه / ٢ .

واصطبر عليها »[١] وقال : « إنّ ربّك يعلم أنّك تقوم ادنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك »[٢] وقال تعالى شأنه : «ومن الليل فتهجّد به نافلة لك عسى ان يبعثك ربّك مقاماً محمودا »[٣] .

ولا يمكن للانسان ان يكون كاملاً الاّ بالعبادة .. ونبيّنا الكريم -صلّى الله عليه وآله- على ما هوعليه من العظمة والقرب من الله والتبشيرله بالجنّة لكنه كان مشغولاً بتلك العبادات ، والأوراد ، وكلمات التسبيح والاستغفار.. وقد ورد عن الامام الصادق -عليه السلام- انّ النبيّ -صلّى الله عليه وآله- لم يجلس مجلساً الاّ واستغفر فيه خمس وعشرين مرّة بقوله « استغفر الله ربّي واتوب اليه » وكانت العبادة التي يمارسها عليّ بن ابي طالب -صلوات الله وسلامه عليه- ترفده بالوان القوّة والمنعة ، وتفيض عليه بالضمير الوقّاد والروح المشعّة ، وهوالوجود الجامع التام ، وهوالحاكم العادل وهو العابد في جوف الليل .. فيجب ان لانغفل قيمة العبادة .

دخل عدي بن حاتم على معاوية يوماً ، وكان ذلك بعد استشهاد امير المؤمنين علي بن ابي طالب -عليه السلام- بسنين ، ومعاوية يعلم ان عديّاً من أصحاب الامام المقرّبين المخلصين فاراد منه ان ينال من عليّ ولوبكلمة واحدة .. فقال له معاوية شامتاً مستخفاً به : ما فعلت الطرفات ؟ يعني بذلك اولاده طرفه وطريف وطارف ، وكانوا قد استشهدوا مع عليّ بن ابي طالب في صفّين ، وكان معاوية يقصد ازعاج عديّ من وراء سؤاله . فقال له عديّ : قتلوا مع امير المؤمنين ، فردّ عليه معاوية بقوله : ما انصفك عليّ ، لقد قتل اولادك وابقى اولاده ، فقال له عدي بن حاتم : بل ما انصفتُ عليّاً إذ قتل وبقيت بعده . ليتني كنت ميتاً وعلياً حيّ .. فاغتاظ من جوابه وقال له مهدداً : أما والله لقد بقيت قطرة من دم عثمان لا يغسلها الاّ دم شريف من اشراف اليمن ، وكان يعنيه بذلك .

انبرى اليه عدي مستخفاً به وبتهديده قائلاً : والله يا معاوية انّ القلوب التي ابغضناك بها لفي صدورنا والسيوف التي حاربناك بها لا تزال في ايدينا ، ولئن اقبلت نحونا بغدرك فترا فسندنو اليك بسيوفنا شبرا وان حز الحلقوم وحشرجة الحيزوم لأهون علينا من أن

---

(١) طه / ١٣٢ .

(٢) المزّمّل / ٢٠ .

(٣) الاسراء / ٧٩ .

نسمع المساءة في علي وآل علي (ع) فسلم السيف لباعث السيف .

فتجاهل معاو ية تهديده وقال له : صف علياً ، فقال ابن حاتم : ان رأيت ان تعفيني من ذلك يا معاو ية ، فرفض ان يعفيه وكان يعلم بانّ كل صفة من صفات علي (ع) اذا مرّت على سمع معاو ية ستكون بمثابة طعنة في قلبه فاستغل هذه الفرصة وقال كلاماً رائعاً في وصف امامه وسيّده ، ومن كلامه : تنفجر الحكمة من جوانبه والعلم من نواحيه .. ومنه : وكان فينا كأحدنا يجيبنا اذا سألناه و يدنينا اذا اتيناه ، ونحن مع تقريبه لنا وقربه منّا لا نكلمه لهيبته ولا نرفع اعيننا اليه لعظمته يعظّم اهل الدين و يتحبب الى المساكين ، لا يخاف القويّ ظلمه ولا ييأس الضعيف من عدله ، واقسم بالله يا معاو ية لقد رأيته ليلة وقد مثل في محرابه وأرخى الليل سدوله وغارت نجومه ودموعه تنحدر على لحيته الكريمة وهو يتململ تململ السليم و يبكي بكاء الحزين وكأنّي اسمعه الآن وهو يقول : يا دنيا اليّ تعرضت ام إليّ اقبلتِ ، غرّي غيري لا حـان حينك قد طلقّتك ثلا ثاً لا رجعة لي فيك فعيشك حقير وخطرك يسير آه من قلّة الزاد و بعد السفر وفقد الانيس .

لقد أحسن هذا الرجل المخلص وصف أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ . . وقد وصفه وصفاً اثرّ في معاو ية نفسه حتى تصنّع البكاء الى الحدّ الذي انهمرت دموع عينيه ، فبدأ يمسحها بكُـمّه ، وهو يقول : رحم الله ابا الحسن لقد كان كذلك .. عقمت الدنيا أن تلد مثله ... ولله درّ الشاعر حين يقول :

ومناقب شهد العدوّ بفضلها والفضل ما شهدت به الاعداءُ

فعليٌّ هو الرجل الـّذي يشهد اعداؤهُ بفضلهِ وفضيلتهِ .

دراسة مفهوم
العدالة والنظرية القائلة بنسبيتها

دراسة مفهوم العدالة والنظرية القائلة بنسبيّتها

قال تعالىٰ : «لقد ارسلنا رسلنا بالبيّنات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط»[١] .

يدور موضوعنا هذه الليلة حول العدالة وهل هي نسبيّة أو مطلقة ؟ . في البداية اودّ أن ابيّن العلاقة بين هذا الموضوع والمواضيع المطروحة في الليالي المنصرمة ثم اعرّج على الموضوع نفسه . لقد ذكرت في الليالي الفائتة ان بعض متطلبات العصر وحاجاته ثابتة ، و بعضها متغيرة . والثانية منها امور لا تقبل التطور والتبدل مهما تعاقبت عليها الازمنة والعصور ، ويجب المحافظة عليها ولو انحرف عنها الزمان فهو دليل على انحراف الزمان وفساده نفسه . .

وقلتُ انّ المقصود هو انّ الحاجات الفرديّة والاجتماعية على قسمين : ثابتة ومتغيرة . وموقفنا من القسمين هو انّنا نعارضهما معاً ونكون طرفاً ثالثاً في مواجهتهما . فهناك فريق لا يرىٰ وجود حاجات متغيرة بل كل الحاجات ثابتة ، واسمينا هذا الفريق بالفريق المتزمت الجامد . وهناك فريق آخر يرىٰ العكس ، وأسميناه بالفريق الجاهل . . فالاوّل لا يعتقد انّ الاشياء يجب ان تتطور تبعاً لتطور الازمنة والعصور. امّا الثاني فلا يعتقد بوجود شيء ثابت على امتداد العصور . . .

هذه هي المفاهيم التي تطرّقت اليها في اللّيالي الماضية .

انّ للفريق الثاني أعني الفريق الجاهل فرضيتين شبه فلسفيتين ، وبما أنهما معروفتان

---

(١) الحديد / ٢٥ .

بين العلماء أيضاً لذلك نبادر الىٰ استيفاء البحث فيهما حتىٰ يتيقظ المسلمون قبل مبادرة ذلك الفريق للخوض فيهما ، و يكونوا مستعدين للجواب .. ولو قبل أحد منطوق هاتين الفرضيتين فانما يعني قبوله بكلام ذلك الفريق الجاهل مع العلم انه يفتقر الى أساس ثابت يستند اليه . وهاتان الفرضيتان هما نسبيّة الاخلاق ونسبيّة العدالة . والاخلاق تتعلق بالجانب الشخصي للانسان وتنظيم غرائزه ، في حين تتعلق العدالة بالجانب الاجتماعي. امّا فرضية نسبيّة الاخلاق فتقول : لايمكن ان تكون هناك أخلاق ثابتة أبداً ، لذلك لا وجود لمدرسة اخلاقية للبشرية علىٰ الدوام . وامّا فرضيّة نسبيّة العدالة فتقول : انّ العدالة قضيّة نسبيّة ، ولذلك لايمكن ان تكون ثابتة مهما كان لون المدرسة التي تنتمي اليها . وسنفصّل الكلام في الا ثنين : امّا بالنسبة الىٰ نسبيّة العدالة ، فلنعرف اوّلاً ما معنىٰ النسبيّة ؟

انّ النسبيّة تعني وجود صفة أو حالة تنسب الى شيء من الاشياء بمقارنته بشيء معين آخر. مثلاً ، الكبر والصغر من الامور النسبيّة .. فلو سئل أحد عن حجم الكبر أو الصغر ، فهل يستطيع أن يعيّن له حدّاً ؟ فمرةً يقول شخص : رأيت كبشاً كبيراً ، واذا اراد ان يبالغ يقول : بحجم العجل علماً انّ حجم الكبش متوسط واذا كان بحجم العجل ذي السنة الواحدة فانّه يبدو كبيراً ومرة يقول : رأيتُ بعيراً بحجم الثور فما أصغره من بعير ! .. فاذا كان الكبش بحجم العجل يقول : كبيراً ، واذا كان البعير بحجم الثور يقول : صغيراً ، فكيف يكون شيء بحجم العجل كبيراً في حين يكون شيء آخر بحجم الثور صغيراً مع العلم انّ الثور اكبر من العجل .

وكذلك البعد والقرب من الامور النسبيّة أيضاً .. فمرّةً يقول شخص : يقع بيتنا قرب قيادة القوّة الجو ية ، فيجيبه شخص آخر : ما ابعد بيتكم ! ومرة يقول شخص : مدينة قم قريبة من طهران ، و يفرض هذا فيما اذا كان القياس بالمسافة بين المدن . امّا اذا كان القياس بالمسافة بين البيوت في المدينة الواحدة فيقول الشخص انّ المسافة من هنا حتى القوّة الجو يّة، بعيدة .

وفي ضوء هذا نقول انّ البعد والقرب من الامور النسبيّة .. و بعبارة اخرىٰ : لايمكن القول بشكل عام ان البعد الفلاني له فلان مقدار أو القرب الفلاني له فلان مقدار ، بل يجب ان يدور الكلام حول **نسبتهما** الى الاشياء والمقياس اللازم في ذلك ، فالامور التي تتفاوت حسب نسبتها هي الامور النسبيّة ولا يمكن الحكم عليها كليّةً أي : ما لم تعقد مقارنة بين شيئين ، ولم

يكن هناك مقياس معين ، يصعب الحكم على هذا المفهوم أي : مفهوم النسبيّة .

ولكن توجد بعض الامور مطلقة ، ولا يخفىٰ ، فانّ البعض ينكر موضوع الاطلاق ويقول : لا يوجد شيء اسمه مطلق .. وهذا توجه خاطىء أيضاً ، وذلك في كل الاحوال فانّ هناك اموراً مطلقة كالاعداد والمقادير .. فهل العدد «عشرون» يختلف بالنسبة الىٰ الاشياء ؟ فلو قلنا عشرين جوزة أو عشرين كوكباً ، فهل يتفاوت هذا العدد بين هذين الشيئين المختلفين ؟ لا ، فالعدد واحد ، ولا فرق بينهما من ناحية الكميّة . وكذا المقادير ، أو عامل الزمن . فالمقادير مطلقة فمثلاً يقاس القماش بالمتر ، ولو تعين مقدار القماش فيقولون : متر وثمانون سانتيمتر ، أو يقولون : طول الانسان متر وثمانون سانتيمتر ، فالنسبة هنا واحدة مهما اختلف مكانها أو أشخاصها ، في حين تتفاوت هذه الاشياء فيما بينها من ناحية الكبر والصغر .. فهناك أمور نسبيّة ، وهناك أُمور مطلقة .

لقد دار البحث في كثير من الامور حول نسبيّتها أو اطلاقها ، ومن هذه الامور : العلم ، فهل هو نسبيّ أو مطلق ؟ ومنها : الحقيقة ، هل هي نسبيّة أو مطلقة ؟ ولا أُريد الخوض في هذا الموضوع .

الآن نريد ان نرىٰ هل العدالة نسبية أو مطلقة ؟ واذا كانت نسبية فان كلام الجهّال يكون له مدلوله و يترسخ اكثر فأكثر في شأن نسبيتها ، وعندها يكون لها في كلّ مجتمع شكل ، وفي كل زمان شكل ، فلا يمكن اذاً ان تكون مفهوماً مطلقاً ، وعلى هذا لا تستطيع كل مدرسة فكرية أن تدّعى باطلاق مفاهيمها ، وافكارها ، أو تصدر تعليمات تدّعى انها مطلقات وتقول مثلاً ، هذه هي العدالة ويجب تطبيقها في كل زمان ومكان ، فالحدّ الاعلىٰ هو انها تستطيع طرحها في زمانها ومكانها الخاصيّن بها .

فلا يمكن ان يكون للعدالة شكل واحد في كل زمان ومكان ، كما لا يمكن ان يكون للكبر والصغر شكل واحد لجميع الاشياء . ولو صحّ هذا الكلام بنسبيّة العدالة لصحّ كلام اولئك القائلين به ، ولو لم يصح ، وكانت العدالة مطلقة ، لصحّ كلامنا نحن .

ما هي العدالة ؟

علينا أن نعرّف العدالة ونحددّ معناها ، وفي ضوء التعريف يمكن أن نفهم فيما اذا كانت مطلقة أو نسبية .

انّ الذي توصّلت اليه اجمالاً هو انّ العدالة يمكن ان تعرّف بثلاثة أشكال .

الاول : هو: انّ العدالة تعني المساواة لانّها مشتقة من مادة (عدل) والعدل يعني المساواة ، بل انّ اصل العدالة هو المساواة وقد وردت هذه المادّة في بعض المواضع من القرآن بمعنىٰ المساواة أيضاً ، ومنه قوله تعالىٰ : «ثمّ الذين كفروا بربّهم يعدلون» [1] أي : إن الكفّار يساوون الله مع غيره . وعندما نعرف العدالة علىٰ أنّها المساواة ، فهل هذا التعريف صحيح أو لا ؟ والجواب هو عندما نتعرف على معنى المساواة ، وكيف تتحقق ، وفي ايّ المجالات يكون تحققها ، عند ذلك تظهر لنا صحّة التعريف أو عدم صحّته .

انّ البعض يحددون العدالة بالمساواة ، ومقصودهم من المساواة هو ان يكون جميع الناس في مستوىٰ معيشي واحد من حيث النعم المتوفرة في الحياة .. اي يكونوا سواسية في تحصيل الطعام والثروة والسكن ووسيلة النقل ، و يتمتعوا بكلّ ما يوجب سعادتهم بشكل مساو دون تفريق .. فالعدالة تعني هنا هو ان يكون الناس جميعهم متساوين في اقتناء موجبات السعادة من مال وثروة و بيت وأمثالها . وهذا طبعاً غير صحيح لانّ في هذا التساوي المزعوم ظلماً واجحافاً بحقّ الآخرين ! ولو سأل احد عن السبب فأقول : ان العدالة بهذا الشكل غير ممكنة وذلك لانّ بعض بواعث السعادة تقع تحت تصرفنا ، و بعضها ليس في تصرفنا ، ولا نستطيع ان نساوي بينهما لانّ بواعث السعادة لا تقتصر على الثروة والغذاء ووسيلة النقل ، فهذه الاشياء جزء منها .

يقول ارسطو: انّ بواعث السعادة تسعة أشياء (أو اكثر من تسعة) . ثلاثة منها تخصُّ البدن ، وثلاثة تخصُّ الروح ، وثلاثة خارجة عنهما ، اي : خارجة عن وجود الانسان .

فالثلاثة التي تخصُّ البدن هي : السلامة ، والقوّة ، والجمال لاسيّما في المرأة . امّا الثلاثة التي تخصُّ الروح فهي : العدالة ، والعلم حيث انّ العالم والجاهل غير متساويين في نصيبهما من السعادة ، والشجاعة علماً أنّ الشجاعة هنا لا تعني عرض العضلات بل تعني قوّة القلب .

وامّا الثلاثة الخارجة عن الروح والبدن فهي : المال ، والمنصب حيث تكون للانسان

(١) الانعام / ١ .

منزلة في مجتمعه ، والقبيلة . ولا تتساوىٰ قيمة هذه الاشياء ودرجتها .

اذن لو اردنا تقسيم بواعث السعادة بين الناس بالتساوي فلا يمكن ذلك في بعض المواضع . نعم ، يمكن تحقق ذلك في مواضع اخرىٰ كالمال مثلاً اذ يمكن تقسيمه بالتساوي ، ولكن هل يمكن تقسيم المناصب بالتساوي ؟ والجواب هو: لايمكن ذلك لانّ الدول الاشتراكية نفسها التي تدّعى المساواة في كلّ شيء ليس فيها مساواة في كثيرمن الجوانب ، ومنها هذا الجانب ، فالاتحاد السوفيتي أو الصين مثلاً فيهما مناصب متفاوتة ، وليس هناك توزيع عادل على صعيد المناصب في هذين البلدين ، ففي الصين هناك ماو ، وماو وحده ، أو شوئن لاي ، وشوئن لاي وحده ، واقصد بذلك انّ هناك شخصاً واحداً يحظىٰ بسمعة عالميّة على الصعيد السياسي . ولايمكن ان يكون الناس جميعهم ذوي مناصب متكافئة بالتساوي ، ولا يمكن كذلك ان يكون الاحترام متكافئاً للجميع ، وليس في المقدور تقسيم الشعبيّة بين الافراد بصورة واحدة ..

هل يمكن ان يكون جميع الناس متساوين في عدد الاطفال ؟

لايمكن ذلك . وفي المقدور ردّ هذا الاشكال بشكل نطبّق فيه المساواة في الامور التي تقع تحت تصرفنا على الاقل كالامور الاقتصادية أو الاشياء التي ترتبط بالجانب الاقتصادي . وهنا يثار إشكال ايضاً وهو انّ هذا العمل هو الظلم بعينه .. فهل الناس متساوون في استعداداتهم وقابلياتهم ؟ هل هناك قابليات فكرية واحدة عند الجميع ؟ هل المواهب الفنيّة لهم متشابهة ؟ هل يمكن العثور على شخصين متشابهين تماماً في كل شيء فضلاً عن القابليّات الفكرية والمواهب العقلية في شتىٰ العلوم ؟ حتى التوأمان مثلاً فلا يمكن الجزم بتشابههما ، وكذلك هما من الناحية الروحية متفاوتان . ولا ادري فهل خلق الناس متساوين من ناحية قدراتهم البدنية ولياقاتهم ؟ وهل خلقت مشاعرهم وأحاسيسهم وعواطفهم بشكل متكافىء ؟ وهل هم متشابهون من ناحية ميولهم ورغباتهم أونجد الاختلاف واضحاً في هذا المجال ؟ فهذا يرغب في التجارة ، وآخر يرغب في سلك القضاء ، وثالث يرغب في السياسة ، ورابع يرغب في الدراسة ... وهكذا ..

وبما انّ الناس خلقوا متفاوتين في استعداداتهم ورغباتهم ومواهبهم ، اذاً تتفاوت نتاجات أعمالهم أيضاً تبعاً لذلك .. وهذا امر طبيعي لايمكن انكاره البتة ، لانّ البعض يتمتع

بقدرة اكثر على العمل ، والبعض الآخر يفتقر الىٰ هذه القدرة . والبعض ذوو نبوغ وابداع خاصّين ، في حين البعض الآخر ليس له هذا النبوغ والابداع ، فهل من الانصاف ان نكافئهم بصورة متساو ية . وهم غير متكافئين ؟ وفي الاتحاد السوفيتي الـّذي ينادي بالمساواة وضرورة المكافئة بصورة متساو ية ، هل يطبّق هو نفسه هذا المبدأ ؟ هل يدفع للعامل ما يدفع لخروشوف من راتب ؟ هل انّ جميع افراد الشعب الروسي يتمتعون بعبقريّة خروشوف أو انّ خروشوف متميز عليهم ؟

لو اننا ارسلنا طفلين الى المدرسة للتعلّم ، وكان احدهما مجدّاً ، والآخر مهملاً ، فهل من العدالة منحهما نفس الدرجات كي نتبجح ونقول ان دولتنا دولة المساواة ، وليس فيها تفاوت أو تمييز بين افراد الشعب ؟ ولو حصل الاول على درجة (عشرين) ، والثاني على درجة (خمسة) ، وقمنا بمنح كلٍّ منهما درجة (اثنتي عشر ونصف) كي نستخرج معدّلهما بالتساوي ، فهذا هو الاحجاف بذاته ان نساوي بين المجد والمهمل، والذكي والغبي ، **و يقطف** الكسول ثمار جهد المجدّ ! ! علاوة علىٰ انّ هذا العمل متعارض مع منطق العدالة ، ومتعارض مع المصلحة الاجتماعية أيضاً ، والكسول لايصبح مجدّاً بهذا العمل كما انّ المجدّ سوف يتكاسل بسبب ضياع حقه وغمط جدراته.**وسوف** تثبط عزيمته وذلك لانّه يعمل و يقطف الآخرون ثمرة عمله فيتولد عنده شعور بانه اذا عمل أو لم يعمل فهو والكسول على حدّ سواء ، فلم يعمل اذاً ؟

وعندما تكون القابليّة على الابداع عند شخص اكثر من شخص آخر ، و يرىٰ انّ اجوره متساو ية مع اجور ذلك الشخص ، ولا يذكر بالثناء والتمجيد ، ولا يشجّع بذكر اسمه وابداعه ، فسوف ينقطع عنده نفس المواصلة على الابداع والاختراع ، وتذوي همّته لانّه لم يُكافَىء بالمغريات الضرورية ، ولكن اذا ذكر اسمه ، ودُوِّنَ ما اخترعه باسمه فسوف يندفع للابداع والاختراع اكثر فأكثر .. وفي ضوء هذا الموضوع لم يجرأ أحد من الناس ان ينادي بالمساواة بهذا الشكل المجحف .

اذاً لو فسّرنا العدالة بالمساواة ، وقلنا ـ في ظلها ـ بتساوي الناس في الاجور والمكافآت والنعم المتوفرة فانّ هذا لا يمكن اوّلاً ، وفيه ظلم واجحاف ثانياً ، ومدمّر للمجتمع ثالثاً ، وذلك لانّ التفاوت موجود بين الاشخاص طبيعياً . وهنا قد يثار سؤال حول هذا الموضوع وهو : لماذا لم

يُخلق الناس متساو ين في كل شيء ؟ لماذا -والعياذ بالله- لم يراع الله العدالة منــذ البداية عندما خلق الناس ؟ لماذا لم يخلقهــم باشكال ، واجسام ، والوان ، واستعــدادات ، وميول متساو ية ؟ كالمواد المصنوعة في طراز واحد مثل أنابيب المصابيح الّتي تنتجها المصانع .

انّ الكمال ينشأ من الاختلاف ، والتفاوت في الاستعدادات والقابليات وهو الذي يجعل الحياة في حركة دائبة نشيطة . ولو كانت اشكالنا وافكارنا وعقولنا وقابلياتنا وميولنا واحدة ، ونمارس عملاً واحداً ، ولنا مظهر واحد ، وكلّ ما عندنا عند الآخرين فما عسانا أن نعمل ، وما عسى الآخرين ان يعملوا ؟ ولم اختار احدنا العمل التجاري في حين اختار الآخر الدراسة وتحصيل العلم ؟ ولم لم نسلك طريقاً واحداً ؟

اذاً التفاوت مطلوب ولا يعدّ نقصاً ، ولا يمكن القول انّ شيئاً اكمل من شيء أو أنقص منه ، فكل شيء كامل وهويسلك سبيله ولكن الجميع يعانون من النقص كلاً على انفراد ولا كمال الاّ بالاجتماع وتظافر الجهود .

قالوا : «انّ جمال الحاجب في اعوجاجه ، ولو كان مستقيماً لفقد جماله وأصبح شنيعاً» ولابدّ للوجه من أنف ، ولابدّ له من حاجب ، واقتضت الارادة الربّانية ان يكون الانف مستقيماً ، والحاجب معوجّاً ، ولو كان الانف كالحاجب والحاجب كالانف لتشوه منظر الوجه وكان قبيحاً ، فجمال الحاجب في اعوجاجه ، وجمال الانف في استقامته .

يقول الشاعر الايراني الشيخ محمود الشبستري :

«انّ نظام العالم مثل نظام العين والخال والشارب والحاجب ، فكلّ شيء حَسَنٌ في موضعه» .

انّ في الاختلاف بركة لانّه الباعث على انشداد الناس بعضهم للبعض الآخر . وفي الحركة تظهر المستو يات ، ولا يتحقق التعليم والتعلّم الاّ اذا كان هناك معلّم ومتعلّم ، والاوّل ذو علم ، والثاني فاقدٌ له . وهذه العمــليّة هي التي تبعث على انشداد الناس فيمابينهم وشعورهم بحاجة بعضهم الى البعض الآخر، ولو كانوا كلهم متساو ين لما تحقق الانشداد والتعاون فيما بينهم ، ولما تظافرت جهودهم . وكلنا نعلم انّ الاختلاف الموجودة بين الرجل والمرأة يدل على عظمة الخالق -جلّ وعلا- وحكمته في خلقه حتى يتكون الكيان العائلي عندما يختار الرجل زوجته المناسبة وتختار المرأة زوجها المناسب . ولقد اقتضت حكمته ان يتمتع

الرجل بمواصفات غير موجودة في المرأة ، وتتمتع هي بمواصفات غير موجودة في الرجل ، وهذا التفاوت هو الذي يؤدي الى ان ينجذب أحدهما الى الآخر في حين لا تنجذب النساء بعضهن الى **البعض** الآخر ، ولا الرجال كذلك ، ولكن جنس الانوثة وجنس الذكورة ينجذبان أحدهما الى الآخر ، وهذا الانجذاب والتحابب والانشداد من بركات الاختلاف المودع في نظام الخلقة .

اذاً لا يتصور احد انّ الرجل والمرأة **متساو يان** في النظام التكويني أيضاً . والقرآن الكريم يتطرق الى هذه القضيّة **و يُعد** الاختلاف المودع **من** روائع قدرة الباري ـ جل شأنه ـ .

فقال عزّ من قائل : (ومن آياته اختلاف السنتكم والوانكم ...)[1] وقال : (كان الناس امّة واحدة فبعث الله النبيّين مبشّرين ومنذرين)[2] وجاء في الحديث الشريف «اختلاف امّتي رحمة» وهذا الحديث لا يتعلق بالحرب بل يتعلق بالاختلاف الذي ذكرنا سلفاً .. ووجود هذا الاختلاف بين الناس رحمة .

اذاً لو أردنا ان نعرّف العدالة على انّها المساواة ، والمساواة المقصودة هنا هي المساواة في المواهب الاجتماعية ، فقد جانبنا الصواب . ولكن اذا عرّفناها كما عرّفها القدماء على انها «اعطاء كلّ ذي حقّ حقه» فهذا هو عين الصواب ، وهو المعنى الحقيقي للعدالة . **وفي ضوءه** تبتنى الحقوق ، أي في ضوء الكيان الذاتي للاشياء . وما علينا الّا سبر أغوار الشيء في ذاته لنرى ماذا يحمل من جدارة وكفاءة ، وماذا يتمتع به من قابلية واستعداد ، وماذا يمكن ان يؤدّي من دور .

مثلاً للعين حق ، ولليد حق كأعضاء في الجسم . فلو قمنا باعطاء حق العين لليد ، فقد **أجحفنا** بحقها وعطّلنا دورها . فلكل شيء استحقاقه .. وهذا نابع من نظام الخلقة التكوينية .

واود ان اكرر ما ذكرته سلفاً من انّنا لو أرسلنا طفلين الى المدرسة ، احدهما يستحق درجة الامتياز ، والثاني درجة الرسوب ، واعطينا للاول أقل مما يستحقه ، وللثاني اكثر فقد أجحفنا بحقيّهما .

---

(١) الروم / ٢٢ .

(٢) البقرة / ٢١٣ .

ولو سألنا اولئك الذين يتشدقون بالمساواة والمشاركة في كل شيء بين الناس ، لماذا أصبح زيد من الناس رئيساً للوزراء من بين ملايين الناس ؟ لأجابوا : لكفاءته . فلعله كان في البداية عاملاً عادياً ، بعد ذلك أصبح عضواً في نقابة العمّال ، وقام بأعمال كبيرة أهّلته ان يكون ممثّلاً في اللجان والوفود .. وهكذا الى ان اصبح رئيساً للوزراء بفضل قدراته الذاتية ونشاطاته المكثّفة وما هو عليه من كفاءة .. فهذه هي العدالة التي تتحقق بفضل الكفاءات الموجودة .. ولو ساوينا بين الكفوء وغير الكفوء فقد ظلمناهما وغمطنا العدالة مفهومها .

يقول الشاعر : « انّ الذي خلق الاقاليم السبعة ، اعطى لكل ذي حقٍّ حقّه » .

و يقول الشاعر سعدي : عندما تتفجر الثورة في بلاد الشام مثلاً ، يفرّ المتسلطون بالحديد والنار منها ، وتنقلب المقاييس والمعايير فيأتي ابن القرية الكفوء ليصبح وزيراً ، و يذهب ابن الوزير غير الكفوء ليكون شحّاذاً مستجدياً في القرية .

انّ معنى العدالة هو المساواة أمام القانون . اي انّ القانون . ينظر الى الافراد على السواء ولا يفرّق فيما بينهم ، و يراعي مبدأ الاستحقاق . و بعبارة أُخرى : على القانون أن يتعامل وفق مبدأ المساواة مع الاشخاص المتساوين من حيث الخلقة التكوينية ، و يفرّق في تعامله مع غير المتساوين . وهذا هو المعنى الثاني للعدالة ، امّا المعنى الثالث فسيكون حديثنا ليوم غدٍ ان شاء الله .

مفهوم العدالة،

وردّ النظريّة القائلة بنسبيّتها

مفهوم العدالة، وردّ النظرية القائلة بنسبيّتها

قال تعالىٰ: «لقد ارسلنا رسلنا بالبيّنات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط»[١].

ترتبط نسبيّة العدالة بموضوع الخاتميّة وخلود الدين وذلك لانّ الدين ينادي بالعدالة كهدف من أهداف الانبياء ـ عليهم السلام ـ واذا كان للعدالة شكل معين في كل عصر، فأيّ قانون يمكن ان يكون ابدياً خالداً ؟

لا بدّ هنا ان نذكر معنى النسبية اولاً، ثم معنىٰ العدالة، حتى يتبين لنا هل انّ العدالة نسبيّة أو لا ؟ علماً اننا ذكرنا سابقاً شيئاً من التعاريف المطروحة حول العدالة وقلنا: انّ البعض عرّفها بانّها مراعاة التوازن في المجتمع الانساني، اي انّ كل ما من شأنه مصلحة المجتمع، وباستطاعته حفظ المجتمع وتطويره يسمّىٰ عدالة.

هذا كلام بعض الناس، ولهم ايضاً رأي خاصّ بالنسبة الىٰ الحقوق فيقولون: ليس للاشخاص حقوق اساساً، وانما الحقّ للمجتمع وكفىٰ. ولا معنىٰ لمراعاة حقوق الافراد لانّ الفرد ليس له حق اصلاً بل الحق للمجتمع.

يقول أحد العلماء انّ الحقّ للمجتمع والتكليف للافراد. وما عليهم الاّ العمل بتكليفهم فهم مكلفون والمجتمع هو صاحب الحقّ والهيمنة. هذا قول أحد العلماء، والذي نرومه هو أن نرىٰ هل انّ هذا الرأي صحيح أو لا ؟

---

(١) الحديد / ٢٥.

وردت في نهج البلاغة خطبة، يبدو انّ الامام -عليه السلام- خطبها في الايام الاولى من خلافته. وهي خطبة قيّمة عميقة وتتعلق بالحق والحقوق. وممّا جاء في هذه الخطبة قوله عليه السلام: «الحقّ أوسع الاشياء في التواصف وأضيقها في التناصف»(١) و يقصد فيه انّ الحق مجال واسع جدّاً لوصفه، ولكنه يضيق عند العمل به الى الحدّ الذي يصبح فيه أضيق الاشياء، والشخص الذي كان يتكلم به و يصفه لا يثبت في مقام العمل به.

بعد ذلك يقول الامام -عليه السلام-: لا يجري لاحد الاّ جرى عليه ولا يجري على احد الاّ جرى له» اي: إنّ لكلّ فرد حقّاً على الآخرين وللآخرين حقٌّ عليه. ولا أحد له حق على الآخرين ولم يكن لهم حقٌّ عليه كما لم يكن حقٌّ عليه ما لم يكن له حقٌّ عليهم أيضاً. فالحق متبادل واذا كان من صالح أحد في وقت من الاوقات فهو ضدّه أيضاً.

هذا هو مفهوم الحق والتكليف وفيهِ ردٌّ على أصحاب الرأي القائل بانّ المجتمع صاحب الحقّ على الافراد، والافراد مكلّفون أمام المجتمع. فيكون الحق على الافراد (وهو نفسه التكليف) في حين ليس لهم حقٌّ على المجتمع. امّا الامام عليّ -عليه السلام- فيرفض هذا الرأي و ينادي بالحقّ للاثنين، و يقول: مثلما يكون الحق لأحد، يكون عليه أيضاً.. و يؤكّد على انّ الله تعالى فقط يجري له الحق ولا يجري عليه، وذلك قوله -عليه السلام-: «ولو كان احد يجري له الحق ولا يجري عليه لكان هو الله سبحانه».

حقّاً، لقد نطق حقّاً بقولهِ هذا، علماً انّ السبب في جريان الحقّ لله لا عليه هو انّ حقّه -تبارك اسمه- يختلف عن حقوق الآخرين من حيث انّ حقّه غير مشوب بالنفعيّة والمصلحية في حين انّ حقوق الآخرين مشوبة بالنفعيّة والمصلحيّة..

والمراد هنا انّ الآخرين مكلّفون ومسؤولون أمام الله، وليس لأحد حقٌّ عليه. وعقولنا أقصر من أن تصدّق وجود حقّ لأحد على الله حتى خاتم الانبياء -صلّى الله عليه وآله-. فلا أحد في هذا العالم يدّعي انّه غريمٌ لله ودائنه حتى لو قام بعبادة الثقلين. وهل هناك من يدّعي بذلك و يزعم به الى الحدّ الذي فرضنا فيه انّ الله لم يعطه حقّه الذي له؟ لا.. لا يمكن هذا، ولا وجود لشخص بهذه المواصفات. وقد ورد في مضمون بعض الادعية المأثورة قول أحدهم عليهم السلام

---

(١) نهج البلاغة / الخطبة ٢١٤.

(الهي عاملنا بفضلك ولا تعاملنا بعدلك) وكل ما تمن به علينا هو جودك وكرمك، ونحن لا نريد غيرهما منك. ولو عامتلنا بعدلك يارب، فانّ العدل يعني مراعاة الاستحقاق واعطاء كل ذي حقّ حقّه، وهذا يعني اننا سنحرم من كل شيء لانّه لا حقّ لنا!

ونؤكّد كلامنا انّه لا حقّ لأحد على الله ابداً حتى لو أتى بعبادة الثقلين، وحتىٰ لو كان في أعلى الدرجات من حيث خلوص النيّة.. وحتىٰ لو كان من قيل بشأنه: «ضربة عليّ يوم الخندق افضل من عبادة الثقلين». امّا بين الناس انفسهم فلكلٍّ منهم حقّه على الآخر ولو قارنا فيما بينهم فانّنا نجد انّ البعض عنده أشياء لا توجد عند البعض الآخر، ولكن هم متساوون أمام الله، ولا أحد يمتلك شيئاً بذاته أبداً بل كل ما عنده من الله.

واودّ ان اذكر مثالاً بسيطاً: لو انّ اباً له ولدان اشترىٰ لكلّ منهما حذاءً ومعطفاً، واعطىٰ لكل منهما مبلغاً من المال، فانّهما عندما يتقابلان، يستطيعان وضع حدّ بينهما بقول كل منهما: هذا معطفي، وهذا حذائي.. ولكن هل يستطيعان وضع حد بينهما و بين ابيهما في تكرار نفس القول؟ لا، لانّها مهزلة ان يقول الولد لأ بيه مثلاً: هذا معطفي، وهذا معطفك أو هذا حذائي، وهذا حذاءك.. وذلك انّ كل ما عند الولد هو من أبيه فالمالك الحقيقي هو الاب، فليس من حقّ الولد أن يقول لأ بيه: هذا لي وهذا لك. ولكن من حقّه ان يتفاضل مع أخيه، وتكون لأحدهما اولوية على الآخر، واذا ما ظهرت افضليّة أحدهما فلا يعني هذا انّ الّذي له ليس لأ بيه.

انّ نسبة العبد الىٰ ربّه اقوىٰ من نسبة الولد الىٰ ابيه بكثير، فكلّ ما عند العبد من قوّة بدنية وروحية، اضافة الى انها عائدة له، فهي لله أيضاً لانّ الله افاض بها عليه، وتوفيقه في عمله من الله أيضاً.. ولو أراد ان يشكر الله على كلّ ما يقوم به من عمل فلا يستطيع، ولا يتسنى له ذلك لانه من المستحيل ان يؤدّي حقيقة الشكر لرب العالمين.. ولكنه يستطيع شكر من أحسن اليه من الناس لفظاً أو عملاً وامّا شكر الله فلا يتسنىٰ له لانّ الشكر هذا بنفسه توفيق الهي يحتاج الى شكر آخر. ولو أراد أن يشكر على كلّ نعمة فانّ الشكر أحد النعم فالانسان يظل عاجزاً عن شكر الله، وانّى له هذا الشكر؟ وهل تسنح له الفرصة أن يشكر الله على نعمه، فضلاً عن انه اذا ادّى واجبه بالشكر ـ على سبيل الفرض ـ، فان هذا يتطلب شكراً آخر، و يظلّ رغم كلّ ذلك مديناً لله؟

يقول الشاعر المشهور سعدي : «شكراً لله ـ عزوجل ـ الذي توجب طاعته قربة ، وشكره مزيد نعمة» .

وقد ذكر هذا المعنىٰ أحد الائـمّة المعصومين ـ عليهم السلام ـ حيث قال ما مضمونه : «لا يقدر عبد على شكر الله لانه كلما أراد ان يشكره فانّ شكره يوجب شكراً آخر» والانسان العاجز عن أداء شكر نعمة الشكر ، فكيف يشكر الله على نعمة التنفّس (كما يقول الشاعر سعدي) .

يخاطب الامام زين العابدين ربّه في دعاء ابي حمزة قائلاً : «أفبلساني هذا الكال اشكرك» وهو الـّذي كتبوا عنهُ انـهُ (كان يصلّي عامّة الليل) . وكان يقرأ هذا الدعاء وقت السحر .. وهو آية في عذوبتهِ و بلاغتهِ وفصاحته ، فيقول : الهي ! أبهذا اللسان الا بكم الا لكن اشكرك ؟ ولذلك يقول الامام عليّ ـ عليه السلام ـ ما مضمونه : لو كان لأحد حقٌّ على الآخرين وليس للآخرين حقٌّ عليه فهو الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ علماً انّ هذا الحق ليس كحقّ الناس على بعضهم البعض . و يقول ـ عليه السلام ـ : «قد كان لي عليكم حقّاً بولاية امركم ولكم على مثل الـذي لي عـليـكـم» فهو كخليفة له حقّ على رعيته ، ورعيّته لها حقٌّ عليه ولعلّه ذكر هذه العبارة في صدر كلام له لكي لا يتصوّر أد أنّ الوالي أو الخليفة له حقّ على رعيته ورعيّته ليس لها أيّ حقّ عليه .

عندما يطالع الانسان كتابات بعض الذين بحثوا في فلسفات الحقوق ، فانـّهُ يرىٰ افكاراً متناقضة متضاربة لا طائل تحتها . ومن هذه الافكار قولهم انّ للسلطان أو الملك حقّاً على شعبه ، ولكن ليس لشعبه حقٌّ عليه . وقد وجدت هذه الافكار من يناصرها و يؤيّدها بين فلاسفة اوربا الجدد . وكانت هذه الافكار رائجة في ايران القديمة .. فما أحوج البشرية الى مفاهيم عليّ بن ابي طالب ـ عليه السلام ـ حين يرى بطلان هذه الافكار ، فالحقوق بين الحاكم ورعيّته حقوق متبادلة .. وحق الحاكم على رعيته ان يعمل كل ما في وسعه من أجل صلاحهم وسعادتهم .

ووردت في كلام الامام عليّ ـ عليه السلام ـ عبارة رائعة تدعم ما ذكرناه ، ومضمونها : «لا يستقيم امر الحاكم الاّ باستقامة أمر الرعيّة ، ولا يستقيم أمر الرعيّة الاّ باستقامة أمر الحاكم» .

اذاً ما طرح من موضوع حول الفرد والمجتمع و وجود الحق من جهة ، والتكليف من جهة اخرىٰ ، ومن كان له حق فليس عليه تكليف ، ومن كان عليه تكليف فليس له حق ، غير صحيح،بل انّ الحق والتكليف متلازمان واينما وُجدالحق ،وُجدمعه التكليف جنباً إلى جنب ؟

لقد وعدتكم هذه الليلة ان اتحدث عن رأي الاسلام بالنسبة الىٰ حقوق الفرد والمجتمع .. فماذا يقول الاسلام ؟ هل الحق للفرد أو للمجتمع أو للا ثنين معاً ؟

يرى الاسلام انّ الحقّ للا ثنين معاً ، فلننظر كيف يكون هذا ؟

لقد ذكرت البارحة ان انصار النظرية الفردية يرون ان الاصالة للفرد لا للمجتمع ، امّا انصار النظرية الاجتماعية فيرون العكس ، وكلاهما على خطأ لانّ الاصالة للا ثنين دون تفريق .

ذكرنا كلام القائلين باصالة الفرد وفسّرناه ـ من خلال كلامهم ـ بانعدام وجود كيان اسمه «المجتمع» ، وهذا يعني عدم وجود الافراد أنفسهم !

انهم يقولون انّ الوجود للافراد الذين يتكلمون ويمشون و يأكلون ، ولا وجود للمجتمع لاننا نحن اطلقنا هذه الكلمة على مجموعة من الافراد مجتمعة في مكان واحد ، والاّ لا وجود له في الحقيقة .. و بعبارة اخرى وجوده اعتباري لا أصيل، وهناك مسألة فقهية خلافية بين الفقهاء ، وهي : هل الملكية للدولة أو للفرد ؟ هل انّ كلّ ما لدى الدولة ملك شرعي لها أو لا ؟ هل للدّولة صلاحية التملك أو لا ؟ ولو قامت الدولة بعمل مشروع فهل لها الحق ان تكون مالكة له شرعاً . أو لا ؟ ولو مارست الدول التجارة كالفرد ، وزاولت اعمالاً عامّة (ويمكن ان تعمل الدولة في القطاع التجاري،وتقدّم بذلك خدمة لشعبها) فهل تصبح مالكة عن هذا الطريق أو لا ؟

ولو اخذنا الخدمات البريدية والتلغرافية مثالاً على ذلك ، فانا نشاهد ان لو كانت عند أحدنا رسالة فانّه يقدّم للدولة ريالين لقاء قيامها بايصالها الى المقصد المعين ، ولو لم تقم الدولة بذلك فلا بد أن تتولى مؤسّسة اهلية غير حكومية هذه المهمّة ، وتعلن مثلاً عن استعدادها لانجاز المهمّة لقاء أربع ريالات يقدّمها أصحاب العلاقة لها . فمن المسلّم به انّ هذه المعاملة شرعية ولا اشكال فيها .. والآن تأتي الدولة مثلاً وتعلن عن استعدادها لانجاز نفس المهمّة ، فهل انّ عملها صحيح أو لا ؟

هناك اختلاف بين العلماء بشأن هذه المسألة ولكن اكثرهم يقر بجواز ملكية الدولة ،

و يرون صلاحيتها في التملك . ولو كان للدولة مال حلال حيث تعمل كالفرد وتجمعه عن هذا الطريق فانه مالها ولا يجوز التصرف به ، امّا اذا جمعته عن طريق غير مشروع فهو غير مشروع أيضاً .

وفي شأن المعاملات أفتى بعض العلماء بصحّة المعاملة فيما اذا عامل الشخص بشكل كلي مجمل حتى لو كان المال الذي يدفعه في المعاملة حراماً .. وللمرء أن يسأل هنا : كيف يكون هذا ؟

والجواب هو: اذا كان عند الشخص مالٌ حرام ولكن لا يذكره عند المعاملة ، فلو أراد ان يشتري بيتاً مثلاً وقال لبائعه : اشتري منك هذا البيت بهذا المال الذي عندي ، وماله حرام طبعاً ، فالمعاملة باطلة .. امّا اذا قال له : اشتري منك هذا البيت بعشرين الف توماناً على ان ادفعها لك غداً ، ولم يعيّن من ايّ مال هي ، وجاءه في اليوم الثاني ودفع به نفس المال الحرام ، فالمعاملة صحيحة لكن لا تبرأ ذمّته ، أي : ذمّة المشتري ، أمّا إذا دفع له مالاً حلالاً فلا اشكال عليه .. وفي حالة دفعه للمال الحرام يصبح مالكاً للبيت لكن ذمّته معلّقة .

هذا ما أفتى به أغلب العلماء الاّ المرحوم الشيخ عبدالكريم الحائري كما سمعت . ولو ألحقنا بهذه الفتوىٰ فتوى اخرىٰ بان تكون المعاملة كلية و يكون الدفع من المال الحرام عند المعاملة ، فالمعاملة صحيحة وهذا ما ينطبق على الحكومة ، فلو ارادت الحكومة شراء قاطرات ، أو عربات تلك القاطرات ، أو قضبان السكك الحديدية من أحد الباعة ، وقامت بدفع ثمن تلك الوسائل فمعاملتها صحيحة حتى لو كان المال الذي تدفعه حراماً ، وتصبح بذلك مالكة شرعية لتلك الوسائل .. ولو اراد شخص ان يتعامل معها ، فيتعامل معها كمالكة شرعية ، وعندها تكون السرقة أو الغش (مهما كان نوعه) خلافاً للشرع . و يكون الانسان مديناً لها فيما اذا تعامل معها حول بضاعة من البضائع وأخذ منها خمسة عشر كيلواً بضاعة اضافية دون علمها . ولو أعلنت الحكومة عن مجانيّة النقل للاطفال دون الثانية عشرة سنة ، وادّعى شخص انّ عمر ولده احدى عشرة سنة ، في حين عمره الحقيقي اثنتا عشرة سنة ، فهو لم يرتكب الحرام بكذبه فقط ، بل و يبقى مديناً لها .

فمسألة ملكية الدولة مسألة فقهية لها علاقة قريبة جداً بموضوعنا ذي البعد الفلسفي والاجتماعي . و بناء على نظرية اصالة الفرد يكون وجود المجتمع وجوداً اعتبارياً ، وبما انه

اعتباري فليس له وجود اساساً ، كما ولا ملكية له . ولكن الحق لاولئك القائلين باصالة المجتمع وصلاحيته للتملك بالطرق المشروعة .. ونكتفي بهذا المقدار من الحديث عن ملكية الدولة أو عدمها لانه ليس محل بحثنا حتىٰ نفصّل فيه ، وانما كانت مسألة عابرة تم طرحها . اما الآن فعلينا أن نرىٰ ، لماذا يكون للمجتمع وجوده ؟

انّ النظرية القائلة انّ المجتمع مجموعة افراد نظرية خاطئة وذلك لانه اكثر من أن يكون كذلك . وفي هذا الصدد عليّ ان ابيّن موضوعاً معيّناً له علاقة ببحثنا هذا .

لعلكم درستم في المرحلة الثانوية ، ما هو الفرق بين المزيج والمركّب . فالمزيج هو وجود اشياء قد امتزج بعضها في البعض الآخر ، وليس اكثر من الامتزاج هذا ، ايّ : دون أن يذوب بعضها في البعض الآخر كما لو مزجنا بين الحمّص واللّوبياء . حيث يبقى كلٌّ منهما على حاله . وكذلك بالنسبة الىٰ الهواء فهو مزيج من الاوكسجين والنتروجين .

اما المركّب فيعني وجود اشياء ممتزجة في بعضها البعض ومتجانسة بحيث ينتج تجانسهما شيئاً ثالثاً ، مثل الماء حيث هو مركب من الاوكسجين والهيدروجين وكلاهما من الغازات المعروفة ، واذا ما تجاورا وامتزجا انتجا ذلك السائل الذي له خاصيّة تختلف عن خاصيّة كل من الغازين . والمركبات في هذا العالم كثيرة ، وما علم الكيمياء الّا علم المركّبات .

هذا هو الفرق بين المزيج والمركّب ، والآن لننظر ماذا يشبه أفراد النوع الانساني الذين يعيشون مع بعضهم الآخر ، هل يشبهون المزيج أو المركّب ؟

يبدو انّهم للمركّب اقرب منهم للمزيج ، وذلك اننا لو وضعنا مائة ألف صخرة متجاورةً مع بعضها البعض لمدة مائة ألف سنة فلا تؤثّر صخرةٌ في اخرىٰ ، ولو زرعنا مائة ألف شجرة متقاربة متجاورة ، فكل واحدة منها تعيش وحدها ، وتنشغل بنفسها ، و يصبح شغلها الشاغل الماء والارض والنور والحرارة ، ولا يهمّها غيرها . امّا افراد النوع الانساني فانهم

يكسبون شخصيتهم من بعضهم البعض ، وكلّ واحد منّا يحصل على شخصيَّة من مجتمعه ، وكذلك المجتمع فانّ شخصيّته من أفراده .. ولا ننكر القول ان لكل منا مشاعره وآراءه الخاصّة به ، وله عقله وارادته التي بها ينتخب ما يراه صالحاً له ، وليس هناك من اجبار ، لكن يظل ما عندنا من المجتمع ، فالصدق -على سبيل المثال- صفة محمودة يتصف بها بعض الناس ، ولو فكّرنا بها مليـاً وأمعنّا النّظر فيها بدقّة نجدها من معطيات المجتمع .. وكذلك الايمان والاعتقاد بالاسلام فهي من معطياته أيضاً ، فلا البر ولا الجو منحا هذا التوجه للافراد ، بل المجتمع .. فالمجتمع الذي كسب الاشخاص هذه الصفات منه ليس مزيجاً كما انه لا يملك صفات المركب في تركيزه كالماء مثلاً بل هو شبه المركب . والتأثير بين المجتمع والفرد تأثير متبادل . وما المجتمع -بمجموعه- الّا وحدة واحدة لها كيانهَا وروحها وعمرها .

وهذا موضوع رائع عجيب التفت اليه العلاّمة الطباطبائي واستنبطه من القرآن الكريم بأفضل ما يكون حيث يذكر انّ القرآن اقرّ للمجتمع شخصيته ، وحدّد له عمره .. «لكلّ امّة أجل فاذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون»(١) وكذلك فهو يرىٰ ان المجتمع يمرّ بحالات متفاوتة من الصحّة والمرض ، والسعادة والشقاء . و يعتقد انّ للمجتمع مساهمة في تحمل اعباء المسؤولية . وقد يخطر على بال البعض هذا السؤال وهو : لماذا تُعذّب الاقليّة الصالحة بذنب المجتمع الطالح الـّذي تعيش فيه ؟ والجواب هو انّ مثل افراد المجتمع كمثل اعضاء الجسم الواحد فاذا ما اصيب أحد الاعضاء بالسرطان ، فليس لبقيّة الاعضاء الاعتراض على تلفها وموتها .

ولذلك نجد الترابط العميق بين افراد المجتمع ، واذا ما سعد المجتمع يسعد الفرد ، واذا ما شقى يشقىٰ ولا انفصال ولا فجوة تحدث الّا في ذلك العالم امّا في هذا العالم فالا تصال مستمر بين افراد المجتمع ، وكلهم شركاء في السرّاء والضرّاء ، ولا امتياز الّا في ذلك العالم

(١) الاعراف / ٣٤ .

حيث يقول جلّ من قائل : «فامتازوا اليوم ايّها المجرمون»[١] فلا امتياز في هذا العالم .

والقوانين العلمية في عالم اليوم تؤكد هذه الحقيقة وهي انه اذا فسدت شريحة من الشرائح الاجتماعية فانّ هذا الفساد يسري الى بقيّة الشرائح ، و يعمّ البلاء كافة افراد المجتمع حيث يجرف معه الصحيح والسقيم والغثّ والسمين ، ويحترق الاخضر واليابس . لكنه يعتبر عذاباً الهياً للمستحقين وربما له تتمّة في الآخرة ، و يعتبر مصيبة و بلاءً لغير المستحقين لكنهم يؤجرون عليه في الآخرة .. على اي حال ، ليس في هذه الدنيا تمييز وتفريق وانفصال بين أفراد المجتمع .

وبما انّ للمجتمع وجوداً وتركيباً و وحدةً ومسيراً وخطّاً وتكاملاً وعمراً وحياةً وموتاً ، ولا يمكن ان لاتكون له هذه الاشياء ، اذاً له حقوق .. واذا ما سلّمنا بهذه الحقيقة فانّ خطأ القائلين باصالة الفرد واعتبارية المجتمع يتضح أكثر فأكثر .

جاء في القرآن الكريم قوله تعالىٰ : «النبيّ اولى بالمؤمنين من أنفسهم»[٢] وهذا يعني انّ للنبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ ولاية على المؤمنين أكثر من المؤمنين أنفسهم ، واذا ما كان المؤمن مالكاً لنفسه وثروته وحرمته ، فانّ ملكية النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ لها أقوىٰ ، من حيث انّ الانسان ـ في حقيقة الامر ـ ليس مالكاً لتلك الاشياء ، وليس له حق التصرف بها وحده كما انه غير مالك لحقيقته ، وورد في الحديث ما يدعم قولنا هذا حيث جاء ما مضمونه : (إنّ عرض المؤمن ليس في تصرفه) ولكن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ مالك لنفس المؤمنين واذا ما رأى مصلحة في أمر من الامور فانه يضحّي بتلك النفس. ولعلّ سائلاً يسأل : ما معنى هذه الولاية ؟ ولم منح الله تعالىٰ هذه الولاية للنبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ ؟ وهل منحها له لتصبّ في مصلحته ؟

والجواب هو: انّ الله ـ تعالىٰ ـ منح الولاية لنبيّه الكريم ـ صلّى الله عليه وآله ـ باعتباره

---

(١) يس / ٥٩ .

(٢) الاحزاب / ٦ .

وليّ أمر المسلمين ، ورئيس جماعتهم ، والممثّل المطلق الكامل لمصالحهم ، ولهذا السبب منح الولاية حتّى إذا ما رأى مصلحة اجتماعية مهمّة في أمر معيّن ، فإنّه يضحّي بالفرد في سبيل تلك المصلحة . ولم يذكر أحد قط أنّ ولاية النبيّ -صلى الله عليه وآله- كانت تصبّ في منفعته الشخصيّة لانّ النبيّ -صلّى الله عليه وآله- من وجهته الشخصية -لم يكن محتاجاً لأحد من الناس حتىٰ يضحّى به من أجل مصلحته الشخصية . ولم يقل بهذا أحد .. ولكن حقّ الولاية هذا ، هل يخصّ النبيَّ -صلّى الله عليه وآله- وحده أوينتقل الىٰ غيره ؟ والجواب هو: لا ، لا يخصّه وحده ، بل ينتقل إلىٰ الإمام من بعده ، و يكون له ما للنبيّ من ولاية بكلّ مواصفاتها باعتباره وليّاً لأمر المسلمين وراعياً لمصالحهم الاجتماعيّة . ولا يقتصر حقّ الولاية عليهما فقط ، بل ينتقل إلىٰ صاحب الحكومة الشرعية المأذون من الله -تعالىٰ- نيابة عن النبيّ والإمام ، عليهما الصلاة والسلام .

وان دلّت هذه الحقائق علىٰ شيء فإنّما تدلّ علىٰ العناية الفائقة الّتي يوليها الإسلام للمجتمع ، واعتقاده بأصالته وحياته . والواقع انّ للمجتمع وحدة ، وليس هو أمراً اعتبارياً مطلقاً أبداً .

قد تطفو علىٰ السطح مسائل أحياناً يصعب علاجها من وجهة نظر الفلسفات الأُخرىٰ . ومن هذه المسائل مثلاً : هل هناك تكليف ومسؤولية علىٰ جيل من الأجيال بالنسبة إلىٰ الجيل القادم أو لا ؟ وهل علينا مسؤولية -كجيل معاصر- تجاه الجيل القادم أو لا ؟ فلو قلنا : نعم ، علينا مسؤولية ، فهذا يعني انّ الاجيال القادمة لها حقٌّ علينا ، وليس لنا الّا ايفاء هذا الحق ، ولو قلنا : لا ، ليس لهم أيّ حق ، فما هو موقع التصريحات التي تدلى بها كافّة شعوب العالم من انّها مسؤولة عن الاجيال القادمة ؟ وما هو مغزىٰ هذه التصريحات ؟ وماذا تعني المسؤولية تجاه الاجيال القادمة ؟ وانا اسأل اولئك الذين يبرّرون الحقوق خارج المدرسة الالهية عن معنى كلامهم حول مسؤوليتهم تجاه الاجيال القادمة ، هل هو صحيح ؟ وماذا يعني حقّ الاجيال القادمة علينا ؟ من أين جاءها هذا الحق وهي لم تولد بعد ؟ ما هو مصدر هذا الكلام ؟ وما أساسه ؟ علماً انّ الكلّ يقرّون بهذه الحقيقة ، و يرون الاضطلاع بهذه المسؤولية من لدن الجيل الحاضر تجاه الجيل القادم مهمّةٌ لابدّ منها .

ولا يخفىٰ فانّ هناك من لا يقرّ بهذه الحقيقة ولا يؤمن بهذه المسؤولية ، ويتنكّرلها من

أمثال الشاعر المعروف ابي العلاء المعرّي الذي يتساءل عن جدوى وجود الجيل القادم ولماذا نعمل على ايجاده ؟! و يرى اننا نرتكب ذنباً عندما نعمل على ايجاد الجيل القادم ! بل يرى الحياة عبثاً وشراً ، و يعتقد باجرام كل من يهيىء الارضيّة لمجيء الجيل القادم ، ولذلك لم يتزوج طيلة حياته ، واوصى ان يكتب على قبره هذا البيت :

هذا جناه أبي عليَّ وما جنيتُ على أحد

والشاعرعمرالخيّام له نفس اتّجاه الشاعر المعرّي. وهذا اتجاه معاكس تماماً لمن يرى نفسه مسؤولاً عن الجيل القادم . ولا مجال للحديث في ظل هذا الاتجاه لا سيما وانه يرى انجاب الاطفال جريمة ، ومن الخطأ ان يطرح مفهوم المسؤولية تجاه الجيل القادم في أجوائه لانه ينادي بالعمل على عدم مجيء الجيل القادم فضلاً عن المسؤولية تجاهه .. ولكن من ينادي بالمسؤولية تجاه الجيل القادم وحقّه على الجيل الحاضر ، عليه ان يوضّح هذا الحق والمسؤولية ، و يبيّنها بكلّ جلاء .

تنطق الحقوق من رؤية تعتقد انّ لهذا العالم خالقاً وهو الله تعالى ، وانّ لمسيرة الحياة هدفاً وغاية .. ولو كان العالم عالم الصدفة لكان كل ما قيل عبثاً واعتباطيّاً ، لانّ القائلين بالصدفة يناقضون أنفسهم حيث تراهم مرةً يقولون : انّ هذا العالم وجد صدفة ، وليس هناك من هدف أو علّة غائية وراء وجوده ، واخرى يقولون بانهم مسؤولون عن الجيل القادم ، في حين انّ المسؤولية عن الجيل القادم تستلزم وجود نظام حكيم يسود هذا العالم ، وانّ له هدفاً معيناً .. واذا آمنا انّ له هدفاً معيناً اقتضاه الابداع الربّاني فهذا يعني انّنا مسؤولون أمام المبدع العظيم ، وأمام هذا الوجود ..

لقد أودع فينا نظام الخلقة الجهاز التناسلي والغريزة الجنسية إعداداً لمجيء الجيل القادم ، وفي ضوء هذا يكون له حقٌّ علينا ، ولو لم تكن هذه الحقيقة ، فما معنى حق الجيل القادم علينا ؟

ولو تركنا الجيل القادم جانباً ، واخذنا الجيل الحاضر بنظر الاعتبار ، وكمثال نأخذ الاب و ولده الصغيربنظر الاعتبار ، فهل للولد هذا حقٌّ على أبيه ، أولا ؟

وهل هناك من يقول : لا حقّ له على امه وابيه ؟ لا ، فانّ له حقاً يقرُّبه كل احد .. ولما كان الاب قد انجب هذا الولد ، فعليه تربيته ورعايته .. و يكون له بذلـك حقٌّ عليه .

و يثار هنا سؤال هو: من أين جاء هذا الحقّ؟ والجواب هو انّ المشيئة الربّانية قد أودعته في النظام التكويني، واقتضت التواصل والترابط بين أفراد النوع الانساني .. وكأنّ الله تعالىٰ يقول: لأجل هذا أودعت عاطفة الابوّة والامومة بين الناس، وجعلت للولد حقّاً على أبيه .. وهو كذلك حيث ان نظام الخلقة هو الذي أودع تلك الاشياء، و بهذا يكون للمجتمع حقٌ على العموم.

امّا الفرضية الاخرىٰ التي تقول: انّ الوجود للمجتمع لا للفرد، فاني اعتقد بعدم الحاجة الى ردّها لتفاهتها وعدم جدوى البحث فيها .. ولا ادري ما معنى ان لا يكون للفرد وجود، انه ليس اكثر من ان نقول انّ الوجود للمجتمع، والمجتمع يتركب من الافراد .. فهل يمكن القول عندها ان لا وجود للفرد، وانّ وجوده امر اعتباري؟ولو كان وجوده اعتبارياً، فمن أين جاءت التركيبة الاجتماعية، وكيف تكونت؟

الى هنا يمكنني أن اكتفي بهذا المقدار ممّا اردت طرحه في هذه الليالي من موضوع علمي.

اما بالنسبة الىٰ العدالة فأقول: لو كانت تعني التوازن، فهي لا تخرج عن نطاق تعريفها القائل: انها اعطاء كل ذي حقّ حقّه، وذلك انّ المجتمع لا يتوازن اذا كانت حقوق أفراده مسحوقة. فالتوازن الاجتماعي يعني مراعاة حقوق جميع افراد المجتمع، وحقّ المجتمع نفسه. ولا يتحقق التوازن الاجتماعي ابداً في ظل الفرضية التي ترى انعدام الحقوق الفردية تماماً. لكن لا ننكر القول انّه قد يطرأ على نظام التوازن طارىء حيث تصل الحالة بان يضحّي الفرد بحقّه من أجل مصلحة المجتمع، ولا يتحقق هذا الّا اذا كان هناك هدف في النظام الكوني يؤمّن من خلاله حق ذلك الفرد في مكان آخر.

كيف يتم هذا؟

عندما يكلف الشخص بالجهاد والخدمة العسكرية والتضحية بروحه، و يقوم بذلك، فانه يجعل حقّه فداءً للمجتمع .. وهنا لابدّ من قاعدة يرتكز اليها في عمله هذا. فما هي هذه القاعدة؟ وهل لها الشخص حقٌ على روحه، أولا؟ واذا كان له حقٌ فلماذا يضحّي بنفسه فداءً للمجتمع، في حين لا يستفيد منه شيئاً بعد وفاته؟ و يأتي الجواب هنا من انّ الدنيا والآخرة والموت والحياة وجودات متصّلة مع بعضها البعض، واذا ما ضحّى الانسان بنفسه، فلا

يعني طمس حقّه تماماً بل يعني انّه سيعوّض عن حقه هذا حقّاً آخر في عالم الآخرة ، ولو لم يكن الارتباط بين الدنيا والآخرة محرزاً . وهدرت بعض الحقوق في عالم الدنيا دون تأمينها في عالم آخر فهذا يعني ان الجهاد والتكليف بالتضحية والخدمة العسكرية لا اساس لها ولا قاعدة ، وهذا ظلم ، وظلم مطلق لا علاج له .

ظهر من كل هذا اذاً انّ اساس العدالة هو الحقوق الواقعية الموجودة . ولا تعني العدالة المساواة أو التوازن غير القائم على الحقوق ، بل تعني انها ذلك المفهوم المرتكز على الحقوق الواقعية والفطرية ، وانّ للفرد حقاً ، وللمجتمع حقّاً .. وتتحقق هذه العدالة عندما يُعطىٰ كلُّ شخص حقّه ، فهي تعني رعاية الحقوق ، وانّها واحدة لا تتغير في جميع الازمنة والعصور ، فهي مطلقة غير نسبيّة ، ومن قال بنسبيّتها فهو على خطأ ...

اكتفي بهذا المقدار وابتهل الىٰ الله تعالىٰ أن يعرّفنا على حقائق ديننا المقدّس اكثر فأكثر.

دراسة للنظرية
القائلة بنسبيّة الأخلاق

دراسة للنظرية القائلة بنسبيّة الاخلاق

قال تعالىٰ : «انّ الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى و ينهىٰ عن الفحشاء والمنكر والبغي»[1] .

لقد تطرقنا في الليالي الماضية الى موضوع العدالة ، وكان ملخص ما قلناه عنها انها مبتنية على أساس الحق والاستحقاق ، وانّ حقوق الانسان ثابتة مطلقة مهما تعاقبت الازمنة والعصور، ولذلك فالعدالة مفهوم مطلق غير نسبيّ .

اروم التحدث في هذه الليلة عن نسبية الاخلاق الذي اشرت اليه سلفاً ، واكون بذلك قد انهيت حديثي عن النسبية في العدالة والاخلاق . لقد ذكرتُ ان البعض يعتقدون بنسبية الاخلاق ، وقلت ان المراد منها هو عدم وجد اخلاق جيّدة أو رديئة ثابتة في كل زمان ومكان ، فقد يكون خلق ما جيّداً في مكان أو زمان معينين ، ورديئاً في مكان أو زمان آخرين ؛ فالاخلاق نسبيّة ، وبما انّها نسبيّة فلا يمكن ان يكون لها نظام ثابت في كل عصر ومصر، بل يكون متغيراً تبعاً لذينك العنصرين .

هذا ملخص ما يعتقده البعض حول نسبيّة الاخلاق ، وما علينا الآ دراسة هذا الموضوع ومناقشته ليتّضح لنا هل هو صحيح ، أولا ؟

انّ النظرية القائلة بنسبيّة الاخلاق غير صحيحة . ونقول لمن يؤمن بهذه النظرية : ما معنىٰ ان يستحسن المجتمع شيئاً أو يستقبحه ليكون هو المقياس في الحكم على نسبيّة الاخلاق ؟

---

(١) النحل / ٩٠ .

علماً انّ اول من طرح موضوع الحسن والقبح العقليين هم المسلمون ، وهو في مقابل الحسن والقبح غير العقليين ، فماذا يعني ؟

انّ الحسن والقبح غير العقليين يعنيان وجود قبح وجمال ملموسين يمكن ادراكهما بالعين ، مثل وجه الانسان حيث يكون تشخيصه يسيراً فيقال : هذا وجه جميل ، وهذا وجه قبيح . وكذلك عيونه ، فيقال : هذه عيون نجلاء ، هذه عيون عمشاء .. والمثل يسرى الى الحيوانات ايضاً ، فيقال : الظبي حيوان جميل ، والغراب حيوان قبيح ، مثلاً . وهكذا فالحسن والقبح هذان ماديّان يمكن مشاهدتهما ، واصبح علم الجمال أحد العلوم المعروفة في العالم هذا اليوم .

امّا الحسن والقبح العقليان فيعنيان وجود قبح وجمال غير ملموسين ، ولا يمكن مشاهدتهما بالعين بل من وظيفة العقل ادراكهما ، وتشخيص الاشياء القبيحة من الجميلة . فمثلا قد يكون هناك غريب في منطقة ما ويمرض ، فيأتيه شخص لا يعرفه أبداً ، لكن بمجرّد أن يشعر أنّه غريب ومريض يأخذه الى المستشفى فوراً و يعرضه على الطبيب ، واذا ما رأى الطبيب ضرورة رقوده في المستشفى تراه يذهب لعيادته بشكل منظّم .. واذا خرج من المستشفى واراد الرجوع الى بلده أو مدينته وليس عنده مال يكفيه ، يذهب ذلك الشخص و يشتري له بطاقة السفر كي يتسنى له العودة الى وطنه .. فلوفرضنا انّ الشخص الغريب من العراق ، وانّ الذي أحسن اليه من احدى الدول الافريقية ، ولا يلوح في الافق احتمال لقائهما ثانية ، فهل انّ العمل الذي قام به هذا الرجل حسن ، أولا ؟ من الطبيعي انّ الجميع يقرّون بحسنه ، والحق هو عمل حسن جميل جليل ، ولكن حسنه وجماله ليسا ممّا تقع عليه العين .. ولا يمكن لها ان تدركه كما لا يمكنها ادراك جمال الصوت ، امّا ضمير الانسان فانه يدرك جمال هذا العمل وعظمته ، وكذلك عقله فانه قادر على ادراك حسن هذا العمل وجماله .

هذا مثال حول ادراك العقل لحسن الشيء ، ولكن لو حدث العكس كأن يحسن شخص الى شخص آخر ، وصدفة رآه ذات يوم في الشارع أي : رأى هذا الشخص من أحسن اليه ، و بدل أن يأتيه فيسلّم عليه ، و يشكر جميله بان يصحبه معه مثلاً الى بيته و يضيّفه مع توفّر كافّة الامكانيات لديه ، نراه يخفى نفسه حتى لا يراه ، فماذا نسمّي هذا العمل ؟ انّه لا شك عمل قبيح وضيع وصاحبه قبيح وضيع أيضاً ، لكن من ادرك قبح هذا العمل و وضاعته ؟ هل

ادركته العين ، أو العقل ، انه العقل الذي منّ الله به على الانسان .. وضميره الشاعر.

هذان هما اللذان يستقبحان أمثال هذا العمل . وهذا هو ما يسمّى بالحسن والقبح العقليين . وعلى هذا يجري البعض مقولتهم من انّ الاخلاق المحمودة هي الاخلاق الجميلة عقلاً ، والاخلاق المذمومة هي الاخلاق القبيحة عقلاً . وقد ذكر علماء الاخلاق في كتبهم الاخلاقية الاخلاق الحميدة في مقابل الاخلاق الذميمة ، والفضائل في مقابل الرذائل ، وقالوا انّ الاخلاق الحميدة حميدة بالعقل ، والذميمة ذميمة به أيضاً . وانّ اساس الاخلاق هي قاعدة الحسن والقبح العقليين .

هذه مقدمة اولى ، امّا المقدّمة الثانية فقد ذكروا انّ الحسن والقبح العقليين يتفاوتان تبعاً لاختلاف الظروف والاعصار ، فقد يستحسن الناس شيئاً في عصر معين ويستقبحونه في عصر آخر ، وقد يكون الشيء نفسه حسناً في مكان ، وقبيحاً في مكان آخر .. اذاً قاعدة الحسن والقبح العقليين التي تشكّل الركيزة الاساسية لمفهوم الاخلاق غير ثابتة وغير مطلقة ، وهي ليست واحدة في كل زمان ومكان . ولو اخذنا مسألة ذبح الحيوانات كمثال لاتّضح لنا هذا الامر اكثر ، فذبح البقر في الهند مستقبح جدّاً بل هو من أقبح الأعمال وأشنعها فكما انّ قتل البشر مستقبح في اماكن اخرى كذلك قتل البقر في الهند . ولكن هذا العمل نفسه مستحسن في اماكن اخرى كالباكستان ، وايران ، وافغانستان ، وتركيا ، والعراق وامثال هذه الدول حيث يذبحون البقر بكثرة و يأكلون لحمه ، وكذلك يذبحون غير البقر من الحيوانات فهم لا يستقبحون هذا العمل في حين يستقبحه الهنود .

هذا مثال ، ومثال آخر حول الحجاب والتبرج حيث تتفاوت تقاليد الشعوب بالنسبة اليهما ، فالشعب الذي تربّت نساؤه على الحجاب منذ البداية يستقبح السفور والتبرج ، ولو سوّلت لامرأة نفسها أن تكشف عن وجهها ، فيقال عنها انها قد ارتكبت عملاً قبيحاً شنيعاً .. والنساء أيضاً في هذا الشعب يستقبحن عملها . امّا الشعب الذي لم ير الحجاب طيلة عمره ، ولم يعرفه ايام حياته ، وقد تربت نساؤه على الخلاعة والسفور منذ البداية ، فانه يستقبح الحجاب و يستغربه ، ولو ارادت امرأة من نسائه ان تتحجب وتغطي نفسها فانّ عملها يُعدّ مستهجناً .. فالموقف بالنسبة الى الحجاب يتفاوت من عصر لآخر ، ومن مكانٍ لثانٍ .. والذي نستشفّه من هذين المثالين هو عدم ثبات الحسن والقبح العقليين وعدم وجودهما على وتيرة واحدة

في كل زمان ومكان ، فهما متغيران نسبيّان خاضعان لعاملي الزمان والمكان .

وهناك امثلة اخرى تذكر غير المثالين السالفين ، كتعدد الزوجات مثلاً إذ لا يعدّ قبيحاً عند بعض الشعوب كالمسلمين ، في حين تستقبحه شعوب اخرى ولا تستسيغه ابداً ، فلا أساس ثابت اذاً للحسن والقبح العقليين . .

وفي ضوء ما تقدم من كلام ، فالمقدمة الاولى ـ باعتقاد البعض ـ تعني انّ قاعدة الحسن والقبح هي الدعامة التي ترتكز عليها الاخلاق . والمقدمة الثانية ترى انّ الحسن والقبح مفهومان نسبيان . وكلتاهما غير صحيحتين ولا سيّما الاولى منهما . وما علينا الّا ان نرى اوّلاً ، هل انّ الحسن والقبح يشكّلان القاعدة للاخلاق ، أو لا ؟ واذا ما ظهرت لنا صحّة هذه المقولة نعرّج على مناقشتهما ودراستهما فيما اذا كانا نسبيّين أو لا ؟

انّ النظريّة القائلة بارتكاز الاخلاق على الحسن والقبح نظرية خاطئة من حيث الاساس ، وهي نظرية غير اسلامية ولا علاقة لها بالمفاهيم والافكار الاسلامية علماً انّها ذكرت كثيراً على لسان علماء الاسلام ولكن لم يكن لها وجود في الاسلام نفسه حيث انّها من النظريات الدخيلة عليه اذ جاءت من اليونان ، ومن سقراط بالذات .

لقد كان سقراط يرى انّ الحسن والقبح العقليين هما اللذان يشكّلان القاعدة للاخلاق . و يعبّرون عن مدرسته الاخلاقية بالمدرسة العقلية لانها تعتقد بان الاخلاق الحميدة هي التي يستحسنها العقل ، والاخلاق الذميمة هي التي يستقبحها . فهوقد جعل العقل أساساً لمدرسته الاخلاقية ، والذين ترجموا كتبه ، قبلوا افكاره هذه ، ولا يخفى فانّ علماء الاسلام الذين كانوا يخوضون فيها ادركوا بان الحسن والقبح ليسا على وتيرة واحدة بل متغيرين ، ولكن الذي يهمنا هو أن نعرف لماذا نعتبر الحسن والقبح العقليين اساساً للاخلاق ؟ لنعرّج بعد ذلك على الجواب .

كلاّ ، ليس الامر بهذا الشكل بل كما ذكرت سابقاً بان الاخلاق تعني تنظيم الغرائز والقوىٰ الروحية المودعة في الانسان ، وهي كالطب الذي يعني تنظيم القوىٰ البدنية للانسان . فلا الحسن والقبح العقليان اساساً للطب ، ولا هما أساس للاخلاق أيضاً .

ماذا يعني هذا ؟

لقد تطرقت الى هذا الموضوع سلفاً وقلت انّ في الانسان ـ من الناحية الروحية قوى

وغرائز ، ولكل واحدة منها وظيفتها الخاصّة بها ، وما على الانسان الّا المحافظة على هذه الوظيفة ومراعاة حدّها الطبيعي ، والانتباه الى المقدار اللازم الذي تحتاجه كل واحدة من القوى والغرائز المودعة فيه ، فلا يزيد ولا ينقص فيه ، و يفعل ذلك كفعله في القوىٰ البدنية . ولو لم يشبع الانسان غرائزه الروحية أو افرط وفرّط في بعضها ، فانّ الخلل سيكون حليف هذه الغرائز ، ويحدث الاضطراب والتشوش فيها .. وهذا سيؤدي بالنتيجة إلىٰ ما يطلقون عليه « المرض الروحي » ، فالافراط أو التفريط في اشباع تلك القوى والغرائز سيتمخّض عنهما عواقب وخيمة غير طيّبة للانسان . فلو شره على سبيل المثال في اشباع شهوة الطعام ، ودلّلها وأعطاها فوق ما تستحق ، وكان دائم التفكير في بطنه ، فستفسد اخلاقه وجميع وجوده ، و يشكّل ضرراً على المجتمع ، وكذلك الامر فيما لو فرّط وقصّر في اشباعها ، فسيبرز لون آخر من النتائج غير الطيّبة وهكذا .. فلا نقاش هنا فيما اذا كان هذا التوجه حسناً أو قبيحاً من وجهة نظر العقل ، فيكون اساس الاخلاق ـ في ضوء هذا البحث ـ السلامة الروحية ، وهي كالسلامة البدنية لا علاقة لها بالحسن والقبح ، فلا بدّ للروح والنفس من سلامة وصحّة كسلامة وصحّة البدن الذي يحتاج الى رياضة وتقوية . و بعبارة اخرىٰ يستطيع الانسان ممارسة أعمال تساهم في تربيته بدنياً وروحياً وفكرياً حتىٰ يحافظ على سلامته من الناحيتين الروحية والجسمية . ولقد أحسن كاتب رواية « اميل »[١] عندما تطرّق الى موضوع تربية الطفل واشار الى تربيته في المرحلة الاولىٰ من حياته بان تعرض عليه بعض الأعمال التي من شأنها تقوية روحه ونفسه .

قد يكون الفكر دقيقاً أحياناً ، و يكون غير دقيق احياناً اخرى .. فانا وانت مثلاً نتردّد على هذا المسجد « اتفاق » باستمرار ، ولكن لو سألنا احد عنه ، وعن ارتفاعه وعرضه واللوحات المنصوبة فيه ، فقد لا نحسن الوصف . امّا لو سئل احد الفنّانين الاخصّائيين في الرسم أو غيره فسيجيب بافضل ما يكون وذلك بحكم عمله ودقّته ، و يقال عنه بانّ عينه قد تعودت على الدقّة في الاشياء المرئيّة .. وكذلك الامر بالنسبة الىٰ الاشياء المسموعة ، فالذي عنده معرفة بالآلات الموسيقية يستطيع تشخيص الصوت . وكذا في الاشياء الملموسة ، فبمجرد ان يجس الطبيب بنبض المريض ، يستطيع تشخيص المرض . ولو رام احد معرفة درجة الدقّة في حاسّة اللمس

(١) وهو الكاتب الفرنسي المعروف جان جاك روسو.

عند الانسان ، فيمكنه التدقيق في المكفوفين ولا سيما الكُمهُ منهم ، فسيجد انّ هذه الحاسّة تقوم بأعمال اغلب الحواس والقوى الاخرى .

فالمطلوب هو ترويض كافّة القوى البدنية ، وكذلك القوى الروحية و بالخصوص القوى الانسانية العليا ، كالارادة والعقل والفكر، وتركيز الفكر.. فيجب تقويتها .. وهذه هي الاخلاق ، وما دعامتها وركيزتها الاّ الارادة القويّة للانسان ، تلك الارادة التي تتغلب على شهوته ، وتحكم سيطرتها على عاداته وطبائعه ، و يكون وجودها عنده الى الحدّ الذي لو صمّم فيه على عمل فانّه يقوم به مهما كانت الحواجز والعقبات . فالمصلّي مثلاً عندما يجد الصلاة نافعة مفيدة ، يستيقظ وقت السحر، يصلّي ، و يدعو، و يستغفر، و يستعين بالله ، وتصل لذّته بالصلاة حدّاً انه يستيقظ فجأة فيما لوغلبه النوم ، وذلك بسبب تحكيم ارادته ، امّا نفسه فلا تطاوعه وتلحّ عليه بالنوم والاستراحة ، ولعلّها تغريه بالنعاس فيجد لذةً في نومه .. فان كانت ارادته قوية فانها تتغلب على نفسه ، فينهض من فراشه و يصلّي . وكذلك الامر بالنسبة الى شخص الذي يجد قلّة الاكل نافعة مفيدة له ، فانّه عندما يجلس على المائدة فانه يتناول منها شيئاً ، وقد يجد نفسه مشتهياً ان يأكل اكثر، فيقف حائراً بين عقله الذي يأمره بالكف والاقتناع بما أكله ، ونفسه التي تأمره بالاكل اكثر حتى التخمة ، واذا ما حكّم ارادته فانها ستحول بينه و بين الاكل . (ونحن ـ الايرانيين ـ تعوّدنا على كثرة الاكل ومعدنا واسعة حيث نأكل اكثر من حاجتنا) .

وكذا بالنسبة الى بعض العادات .. فالمدخّن مثلاً يعلم ان السجائر تضرّه وفيها ضرر صحّي واخلاقي ومادّي ، فاذا صمّم على ترك التدخين وكان ذا ارادة ، وقام بما صمّم عليه ، فهذا يعني انّ ارادته تغلبت على نفسه ، وامّا اذا لم يكن ذا ارادة ، فستسيطر عليه عادته وتتغلب على إرادته ..

انّ الاخلاق تعني أن يسيطر الانسان على نفسه ، وتتغلب ارادته على عاداته وطبائعه . و يقوّي من ارادته الى الحدّ الذي يجعلها تتحكم في نفسه وتتغلب حتى على عاداته الجيّدة . و يكون الزمام بيدها .. وعندما اقول : تتغلب حتى على عاداته الحسنة الجيّدة فانّي اقصد انّه لو تعوّد على عادة جيّدة كالصلاة مثلاً فلا يتخذها عادة ، ولا يؤدّيها كعادة ، لانّ هذا التوجّه مذموم مرفوض ، حيث يُفرغ الصلاة من محتواها ، و يفقدها هويتها وعنوانها . وربّ سائل

يسأل : من أين نعرف انّ صلاة الشخص الفلاني عادة مثلاً ؟ والجواب نعرفها من خلال اعماله وممارساته فان كانت مطابقة لما يريده الله تعالىٰ وما تمليه الصلاة عليه ، فانّها متحررة من قيد العادة ، وان كانت غير مطابقة بل ومتعارضة مع المفهوم الصحيح للصلاة ، فانها مغلولة بغلّ العادة شاء الانسان أم أبى .. فلو رابى هذا المصلي أو غشّ الناس في معاملاته ، وصلّى الصلاة الواجبة مع نوافلها ، أو واظب على زيارة عاشوراء ، فانّ ممارساته هذه لا تدلّ علىٰ عبادة واعية صحيحة ، بل تدلّ على عادة ألفها ولا يقدر على تركها . وفي المأثور عن أحد الائمة المعصومين ـعليهم السلام جميعاًـ «لا تنظروا الى طول ركوع المرء وسجوده»[1] والمراد ان لا نخدع بالركعة الطويلة أو السجدة الطويل ، لانّهما قد يكونان عن عادة لو تركها فانه يستوحش لذلك ، ولو أراد احدنا ان يطمئن حول هذا الشخص فليختبره بالامانة وقول الصدق ، وهاتان الصفتان لا ترتبطان بالعادة ابداً كالصّلاة .

اذاً يجب ان تكون ارادة الانسان واخلاقة بدرجة من القوّة بحيث يتغلب الانسان من خلالها على طبائعه وعاداته ، و يصبح كل عمل من أعماله نابعاً عن ارادته . و ينقل عن الفقهاء قولهم : انّنا لو تعوّدنا مدة على عمل مستحبّ من المستحبّات ، فلنتركه فترة حتىٰ ننساه ثم نعود اليه ونمارسه ، وذلك لكي لا يكون عملنا لذلك المستحب عن عادة ، بل عن ارادة .

انّ هدفي من وراء ما ذكرته من كلام هو ان اقول : عندما تكون الاخلاق اعطاء كل قوّة من قوى الانسان حقّها ، وقيام الانسان بدوره تجاه كل قوّة وكل غريزة وصفة ، وعندما تعني تربية الجوانب الانسانية في وجود الانسان ولا سيما عقله وارادته ، ورفد هذه الجوانب بالقوّة الكافية لكي تنضوي سائر القوىٰ تحت سيطرتها .. نعم عندما يكون هذا وذاك هما المعنى المتوخى من الاخلاق ، عندها لا يمكن القول : انّ الاخلاق تختلف باختلاف الازمنة والامكنة ، و يكون لكل شخص لون معيّن منها ، ولكل عصر من العصور نظامه الاخلاقيّ الخاصّ به !

انّ من يرى نسبيّة الاخلاق فهو سقراطي التفكير .. وليست الاخلاق مفهوماً نسبياً وذلك لعدم ارتباطها مع قاعدة الحسن والقبح التي يُزعم انّها اساسها ودعامتها ، هذا اوّلاً ،

---

(١) اصول الكافي .

وثانياً : انّ الموضوع القائل بانّ الحسن والقبح قابلان للتغيير ، قد يكون صحيحاً ، وقد لا يكون . وقد ناقش العلاّمة الطباطبائي هذاالوضوع في بحث له ذكر فيه : انّ المبادىء الاساسية للجمال والقبح العقليين ثابتة ، وفروعهما متغيرة فقط .

اعتذر الىٰ الاخوة الحضور حيث انّي اتوقف عند هذا الحد لشعوري بالتعب والارهاق وعدم استطاعتي مواصلة الموضوع مع دعائي للجميع بالخير والسعادة .

النسخ والخاتمة

النسخ والخاتمية

قال تعالىٰ : «ما كان محمّد ابا احدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيّين» [1] .

من المواضيع الاساسية جداً في رحاب متطلبات العصر، موضوع النسخ والخاتمية ، وهنا نقطتان : الاولى : كيف يتمّ نسخ احكام الله تعالىٰ ؟

انّ النسخ يعني تبديل حكم مكان حكم آخر، وهذا شائع بين من يضع القوانين من الناس حيث يكثر الناسخ والمنسوخ في هذه القوانين . ولا مانع في ذلك ما دام يحدث في الوسط البشري ، لانّ الانسان قد يضع قانوناً في فترة معيّنة ، و يظهر له خطأ ذلك القانون بعد تلك الفترة فيقوم باصلاحه أو تبديله .. لكن كيف يصدق هذا على قانون شرّعه الله تعالىٰ ؟ وكيف يتحقق النسخ في أمثال هذا القانون الالهي ؟ فلا يمكن ان يتصور الانسان انّ قانوناً الهياً قد وضع على لسان الانبياء ، و يبدل أو يصلح بعد فترة لثبوت خطأه مثلاً لانّه يتعارض مع علم الله واحاطته بكل شيء ، بل مع المفهوم الالهيّ الربّاني الذي يستلزم العلم بكل شيء كان أم لم يكن أم سيكون ، في حين انّ طبيعة النسخ تعكس جهل المشرّع ، والله منزّه عن ذلك ، اذن لا بدّ ان نلتمس سبب النسخ في مجال آخر يتبين من خلاله انّه لا يدلّ علىٰ الجهل او القصور، وليس هو كذلك قطعاً ، لكن من جهة اخرىٰ نرىٰ انّ النسخ موجود في القوانين الالهيّة من خلال تعدّد النبوّات حيث يأتي نبيّ من الانبياء بشريعة لفترة معيّنة ، و بعد مدّة يأتي نبيّ آخر فينسخ

---

(١) الاحزاب / ٤٠ .

شريعة النبيّ الذي سبقه ، وهذا ما نلاحظه في شريعة نوح التي نسخت شريعة آدم ، وشريعة ابراهيم التي نسخت شريعة نوح ، وكذا شريعة موسى التي نسخت شريعة ابراهيم ، وشريعة عيسى التي نسخت شريعة موسى ، علماً انّه ليس لقوانين عيسى -عليه السلام- شريعة تقريباً ، لكن لا نقاش في انها ناسخة اجمالاً . ثم بعد ذلك جاء الاسلام فنسخ جميع الشرائع التي سبقته . فالنسخ -اذن- موجود في القانون الالهيّ لكنّه ليس من جنس النسخ الحاصل في القوانين البشريّة كما انّ سببه غير السبب الموجود فيها ، وهو النقص أو الخطأ في القانون نفسه ، فالنسخ يصدق على العلوم البشرية الناقصة ولا يصدق على العلم الالهيّ ، فما هو سبب النسخ -اذن- في القوانين الالهيّة ؟ وكيف يتحقّق ؟ وما هي مبرّراته ؟ من الاشياء المهمّة التي يجب ان نلتفت اليها حسب رؤية متطلبات العصر هي انّ الشرائع التي سبقت الاسلام كانت محدودة لعصر معيّن منذ بدايتها ، ولم يكتب الله لها الخلود والابديّة والدوام ، فكلّ شريعة . كانت تنسخ ما قبلها ، وذلك لانّها كانت مناسبة لعصرها فقط . وربّ سائل يسأل : انّه لماذا لم يشرّع الله شريعة واحدة خالدة تبقى مادامت الحياة باقية ؟ والجواب هو : لم يفعل الله ذلك مراعاة للظروف الزمنية ، لانّ لكلّ عصر متطلّباته الخاصّة به ، فشريعة نوح ، أو شريعة ابراهيم -عليهما السلام- كانتا مناسبتين لعصريهما فقط ، اما العصور الآتية فتتطلب شرائع اخرى تبعاً لظروفها واوضاعها .

و يثار هنا سؤال واشكال مهمّ حول هذا الموضوع وهو : انّه اذا كانت الشرائع تنسخ تبعاً للتبدّلات الحاصلة في كلّ عصر ، فلا ينبغي ان تكون هناك شريعة يطلق عليها : « الشريعة الخاتمة » بل يجب ان تستمر النبوّات ، و يتعاقب الانبياء جيلاً بعد جيل ، و ينسخ الّلاحق شريعة السّابق ، وذلك لانّ عجلة الزمن لا تتوقّف عند حدّ لا سيّما وانّ علّة النسخ -على رأي- لا ترتبط بنقص الشريعة اللاحقة أو عدم استيعابها لمتطلبات المرحلة وتطوراتها ، بل ترتبط بعنصر الزمن ، والزمن لا يتوقف عند نقطة من النقاط . وفي ضوء هذه القاعدة تكون شريعة كلّ نبيّ محدودة لعصرها فقط ، واذا ما انقضى ذلك العصر فلا بدّ من نبيّ جديد وشريعة جديدة .

هذا ملخّص السؤال المثار والاشكال الموجّه ضدّ علاقة النبوّة الصميميّة بعنصر الزمن . و يثيره كثيرون منهم : البهائيون الـّذين يركّزون عليه باستمرار ، لا ، لكي يكون دليلاً يدعم توجّهاتهم المنحرفة ، بل ليكون هزّة تضعضع من مفهوم الخاتميّة في الشريعة الاسلامية تحقيقاً لمآرب

تتلاءم وتعليماتهم ..

والآن نريد ان نتعرّف على الكيفيّة التي يتسنّى للشريعة من خلالها أن تقف عند حدّ لا تتجاوزه ، ولا تسمح لشريعة اخرىٰ بالمجيء ونسخ تعاليمها ، و بعبارة اخرىٰ : كيف تكون الشريعة شريعة خاتمة ؟ وهذا ما يتعلّق بالاسلام ، لانّه الشريعة الخاتمة فقط .

انّ مفهوم الخاتميّة في الاسلام من ضروريّات الدّين ، ولو انكرها أحد فانّه يصبح منكراً للاسلام نفسه ، لانّ النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ كان يعرف بالنبيّ الخاتم منذ الايّام الاولى لبعثته ، واوّل من آمن به ، لم يؤمن به كنبيّ فقط بل آمن به كنبيّ خاتم . وهذا ما اجمع عليه المسلمون منذ الصدر الاول حيث كانوا يعرفونه بهذا العنوان . وقد تواتر عنه ـ صلّى الله عليه وآله ـ قوله : «لا نبيّ بعدي» عندما خاطب عليّاً ـ عليه السلام ـ في غزوة تبوك وقد خلّفه على المدينة ، بعد ان اعرب عن شوقه للجهاد في ركاب الرسول الاعظم ـ صلّى الله عليه وآله ـ ، وهو رجل الحرب والجهاد ، فقال له : «انت منّي بمنزلة هارون من موسىٰ الا انّه لا نبيّ بعدي» وهذا حديث متّفق عليه بين المسلمين ، وقد نقله الخاصّة والعامّة علماً انّ النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ لم يكن محتاجاً حقيقة الامر الى قائد عسكري باسل كامير المؤمنين ـ عليه السلام ـ والّا لما استغنى عنه وهو بطل الحروب والغزوات جميعها ، وذلك لانّ تبوك كانت مناورة عسكرية علىٰ حدود الجزيرة العربية لترويع الروم وتخويفهم ، فلم تكن هناك ضرورة لالتحاق الامام بها ، وهذا هو الذي دعا النبيّ **الأكرم** ـ صلّى الله عليه وآله ـ ان يقرع الاسماع بها ليتناقلها أرباب الحديث والتاريخ والسيرة ، و يسجّلوها فضيلة من فضائل الامام ، ومنقبة من مناقبه التي جلّت عن الاحصاء والتعداد . وقد خصّص المرحوم العلاّمة مير حامد حسين الهنديّ المتوفّىٰ سنة ١٣٠٦هـ جزءاً من كتابه «عبقات الانوار» للروايات المتعدّدة التي ذكرها أبناء العامّة حول هذا الحديث .

على ايّ حال فانّ الخاتمية من ضروريّات الدين الاسلامي .. واودّ ان اذكر هنا بانّ اليهود ينكرون النسخ ، ولا يرون امكانية نسخ أيّة شريعة .. وادّعاؤهم هذا غير صحيح لانّه لو لم يكن نسخ الشريعة ممكناً ، فما بال شريعة موسىٰ ـ عليه السلام ـ التي نسخت ما قبلها من الشرائع ، وهم يؤمنون بها ؟ و بناءً على قولهم فلا حاجة حتىٰ الى شريعة موسىٰ نفسه ، ويجب ان تكون فقط تلك الشريعة التي نزلت في بداية **عمر** الدنيا ، وتبقى هي نفسها حتىٰ الابد . وهذا

غير ممكن طبعاً .

يجب علينا هنا ان نناقش موضوع الخاتمية من جوانبه المختلفة ، فقبل كل شيء ، انّ الحاجة الىٰ نبيّ جديد ليست من أجل التشريع فقط ، لانّ النبيّ ـ بالدرجة الاولىٰ ـ يأتي معه بمعارف الهيّة ، و ينقل حقائق عن عالم الغيب مثل : معرفة الله ، صفاته الالوهيّة ، معرفة المعاد ، وكلّ ما يرتبط بسير الانسان نحو الآخرة ، فاضافة الى القوانين والمقرّرات والاحكام التي يأتي بها النبيّ ، هناك المعارف التي ينقلها الى الناس ، ولو اخذنا بنظر الاعتبار قضيّة الخاتمية من وحي تلك **المعارف** المنقولة الى الناس ، فستكون كالآتي :

لكل نبيّ من الانبياء قابلية محدودة ، ومنزلة خاصّة به ، و يطرح المعارف الالهيّة على الناس متناسبة مع درجة سيره وسلوكه او مع مقدار عروجه في عالم الملكوت . و بعبارة اخرىٰ : يبيّن كل نبيّ من الانبياء ذلك المقدار من المعارف الالهيّة ، الذي استطاع كشفه أو الذي بلغته مكاشفته ـ على حدّ تعبير العرفاء ـ ، ولا يستطيع ان يبيّن اكثر من ذلك لمحدوديّة نفسيّته وقابليّته . ولكن لو جاء بعده مكاشف آخر وهو اعلى منه درجة فستكون **مهمّته** اكبر اذ يتولّى تفصيل المعارف والحقائق التي يتلقاها .. وفي ضوء هذا يمكن ان تكون مكاشفة تلك المعارف ناقصة ، ويمكن ان تكون كاملة ، ويمكن ان تكون اكمل ، وهكذا فهي درجات ، اعلاها وآخرها هو ما يصطلح عليه «بالختام» وهو الحدّ النهائي في المكاشفة حيث يحصل فيه ذلك الانسان المرشّح وهو الانسان الكامل طبعاً على اكبر مقدار من المعارف الالهيّة بالشكل الذي يمكنه من كشف ما يمكن كشفه منها بحيث لا يترك ايّ مجال لانسان بعده أن يحظىٰ بما حظى به من مكاشفة ومعارف تامّة . فهو قد بلغ الحدّ الاعلىٰ من المعارف ، ونال الشرف الاسمىٰ باتصاله الكامل باللوح المحفوظ ، وله درجة لم ولن يصلها أحد أبداً ولو فرضنا مجيء شخص بعده ، فامّا ان يكون في درجته ، أو أكثر أو اقل منه ، فان كل اقل منه فلا يعبأ به كما لا تكون له تلك المنزلة العلميّة والاجتماعية وذلك لنقصه . وان كان في درجته أو اكثر منه على سبيل الفرض ، فليس هناك من شيء وراء تلك الاشياء كي يتسنى له كشفه ، كما انه سيكرّر نفس ما قاله الاوّل فيما لو صحّ بلوغه درجته .

و يكون مثل ذلك مثل من يريد ان يعرف ماذا يجري على سطح القمر ، فيرسل صاروخاً ، و يقوم هذا **بالتصوير** ونقل الاخبار ، و يزوّد من ارسله بمقدار من المعلومات ، ثم يرسل

صاروخاً آخر فيأتي بمعلومات اكثر ، وهكذا يواصل ارساله للصواريخ حتىٰ يصل حدّاً لم تبق فيه اية معلومات تكشفها تلك الصواريخ ، و يقف عند نقطةٍ فوق قابليّاته وامكانيّاته ، ولو بقي هناك شيء فهو فوق طاقته .

لكن لو اراد استئناف ارساله للصواريخ او روّاد الفضاء ، فلا يأتون بجديد ، بل سيكرّرون نفس المعلومات السابقة .. وهكذا فالخاتميّة تعني الختام والفصل الكامل من وجهة نظر المعارف الالهيّة ، وعندما يتّخذ الفصل الكامل شكله الحقيقي فلا معنىٰ لوجود فصل آخر مغاير له .. ولو فرضنا نبيّ آخر في درجة النبيّ الخاتم فسيكرّر نفس ما قاله ولا يأتي بجديد .

وانا اتحدث عن موضوع النسخ والخاتمية ، ارى من الضروري التعرّض الىٰ نكتة لها علاقة بالموضوع ، وهي : هل انّ كلّ نبيّ افضل من غير النبيّ ؟ لا ، إذ هناك من هم غير انبياء لكنّهم أفضل ويمكن ان يكون هناك نبيّ وله شريعة ، وهناك شخص تابع لنبيّ آخر ، لكنه افضل من ذلك النبيّ صاحب الشريعة ، فمثلاً نوح أو ابراهيم أو موسىٰ وهم من الانبياء ولهم شرائع ، لكنّهم اقلّ درجة من عليّ بن ابي طالب ـ عليه السلام ـ أو الصدّيقة الكبرىٰ فاطمة ـ عليها السلام ـ أو سائر الائـمّة صلوات الله عليهم ، في حين هؤلاء ليسوا انبياء وليسوا أصحاب شرائع . ولهم احاطة بالمعارف الالهية دونها احاطة نوح وابراهيم عليهما السلام ، لكن بما انّهم عاشوا في ظلّ النبوّة الخاتمة ، لذلك لم يكونوا من الانبياء .

انّ ما بيّنه ابراهيم كان جديداً ، ولقد كشف عن اشياء لم تكن مكشوفة من قبله ، لذلك فهو نبيّ من الانبياء . امّا علي بن ابي طالب ، فلانّه جاء بعد النبيّ الخاتم ـ صلّى الله عليه وآله ـ فلا يمكن أن يكون نبيّاً ، ولو فرضنا انّه بلغ درجة لم يبلغها ابراهيم ـ عليه السلام ـ لكنّه ايضاً لا يمكن أن يكون نبيّاً بحكم مجيئه بعد النبيّ الخاتم ـ صلّى الله عليه وآله ـ .. وهكذا لو كان أفضل من نوح وابراهيم عليهما السلام مائة الف درجة ، وطوىٰ المراحل العليا في العلم والمعرفة ، والسلوك الاعلىٰ في العرفان فلا يمكنه ان يكون نبيّاً أبداً .. ولو فرضنا انّه كان في عصر عيسىٰ ـ عليه السلام ـ ، أو بعد عصره أو قبل عصر النبيّ الاكرم ـ صلّى الله عليه وآله ـ لكان نبيّاً ، ومن المستحيل ان لا يكون نبيّاً ، ولكن بما انّه جاء بعد النبيّ الخاتم ـ صلّى الله عليه وآله ـ فلا يمكن أن يكون نبيّاً .. وهذا المفهوم هو ما يوضّحه الحديث المتواتر المشهور « انت منّي بمنزلة هارون من موسىٰ الا انّه لا نبي بعدي » حيث يبيّن انّ كل ما كان لهارون من موسىٰ كان لعليّ من النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ الّا

النبوّة ، فلا نبيّ بعد النبيّ الخاتم ـ صلّى الله عليه وآله ـ أبداً ، وكما قال الشاعر : «لقد كشف كلّ ما كان وراء الحجاب» .

هذا من ناحية المعارف ، امّا من ناحية القوانين فانّ موضوع متطلبات العصر يرتبط بالقوانين لا بالمعارف . وكما ذكرت فانّ الشرائع تتبدل بحكم تطور متطلبات العصر .. ولا بدّ لي ان اوضّح هذا الموضوع : فاذا كان القصد من متطلبات العصر هو ما يسمّونه اليوم **بالمدنيّة** ، أو **المدنيّة** المتطورة فانّ الحاجة الى دين جديد **مستمرّة** على الدوام ، وذلك لانّ هذه **المدنيّة** ، المرتبطة بالحياة الاجتماعية ، والتي يكون مآلها الى الوسائل الماديّة من علم وصناعة ، تتفاوت من عصر لآخر . فما كان منها في عصر نوح لم يكن نفسه في عصر ابراهيم .. وكانت للبشرية في عصر ابراهيم مدنية اكثر رقيّاً وتطوراً من ذي قبل ، وكذلك في عصر موسى وعيسى وخاتم الانبياء صلوات الله عليهم اجمعين ، وفي عصر ما بعد النبوّة حيث وصلت المدنية الاسلاميّة اوجها في القرنين الرابع والخامس .. وفي عصرنا الحاضر حيث القرن العشرين فانّ له مدنيّة ارقى وأعظم من القرن الرابع الهجري فضلاً عن عصر النبوّة الخاتمة .. فهذه المدنية في تبدل وتطور .. ولكن تلك المتطلبات التي نستوجب تجدد الشرائع **هي** ليست التطورات المدنية الملحوظة ، وليس تطور **المدنيّة** بالمعنى المذكور سلفاً بل له معنى آخر .

للانسان بحكم فطرته وحكم ما ذكره أئـمّة الدين حجّتان بل **نبيّان** ، احدهما باطن وهو **العقل** . والثاني ظاهر وهو النبيّ الحقيقي . ويحتاج هذا الانسان الى الهداية ، وشعوره هذا هو نفسه نبوّة له وحجّة عليه ، وهو وسيلة اقتضاها اللطف الالهيّ حتى يبصر طريقه ، ولكن طيّ ذلك الطريق الذي يجب على الانسان ان يعثر عليه يحتاج الى وسيلة .. فالاهواء والغرائز تحكم وجود الانسان ، وتوجد كثير من الممارسات والأعمال لابدّ للانسان من ممارستها وانجازها بحكم غريزته ، علماً انّ حقيقة الغريزة لم تكشف بعد .. وفي هذا الانسان جهاز اوتوماتيكي عجيب يسيّر وجوده . مثلاً في حنجرة الانسان تقاطع ، طريقان فيه من الخارج ، وآخران من الداخل ، وهذه الطرق مجتمعة تشكل ذلك المفرق في آخر الحنجرة ، وتتفرع هذه الطرق من الانف والفم والرئة والمعدة ، ولا يعلم الانسان بوجود هذا المفرق الذي يكون فرعان منه مفتوحين في الظروف الاعتيادية وهما فرعا الانف والرئة حيث يتنفس الانسان بحريّة وطلاقة . كذلك لا يعلم انه عندما يضع اللقمة في فمه ويمضغها ، و بعد مضغها تخرج عن قدرته اذ تنزل الى المرىء دون اختياره ،

لايعلم انه فور نزول اللقمة تنغلق ثلاثة فروع من ذلك المفرق اوتوماتيكياً ، و يبقى فرع واحد مفتوحاً لاستقبال اللقمة ، وهذه الفروع هي الفرع الذي تدخل اللقمة من خلاله ، والثاني فرع الأنف حيث اذا ظلّ مفتوحاً فانه يسبب ازعاجاً للانسان ، والثالث الذي يتصل بالرئة ، وهذا أيضاً اذا ظلّ مفتوحاً فانه يعرّض حياة الانسان للخطر ، ولا يبقىٰ اذاً الآ طريق المرىء والمعدة حيث تصل اللقمة هناك . يقوم هذا الجهاز بعمله آليّاً و يؤدي وظيفته بكلّ معرفة ، وهذا لون من ألوان الهداية ، فلا بدّ اخيراً من أن تصل اللقمة الى المعدة ، وهي لاتدري طبعاً اين ستكون وماذا تفعل ، ولكن الجهاز الموجّه لها يعلم ذلك . فهو هاد لها ولكلّ عمل من أعمال البدن .. اما الهادي الآخر الّذي يحكم وجود الانسان فهو العقل . حيث يكتشف الانسان ـ من خلاله ـ كثيراً من المسائل ، و يدرك مصالحه ومنافعه عن طريقه . فمثلاً عندما يعرض عليه عملان ، فانّه يفكّر بانتخاب احدهما ، والعقل هو الذي يقوم بهذا الدور . امّا المجانين فانّ غريزتهم المودعة بديل عن العقل الذي حرموه ، وتؤدي هذه الغريزة دورها كما يؤدّي العقل دوره عند أهله ، فهم لاينعمون بنعمة هذا الموجّه ، علماً انّ لكل موجّه دوراً يختلفاً عن دور الموجّه الآخر فالمساحة التي تؤدّي الغريزة فيها دورها محدودة ، وهي غير مساحة الفكر ، والحس له مساحة اخرىٰ ، ومساحة العقل تختلف عنه ايضاً .

وهناك هاد آخر للانسان ، وهو الوحي .. ولا تعني هداية الوحي انّها موجودة في كلّ انسان بشكل تـام ، بل هي موجودة بشكل ناقص جزئيّ على شكل الهامات محدودة .. ولا يليق لهداية الوحي التامّة الآ من يصطفيهم الله من انبيائه حيث يبعثهم الى الناس بعد ان يُنزل عليهم وحيه ليبيّن لهم جملةً من الحقائق ، و يدلّهم على طرق خيرهم وسعادتهم التي يحتاجون اليها ، وهذه الحقائق والطرق ممّا لاسبيل للغريزة والحسّ والعقل لتبيينها والارشاد اليها . وليس الآ الوحي الذي يسعف الانسان و يوجّهه .. ولذلك فانّنا عندما نقول انّ الانسان يحتاج الىٰ النبيّ فاننا نقصد انّه يحتاج الىٰ مسائل وامور لا يحقّقها له الآ الوحي والدين ، وتعجز الوسائل الاخرىٰ عن تحقيق ذلك . وقضيّة الوحي لاتختلف باختلاف العصور، ولكن تختلف باختلاف الاستعدادات والقابليات .. اعني : انّها لا تختلف وفق تطور المدنيّة .. اذ بما انّ المدنيّة تتبدل وتتجدد فلابدّ ان يتبدّل القانون ، ولابدّ ان تتجدّد النبوّة أيضاً ، وكلّما ارتفعت درجة المدنيّة كلّما تجدّد القانون .. كـلاّ .. فلا تتأثّر قضيّة الوحي بالمدنيّة وتطوّرها وليست لها ايّة علاقة

بالمدنيّة ، لانّ الوحي يتبدّل من فترةٍ الى اخرىٰ بحكم الاستعدادات الموجودة لدى الناس لتقبّل القوانين الالهيّة وتعلّمها ، فتجدّده تابع للتبدّلات الحاصلة في النوع الانساني . فالمجتمع البشريّ كالفرد يمرّ بمرحلة الطفولة ، فالنموّ ، فالمراهقة ، فالبلوغ . وحالة البشرية في بدايتها تشبه حالة الطفل في ضعف درجة تقبلها ، وكلّما تقدمت خطوة الى الامام وازداد نموّها ، كبر استعدادها .. و وضعها كوضع **التوجيهات** الصادرة لطفلٍ من الاطفال ، فهي ثابتة لكن الطفل غير مستعدّ لتنفيذها كلّها ، واذا ما نمت قابليّته ، يصدر له قسم من تلك التوجيهات ، و يبقىٰ قسم قد ينجزه الكبار أنفسهم ، حتىٰ اذا وصل مرحلة البلوغ والنضج فانه يتقبّل كلّ ما يصدر له من توجيهات وتعليمات بعد ارشاده الى كافّة الاسس والمبادىء اللاّزمة ، و يظلّ على هذا الوضع ، يعني وضع العمل بالتوجيهات والتعليمات ، حتىٰ آخر حياته .

انّ المبادىء والقوانين العامّة النابعة من الوحي والتي تحتاجها البشريّة محدودة ، وانّ سبب عدم نزولها على البشريّة في مراحلها الاولىٰ هو لانّها كانت في مرحلة الطفولة ، علماً انّ القوانين **العامّة** في جميع الازمنة والعصور واحدة ولكن البشرية غير مستعدّة لتلقى جميع الاحكام دفعة واحدة ، ولو نزلت دفعة واحدة ما كانت تستطيع تطبيقها أبداً ، فحجم الاحكام يتناسب مع استعداد البشرية في كلّ عصر ، ولا بدّ لها من مشرف موجّه يعلّم الناس كيفيّة التطبيق .

وعندما تصل البشرية مرحلة البلوغ والعقل الكامل ، رحلة النضج وتفتّق الطاقات والقابليّات اذ تصبح قادرة على تقبّل القوانين التي هي اسس ومبادىء نظامها الاجتماعي والفردي ، فلا بدّ من ابلاغها وتعليمها وتوجيهها . و يقال لها ـ عندئذ ـ انّ هذا **هو الوحي** التامّ الكامل الذي لا بدّ له من هداية الناس وتعليمهم .. وذلك انّها قد بلغت تلك المرحلة التي تشعر فيها انّ كلّ ما تحتاجه عن طريق الوحي ، وكلّ ما ينبغي ان يقال لها وتطبقّه ، أُبلغت به ، وما عليها الاّ المحافظة عليه وتكييف حياتها معه .

انّ مرحلة الخاتمية لا تعني انّها مرحلة من مراحل التمدن البشري ، كما انّ هذه المراحل ليست ملاكاً ومعياراً لها . انها تعني تلك المرحلة التي وصلت فيها البشرية حدّاً تستطيع معه استيعاب و وعي ما يعرض عليها من قوانين واحكام ، والاستفادة منها وتطبيقها الىٰ الابد عن طريق قوّة العقل المودعة فيها .

ويمكننا تشبيه البشرية في معاصرتها للنبوّات المختلفة بالطفل الذي من شأنه تمزيق

فى أجواء الخاتمة

في أجواء الخاتميّة

قال تعالىٰ : «ما كان محمّد ابا احدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيّين»[1] .

كنّا نحوم البارحة حول الخاتميّة وذلك لمناسبتها لموضوع متطلبات العصر، فذكرنا انّ الخاتميّة ـ أساساً ـ مسألة مرتبطة بعامل الزمن ، وانّ مجيء شريعة بدل شريعة اخرىٰ منسوخة مسألة تتعلّق بعنصر الزمن فقط ، ولا تفسير آخر لها . و يتّفق العلماء كافّة على انّ تعاقب الشرائع في فترات معيّنة يتّصل اتصالاً وثيقاً بالتطورات الحاصلة في كلّ فترة او بما يُسمّى «متطلبات العصر» ، و يثار هنا سؤال وهو: اذا كانت الشرائع بهذا الشكل ، فلماذا تكون هناك شريعة خاتمة ، ولماذا تقف النبوّة عند حدّ معيّن مع القفزات التي يقفزها عنصر الزمن ؟ واجبنا عليه بانّ الذين يثيرون هذا السؤال يخلطون بين شيئين ، فيتصورون انّ تطورات العصور تعني تبدل المدنيّات ، ولذلك يجب ان يبعث في كل فترة نبيٌّ يتناسب والمدنية الموجودة ، و بعبارة اخرىٰ تتناسب توجهاته مع التقدم العلمي والثقافي الحاصل .. والحال هي ليست كذلك ، لانّ تبدّل المدنيّات لايؤدّي الى تبدّل القوانين . والسبب الرئيسي لنسخ الشرائع هوعدم استعداد الناس لوعي واستيعاب جميع حقائق هذه الشريعة أو تلك ، وقصورهم عن فهم تعليماتها . واذا ما نما وعيهم تدريجياً تنزل عليهم شريعة أكمل من سابقتها ، واذا تقدّموا اكثر تنزل عليهم شريعة أكمل من التي قبلها ، وهكذا يستمرّ نزول الشرائع تبعاً لاستعدادات الناس حتىٰ يصلوا

---

(١) الاحزاب / ٤٠ .

مستوىً يستغنون به عن الوحي ، ولا يبقىٰ هناك شيء يحتاجون فيه الى الوحي ، اي : انّ احتياجهم اليه محدود ، وانّ هناك قضايا ومسائل سواء في دائرة المعارف الالهيّة أو في دائرة التعاليم الاخلاقية والاجتماعية ، خارجة عن حدود العقل والتجربة والعلم ، اي انّ الانسان لا يستطيع الظفر بها عن طريق العلم. وبما انّ العلم والعقل قاصران عن ذلك ، يأتي الوحي ليقوم بدوره في رفد الناس واغاثتهم . وليس من الضروري ان يستمرّ الوحي بصورة مباشرة في القاء ما عنده على البشرية الى ما لا نهاية . وكحدّا على يكون الالقاء لذلك المقدار الذي يحتاجه الانسان في وقت يكون مؤهـلاً لتقبّله اوّلاً ، ومحافظاً عليه ثانياً .

فاستعدادات الناس وقابليّاتهم تبعث على نسخ الشرائع ، وهناك مسألة اخرىٰ يجب ان تطرح بعد هذه المسألة وهي انّ قسماً من حقائق الشريعة السابقة قد ناله التحريف على ايدي الناس ، وظهر في قالب آخر ، وهذا باعث آخر على تجدد الشرائع والنبوّات .

فالتحريف الذي طال بعض الشرائع سبب من أسباب تعاقب الانبياء علماً انّ احد الأعمال التي يقوم بها كلّ نبيّ احياء تعاليم النبيّ السابق ، وبعبارةٍ اخرىٰ فانّ قسماً من تعاليم كلّ نبي تشبه تعاليم النبيّ الذي كان قبله ، ولا يخفىٰ فانّ هذه التعاليم لم تبق على حالها كما كانت في اوّل نزولها اذ تلاقفتها أيدي الناس فتلاعبت بها .. وهذه من طبيعة الانسان حيث يضيف ويحذف من كل تعليم يتلقاه من معلّمه ، وبعبارة اخرىٰ يحرّفه . وهذه من المسائل التي أقرّبها القرآن الكريم ، ودلّت على صحّتها التجارب البشرية . فنجد القرآن مثلاً أقر بعض تعاليم التوراة والانجيل رغم انه نسخهما ، ولمّا تلاقفتهما الايدي وتلاعبت بهما ، اعلن عن رفضه لهما بكل صراحة ونادىٰ بتركهما، واخبر الناس انهما غير التوراة والانجيل الحقيقيين .. وكذلك الامر بالنسبة الىٰ ملّة ابراهيم -عليه السلام- التي ورد ذكرها في القرآن الكريم . قد استغلتها قريش اذ تعتبر نفسها تابعة لملّة ابراهيم في حين لم يبق من تعاليم خليل الرحمن -عليه السلام- شيء يذكر، حيث قامت بتحريفها وتبديلها بتعاليم من عندياتها ، فاندرست تلك التعاليم الاصلية الحقيقية .. وفي القرآن مثلٌ على هذا التلاعب والتحريف الذي حصل ، إذ يقول : «وما كان صلاتهم عند البيت الّا مكاءً وتصدية» الانفال/ ٣٥ فقد اوجب ابراهيم -عليه السلام- الصلاة .. ولكن أيّة صلاة ؟ انّها الصلاة الحقيقية التي تعكس المعنىٰ الواقعي للعبادة ، والتي تمثّل العبادة بعينها ، وما العبادة ؟ انّها

الخضوع لربّ العالمين ، والتسبيح والتزيه والتحميد ، واذا كانت صلاة ابراهيم -عليه السلام- قد اختلفت في ظاهرها عن صلاتنا بعض الشيء ، فليس مهمّاً لأنّها تظلّ تلك الصلاة التي أرادها الله تعالىٰ من حيث نوع اذكارها، وحمدها ، وتمجيدها ، وثناءها وخضوعها ، وتقديسها ، واظهار الذلّة والمسكنة فيها، ولكن جاءت قريش التي تدّعي أنّها على ملّة ابراهيم -عليه السلام- فغيّرتها و بدّلتها الىٰ ما عبّر عنه القرآن الكريم بالصفير والتصفيق ففقدت الصلاة بذلك معناها ومحتواها ..

ذكرت قبل قليل انّ احد الأعمال التي يقوم بها ايّ نبيّ من الأنبياء احياء تعاليم الانبياء السابقين التي لم ينلها التحريف .. وهذه حقيقة نلمسها في القرآن الكريم حيث يقول جلّ من قائل : «شرع لكم من الدين ما وصّىٰ به نوحاً والذي أوحينا اليك وما وصّينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدّين ولا تتفرّقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه»(١) وهذه الآية تدلّ على انّ الدين واحد لكن الاهواء هي التي اوجدت الاختلاف بين الاديان .. ولو حذفت منها تحريفات الناس وتصرفاتهم فيها لظهرت لنا جميعها انّها دين واحد ، وماهيّة واحدة وطريقة واحدة .. وفي صدد ابراهيم الخليل -عليه السلام- يقول القرآن : «ما كان ابراهيم يهوديّاً ولا نصرانيّاً ولكن كان حنيفاً مسلماً ...»(٢) فاليهود كانوا يدّعون انّ ما عندهم من تعاليم هي نفسها تعاليم ابراهيم الخليل (ع) ، وكذلك النصارىٰ كان لهم نفس الادّعاء ، واضافوا اليه انّ تعاليمهم اكمل من تعاليم ابراهيم الخليل -عليه السلام- بل هي ناسخةٌ لها .

المهم انّ احياء اصل الدين مهمّة من مهمّات الانبياء ، وهو واحد منذ آدم -عليه السلام- حتىٰ نبيّنا الكريم -صلّى الله عليه وآله- ولا اختلاف الّا في الفروع .. وكل نبيّ من الانبياء عندما يأتي فان احد الأعمال التي يقوم بها تشخيص الاضافات والتحريفات التي طالت رسالة النبيّ الذي كان قبله . و يثار هنا سؤال هو : هل انّ هذا التحريف يخصّ مرحلة ما قبل النبوّة الخاتمة ، أو انّه يشمل مرحلة ما بعدها أيضاً بحيث يتم التلاعب في الدين ، وتدخله

(١) الشورى / ١٣ .

(٢) آل عمران / ٦٧ .

الخرافات والاباطيل ؟ والجواب هو: انّه لا يخصُّ مرحلة دون اخرىٰ ، فكما كان قبل النبوّة الخاتمة كذلك يكون بعدها لانّ طبيعة الانسان واحدة لم تتغير. وهناك شعر معروف ينسب الىٰ الشاعر «نظامي» ، وهو ليس له ، يتحدث فيه الشاعر عن التحريف الحاصل في الدين ، فيقول : «يتلاعبون بدينك ايّها الانسان ويحرّفون فيه ، وقد اضافوا اليه من الوان التزييف ما يجعلك عاجزاً عن معرفته» .

فالتحريف أمر طبيعي وهو موجود في كلّ مرحلة ، ولو لم يكن كذلك ، فمن أين جاء هذا الاختلاف والتفاوت الذي نلاحظه في ديننا ؟ فظهور البدع في الدين الخاتم أمر ممكن .. ونحن الامامية نعتقد انّ الامام المهدي -عليه السلام- حينما يظهر «يأتي بدين جديد» وذلك لكثرة ما طال الدين من تزييف وتحريف وتلاعب . فيأتي -سلام الله عليه- بدين جدّه المصطفىٰ -صلّى الله عليه وآله- بحيث يستغرب به النّاس لانّه غير الدين الذي ألفوه ، في حين انّ الدين الحقيقي هو الدين الذي يأتي به الامام -عليه السلام- ، وقد ورد في الاخبار والروايات انّه عندما يظهر ، يدمّر بيوتاً ومساجد ، و يقوم بأعمال تجعل الناس يتصورون انّه دين جديد حقّاً .

فيظلّ احتياج البشرية الىٰ الانسان المصلح قائماً في ضوء ما تقدم ، وما ذكرنا من انّ كل نبيّ يقوم باصلاح دين النبيّ الذي سبقه . و يثار هنا سؤال وهو: اذا كانت الحاجة الى انسان مصلح قائمةً ، فكيف نبرّر الخاتميّة ؟ وكيف نفسّرها في ضوء الحاجة الى مصلح لا في ضوء استعداد البشرية لتقبل حقائق الوحي تقبلاً تاماً ؟

اقول : انّ هنا موضوعين ، الاول : لا نقاش في انّ الحاجة الى المصلح والاصلاح موجودة في كل عصر وزمان ، وهي موجودة في الدين الخاتم أيضاً .. وما الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الّا امارتان من إمارات الاصلاح ، وقد أُثر عن الائمّة -عليهم السلام- «وان لنا في كل خلف عدولاً ينفون عنا تحريف الغالين وانتحال المبطلين» فلا نقاش في انّ الحاجة الىٰ الاصلاح والمصلح قائمة ، ولكن من هو هذا المصلح ؟ ومتىٰ يكون وقت مجيئه ؟ وهل هو موجود في كلّ مرحلة أو في بعض المراحل ؟ وما هي الظروف التي يعيش فيها هذا المصلح ؟ هذه الاسئلة بمجموعها تشكّل الموضوع الثاني الذي يتفرع من الجواب .. واكرّر هنا ما ذكرته سلفاً من انّ الحاجة الىٰ مصلح موجودة دائماً وابداً ، وهي من المسائل المتفق عليها ، ولكن الاختلاف في ظروف ظهور هذا المصلح ، ففي عصور الشرائع السابقة لم يكن الناس من

الكفاءة في مستوى ينهض من بينهم فيه من يضع حدّاً للتلاعب والتزييف ، فلا بدّ لهم من نبيّ يأتي بمهمّة سماوية ليقوم بهذا العمل .. امّا في عصر النبوّة الخاتمة ، فان وجود الاصلاح والمصلحين سمة مميّزة لهذا العصر ، بل من مختصاته ، وكذلك فالظروف مؤاتية له بحكم منطق الشريعة الخاتمة التي اكّدت على ظهور المصلحين وضرورة وجودهم ، واضافة الى ذلك فنحن الامامية نعتقد بوجود ذخيرة للاصلاح وهو الامام المهدي ـعليه السلام ـ، وهذا ما ينسجم وتوجهات النبوّة الخاتمة . كما انّ الاصلاح بعد النبوّة الخاتمة لا يحتاج أن يكون المصلح نبيّاً .. والامام عندما يظهر فانه يظهر بصفته كامام لا كنبيّ .. والامام هو ذلك الانسان الذي يعلم ما في الاسلام علماً وراثياً عن طريق آبائه وأجداده الذين علّم احدهم الآخر دون ان يتتلمذوا على يد استاذ ، لانّ استاذهم الاوّل هو رسول الله ـصلّى الله عليه وآله ـ حيث علّم امير المؤمنين علي ـعليه السلام ـ جميع علومه ، وتلقى الامام الاسلام خالصاً نقيّاً ، ثم انتقل الى الائمة من بعده ، فتوارثوه اباً عن جد حتى صار بيد الامام المهدي .. فلا حاجة الى وحي جديد لانه يبيّن للناس ما جاء عن طريق الوحي الذي نزل على جدّه المصطفى ـصلّى الله عليه وآله ـ .

وأنا اتحدث عن هذه المفاهيم لا بدّ لي ان اتطرق الى موضوع يتعلق بها ، وهو موضوع إحياء الدين ، الموضوع الذي دارت حوله الخرافات والاباطيل .. ووفّقتُ مرّةً أنْ أُلقي محاضرة حوله بعنوان «احياء الفكر الديني» وذلك في جلسة دينية كانت تعقد شهرياً ، وذكرت هناك انّ الدين ـ كأيّ حقيقة من الحقائق ـ يصاب بأعراض .. واكدت ذلك في محاضرات الليالي الاولى هنا حيث قلت : انّ الدين كالماء الذي ينبع من العين الصافية بَيدَ انّه يتلوث بمجرد جريانه في الانهار، ويجب تطهيره وتعقيمه من هذه الملوّثات ، لكن من المؤسف له هو ظهور افكار منحرفة غريبة لوّثت هذا الدين العظيم ، ومن حسن الحظ انّ من مميّزات الدين الخاتم هو انّه ذاته مقياس بايدينا لتشخيص تلك الافكار المنحرفة والتعرف عليها .

لقد ظهرت فكرة احياء الدين بين المسلمين ابّان القرنين الثاني والثالث الهجريين (علماً انها ظهرت في البداية بين عامّة المسلمين ، ثم سرت الى الامامية) لقد ظهرت هذه الفكرة شعوراً بضرورة التجديد والاصلاح في الدين حيث تظهر فيه البدع ،ويتعرّض الى البلى والاندثار على مرّ التأريخ . فلا بدّ من التجديد فيه ، ومثله في ذلك مثل السيّارة المعطوبة ، ثمّ تصلح ، أو البيت الذي ينظّف تنظيفاً تامّاً أو يصبغ في كلّ سنة .. وهكذا ، فتعاقب الازمنة

والعصور يُبلى الدين و يفقده رونقهُ . لذلك قال اصحاب هذا الاتّجاه ، بانّ الله يبعث في كلّ مئة شخصاً يجدّد للامة دينها ، وذلك لاصابته بالبلى ، وتلوثه بغبار السنين المتوالية ، فهو يحتاج الى من ينظّفه و يطهّره .. لقد رأيت هذا في عدد من الكتب التي طالعتها ، ورأيت انّ عدداً من علمائنا يطلق عليهم لقب «المجدّدين» مثل الميرزا الشيرازي حيث يعبّرون عنه انّه مجدّد الدّين في اوّل القرن الرابع عشر، والمرحوم الوحيد البهبهاني مجدّده في اوّل القرن الثالث عشر، والعلاّمة المجلسي مجدّده في اوّل القرن الثاني عشر، والمحقّق الكركي مجدّده في أوّل القرن الحادي عشر وهكذا حتّى يصل الى القرن الثاني الهجري فيقولون انّ الامام الباقر-عليه السلام- مجدّده في هذا القرن ، والامام الرضا -عليه السلام- مجدّده في اوّل القرن الثالث ، والكليني مجدّده في اول القرن الرابع ، والطبرسي في اوّل القرن الخامس ... وهلمّ جرّا ..

وقد نقل العلماء ذلك في كتبهم كالميرزا حسين النوري في ذكره لأحوال العلماء أو محمّد باقر الخوانساري في كتابه «روضات الجنّات» . وقبل ان أُلقي محاضرتي تلك حول إحياء الفكر الديني خطر في بالي ان ابحث عن الدليل الذي يعتمد عليه دعاة التجديد للفكر الديني . فحينما بحثت ونقّبت لم أرفي اخبارنا ورواياتنا شيئاً من هذا القبيل ، ولا أدري فما هو المصدر الذي يطمئن اليه في أمثال هذه الافكار والمفاهيم ؟ و بحثت كذلك في كتب اخواننا من عامّة المسلمين ، فلم اعثر الاّ على حديث واحد في سنن ابي داود فقط ، وقد روى عن ابي هريرة ونصّه : «انّ الله يبعث لهذه الامّة على رأس كل مائة من يجدّد لها دينها» ولم ينقله من محدّثي العامّة غير أبي داود .. ولا أدري كيف يقبله الاماميّة و يقرّون به ؟ إنّه من الاحاديث المحظوظة حقّاً ، وقد انفرد في نقله العامّة دون الامامية . وراحوا يوردونه في كتبهم ، و يكثرون من التطرّق اليه و بحثه . و يثيرون حوله الاسئلة الكثيرة ويجيبون عليها هم أنفسهم ، فمثلاً يقولون : هل يجدّد هذا الشخص المقصود جميع الدين أو جزءاً منه ؟ وهل هذا الشخص من العلماء أو من الخلفاء والسلاطين ؟ وهل يتخصّص في جميع حقول الدين ، أو يأتي شخص لكلّ حقل ؟ فمثلاً يأتي احد العلماء ليجدّد في الحقل العلمي ، و يأتي أحد الخلفاء أو السلاطين ليجدّد الدين كله علماً انّه قد اقحم هؤلاء في الحديث من قبل الوضّاع الذين تلاعبوا به ارضاءً للخلفاء والحكام وتزلفاً لهم بسبب مصالحهم الخاصّة، اذكيف يطلق لقب المجدّد على أحد العلماء ولا يطلق على أحد الخلفاء !؟ فقالوا : يظهر في كلّ قرن خليفة يصلح للامّة دينها ، فمثلاً ظهر عمر

بن عبد العزيز في اوّل القرن الثاني ، وهارون الرشيد في اوّل القرن الثالث ... وهكذا ..

وعندما تفرقوا الى اربعة مذاهب اعتباراً من القرن السابع ، قالوا : هل يأتي مجدّد لكل مذهب ، أو يأتي مجدّد واحد للمذاهب الأربعة ؟ بعد ذلك قالوا : لكلّ مذهب من المذاهب مجدّد يجدّد فيه على رأس كلّ قرن ، فمجدّد مستقل لمذهب ابي حنيفة ، وآخر لمذهب الشافعي ، وثالث للمذهب الحنبلي وهكذا .. وكذلك الامر بالنسبة الى المذاهب الاخرى فقالوا بظهور المجدّد في مذهب أهل البيت باعتباره من المذاهب الاسلاميّة ، وايضاً في مذهب الخوارج الذين يزعمون انّهم من المذاهب الاسلامية ..

فأطالوا البحث في هذا الموضوع دون طائل ، واسترسلوا واسهبوا فيه من خلال لصقه بكل مذهب من المذاهب ، حتى تسرّب الى الامامية ، وفي رأيي انّ اول من نقله الى الاماميّة هو الشيخ البهائي -اعلى الله مقامه- لا بصفته حديثاً صحيحاً حقيقياً ، بل الرجل كتب رسالة صغيرة في أحوال الرجال ، ومن ضمن الّذين تطرّق إليهم من الرجال هو: الشيخ الكليني ، فقال عنه : ما أعظم هذا الرجل الذي اعتبره علماء السُنّة من مجدّدي المذهب الامامي !

والشيخ البهائي عالم متبحّر وله اطّلاع على كلام أهل السُنّة ، وانّ ما اراده هو أن يثبّت فضيلة من فضائل الشيخ الكليني ، لا ليقرّ بصحّة الحديث و يقطع به .. لكن جاء بعده من كتبوا في علم الرجال فنقلوا كلامه ، الى ان صار من المسلّمات عندهم ، واعتقدوا انه من الاحاديث الصحيحة . وظلّ على هذه الحال يتداوله الخلف عن السلف ، وفي القرنين الثاني عشر والثالث عشر (اللّذين اعتقد انّهما من أتعس الفترات التي مرّ بها الفكر الامامي ، ولو أردنا ان نحدّد الفترة التي تعرّض فيها للانحطاط ، وانخفض مستواه لكانت : هذين القرنين) صوّر القصّاصون انّ هذا الحديث من الاحاديث **الصحيفة** دون ان يفهموا جذوره ، وتفنّنوا فاصطنعوا له تتمّةً من عندياتهم ، حيث انّ العامّة وصلوا في تعداد المجدّدين حتى الشيخ الكليني ، **أمّا** هؤلاء فقد واصلوا **الشوط** حتى اوّل القرن الرابع عشر ، وانتخبوا **الميرزا** الشيرازي مجدّداً لمذهب اهل البيت فيه ، ولا أدري ما هو دليلهم ؟

والمضحك اكثر ان الحاج مير ملا هاشم الخراساني قد نقل هذا الموضوع في كتابه «منتخب التواريخ» وذكر مجدّدي المذهب الامامي قرناً بعد قرن ، لكنّه نفسه يرى عدم انسجام هذا الموضوع مع بعض مصاديقه ، و يقف عند عظماء عباقرة لم يُحسبوا في عداد المجدّدين مع

خدماتهم الجليلة التي قدّموها للدّين والامّة ، وذنبهم انّهم لم يكونوا على رأس المائة سنة ، ومن هؤلاء الشيخ الطوسي الذي قلّ ان يكون عالم مثله في خدماته الكبيرة التي قدّمها للامامية ، لكنّه لم يذكر في عداد المجدّدين ، وذنبه الوحيد انّه لم يكن على رأس قرن ، في حين انّ هناك من هم اقلّ منه ، لكنّهم ذكروا في عداد المجدّدين .

واتّبع المؤلّف الخراساني اسلوب اهل السنّة عندما فرّق بين العلماء والخلفاء ، اي انه اعتبر المجدّدين من كلا الطرفين لكنّه فصل بينهما .. وعندما كان الخلفاء والملوك من غير الاماميّة ، ذكر خلفاء أهل السنة وملوكهم كعمربن عبدالعزيز والمأمون ، وامثالهم .. وذكر من الاماميّة : عضد الدولة البو يهي وامثاله حتىٰ وصل الىٰ نادرشاه أحد ملوك ايران ، والعجب كل العجب ان يعدّ هذا السفّاك الجزّار في عداد مجدّدي المذهب الامامي ! وهو الذي أراق الدماء ، وحصد رؤوس الناس ليشيد بها المنائر .. و يذكر المؤلف انّ عظمة نادرشاه تكمن في انه كان قائداً عسكرياً محنّكاً شجاعاً لا يعرف الخوف .

أقول : أحسن نادرشاه في تعامله مع اعداء ايران آنذاك حيث طردهم منها ، وقام بفتح الهند ، ولكن ماذا فعل فيما بعد ؟ انّه ارتكب المجازر تلو المجازر ، وأراق دماء الابرياء ، حتىٰ نقل البعض انه ابتلى بالجنون في آخر عمره ، فكيف يعدّ هذا الملك المجنون **مجدّداً** للمذهب الاماميّ ؟ ما أتعس حظّنا اِذا ! وأين وصل بنا المطاف ؟

انظروا كيف كانت **طريقته** في أخذ الضرائب . لقد وضع في نظام الضرائب اصطلاحات من عنده ، فكان يقول مثلاً : اجلبوا لي الفاً من المكان الفلاني .. ولم يعيّن هذا الالف ، من أيّ شيء ؟ كان يقول ذلك دون حساب ، ودون تخطيط ، فهل الالف المقصود ألف تومان ، مثلاً ، أو ألف رأس انسان أو ألف شيء آخر ؟ مثلاً كان يقول : اجلبوا لي من مدينة ورامين ألفاً ! ولكن ألف ماذا ! ؟ ولا ادري هل في ورامين تلك الثروة المطلوبة أو لا ؟ المهم ، ليس هناك فترة اتعس من تلك الفترة التي كانت في اواخر حكومة هذا الجلاّد .

في ضوء ما ما تقدّم ينبغي الحيطة والحذر اكثر .. واودّ آن استرعي انتباهكم الى نقطة اخرىٰ تتعلق بهذا الحديث وامثاله من المنقولات ، وهي انه قد تكون له جذور من الاديان الاخرىٰ ، حيث جاء أتباعها واقحموا معتقداتهم في ديننا ، ولا يخفى فان فكرة التجديد في الدّين كانت موجودة قبل الاسلام حيث يرون ظهور مجدّد للدين في كل ألف سنة ، فالفكرة

ليست نابعة من الاسلام ، بل هي وليدة مرحلة ما قبل الاسلام . و يقول الشاعر بابا طاهر في هذا الصدد : «يظهر في كلّ ألف سنة عظيم من العظماء ، وقد ظهرت أنا في الألف سنةٍ الجارية» .

كانت فكرة التجديد موجودة في ايران القديمة ، وهي تعود للزرادشتيين حيث كانوا يعتقدون بظهور مجدّد كلّ ألف سنة . وقد قرأت في كتابهم انّهم يلقبّون الشخص الذي يظهر كلّ الف سنة «هوشيدر» ، وقد ذكر الشاعر «بهار» ذلك في قصيدة ألقاها بمناسبة الذكرى الالفية للشاعر «فردوسي» قال فيها : «انّ حُسنَ الفيتك انك هوشيدر» وكان هناك شخص روّج للزرادشتية في ايران كثيراً، وهو عدوٌّ من أعداء العرب وكلّ ما صدر عنهم ، اي انّه عدو الاسلام .. وقد الّف كتاباً حول الزرادشتية في جزءين .. وتطرّق فيه الى حياة يعقوب ليث الصفّاري ، وادّعى فيه انّه هو الذي أوجد فكرة التجديد في كلّ الف سنة . وهذا كلام كاذب لاينسجم مع روح الاسلام ، لانّ الفكرة دخيلة عن طريق الآخرين .

والآن تذكّرتُ انّي كنت اطالع كتاب «الفرائد» لأ بي الفضل الكلبايكاني ، وهو من مبلّغي البهائيّة الماهرين ، فرأيته قد ذكر حديثاً زعم انّه نقله من الجزء الثالث عشر من بحار الانوار ، وهو مرويٌّ عن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ ومضمونه : «ان صلحت امتي فلها يوم ، وان فسدت فلها نصف يوم» بعد ذلك يقول : انّ اليوم المقصود هنا هو اليوم المذكور في القرآن في قوله تعالىٰ : «وان يوماً عند ربّك كالف سنة مما تعدّون»[1] فاذا كانت الامّة صالحة تعيش الف سنة ، واذا كانت فاسدة تعيش خمسمائة سنة . ثم يؤيّد هذ الحديث و يصفه انه من الاحاديث الصحيحة ، لحاجةٍ في نفسه حيث انّه يعدّ محتالاً من الطراز الاوّل فيقول : انّ هذه الامّة التي فسقت ، كانت صالحة ولم تعمّر اكثر من الف سنة ، وذلك انّ الائـمّة كانوا يبيّنون للناس ما تعلّموه أباً عن جدّ عن طريق الوحي الذي نزل على جدّهم صلّى الله عليه وآله ، فكانت تلك الفترة فترة اتّساع رقعة الاسلام و بسط نفوذه .. ويجب ان نقول انّ عمر الامّة بدأ بوفاة الامام العسكري ـ عليه السلام ـ سنة (٢٦٠هـ) ، وهي سنة ولادة الامّة ، فاذا مضى عليها ألف سنة ، فستحلّ سنة (١٢٦٠هـ) وهي سنة ظهور «الباب» .. وهذا تأييد لحديث النبيّ

---

(١) الحج / ٤٧ .

-صلّى الله عليه وآله- من انّ الامّة اذا كانت صالحة عاشت الف سنة ، و بعبارة اخرىٰ يظهر شخص يأتي بدين جديد ينسخ دين المصطفىٰ -صلّى الله عليه وآله- ، واذا كانت فاسقة عاشت خمسمائة سنة .

فما أراده هذا المفتري هو ان يدعم البابيّة المنحرفة بأحاديث مختلقة لا صحّة لها ، وعندما قرأت هذا الحديث حاولت ان اعثر عليه في البحار ، فبحثت عنه كثيراً ، فلم أجده -ورأيت الميرزا اباطالب قد خصّص صفحات من كتابه لهذا الحديث جواباً على ادّعاء الكلبايكاني المذكور ظناً منه انّ هذا الحديث موجود وصحيح ، إذ لم يصدّق انّ الكلبايكاني قد اخترعه من عنده .. وانا كلّما بحثت عنه لم أجده . و وجدتُ شيئاً آخر في البحار نقلاً عن كعب الاحبار لا عن النبيّ -صلّى الله عليه وآله- ، وهذا الذي رأيته يذكر انّ الناس في عصر الامام المهدي -عليه السلام- اذا كانوا صالحين ، يعمرّون الف سنة ، واذا كانوا فاسقين ، يعمرّون خمسمائة سنة ..

فلينظر ذوو الالباب والبصائر كيف افترىٰ الكلبايكاني على رسول الله -صلّى الله عليه وآله- مدّعياً انّ النبيّ -صلّى الله عليه وآله- قد قاله ، وليس كعب الاحبار ، في حين انّ الحق ينطق بانّ القائل هو كعب الاحبار ... فياله من موضوع «يستفرغ العجب» ، وكان مدهشاً الى الحدّ الذي جعلني اتّصل باحد الاخوة ممّن لهم اطلاع كثير حول البهائية ، واخبره به ، وبما قاله الكلبايكاني في كتابه ، والميرزا ابوطالب في كتابه ، و ببحثي الطويل عنه وعدم عثوري عليه ، فقال لي : انّ الحقّ معك ، اذ كلّ الاحاديث المذكورة في الكتاب موضوعة مختلقة ما عدا هذا الحديث المنسوب الى كعب الاحبار.

وان دلّ هذا على شيء فانما يدلّ على انّ التساهل في الدين امر قبيح مذموم .. وماذا أحدث ابو هريرة من ضجّة بين عامّة المسلمين في حديثه الذي نقله ابو داود في سننه ، وذكره علماء الاماميّة في كتبهم باهتمام بالغ الى الحدّ الذي أصبح فيه نادرشاه من مجدّدي المذهب . و يأتي محتال آخر مثل الكلبايكاني فيضع حديثاً آخر يعوّل عليه الميرزا ابوطالب دون ان يتأكد منه ، هل هو موجود في البحار أو لا ؟ و يطالع مئات الاشخاص كتابه مصدّقين بالحديث الذي أورده فيه في حين هو من الاحاديث الموضوعة .

لا ، فانّ في الاسلام مصلحاً لكن الاصلاح على قسمين : اصلاح عام يخصُّ الامام المهدي -عليه السلام- كمصلح عالمي -حسب اعتقادنا نحن الامامية- وهذا الاصلاح عالميّ

عام ، ولا علاقة له بموضوعنا ، وهناك اصلاح خاص وهو محاربة البدع التي يفتريها المفترون .. وهذا الاصلاح مهمّة جميع افراد الامّة في كل زمان ومكان ، ولا يقتصر على عصر معيّن ، او افراد معيّنين اذ يمكن ظهور مصلحين (حسب المعنىٰ المذكور) في جميع الاعصار. ولم يشترط الباري ـجلّ وعلاـ ان تكون المدّة كلّ مائة سنة ، او كلّ مائتي سنة ، أو خمسمائة سنة ، أو ألف سنة ... كلاّ والف كلاّ .. فلم تحدّد المدّة أبداً ..

و بالنسبة الىٰ الاديان الاخرىٰ كان يجب أن يأتي نبيّ يحيي دين النبيّ السابق ، وهذا غير ممكن الاّ عن طريق النبوّة . اما بالنسبة الى الدين الاسلامي العظيم ، فاضافة الىٰ الاصلاحات الجزئيّة ، هناك اصلاح عالمي عالم يجري على يد وصي النبيّ الاعظم ـصلّى الله عليه وآله ـ ..

هذا فصل عن الخاتميّة ذكرته استيفاءً للبحث الذي طرحته سابقاً والحمد لله .

الضمير ونسبيّة الأخلاق

الضمير ونسبيّة الاخلاق

قال تعالىٰ: «أفمن زُيّن له سوءُ عمله فرآه حسناً»[1].

كان في نيّتي الحديث عن موضوع فلسفة التأريخ هذه الليلة، وذلك بحكم ما تطرّقنا اليه من حديث حول متطلّبات العصر، واردت ان اخوض فيه لابيّن العوامل الباعثة على سعادة الانسان، وهل تتغير من عصر لآخر، وهل تبلى وتتجدد، أو يمكن ان تكون هناك عوامل ثابتة **تبعث** على سعادة الانسان في كلّ عصر؟ وهذا ما يحتاج الى شرح وتوضيح لا أراني مستعداً ان اتعرض له، لاني قبل ليال كنت اتحدث عن نسبيّة الاخلاق، ولم اكمل الحديث عنها حيث بقى قسم منه لم أره ضرورياً، لكن طلب مني بعض الاصدقاء اتمامه، **وها** انّي اواصل الحديث عن نسبية الاخلاق نزولاً **عند رغبتهم**.

لقد ذكرت انّ دليل القائلين بنسبية **الاخلاق هو زعمهم انها ترتكز** على قاعدة الحسن والقبح العقليين، وكل ما يستحسنه العقل أو يستقبحه من **اعمال مدّعين** انّ تفكير الانسان وموقفه من هذه القاعدة يتبدل تبعاً لتعاقب الازمنة والعصور، ولذلك يستنتجون انّ اساس الاخلاق غير ثابت، إذ يمكن ان تكون بعض الاخلاق حسنةً في وسط من الاوساط ورديئة في وسط آخر.

وقلتُ في جوابي لهم انّ لاستدلالهم هذا أساسين: الاوّل: الحسن والقبح قاعدة للاخلاق، والثاني: انّهما نسبيّان. وفي تعبير المناطقة انّ لهذا الاستدلال صغرى وكبرىٰ، وانّ

---

(١) فاطر/ ٨.

كبراه تستنتج من صغراه . فصغرىٰ هذا الاستدلال هي انّ الاخلاق مرتكزة على قاعدة الحسن والقبح ، وانّ الحسن والقبح نسبيان . وكبراه انّها مرتكزة على امر نسبي ، وكلما كان اساسه نسبيّاً فهو نسبي ، اذن الاخلاق نسبية .

لقد تحدثت سلفاً عن الاساس الاوّل وقلتُ : انه غير صحيح مبدئيّاً . وذكرت انّ هذا اللون من الاخلاق هو ما أقرّه « سقراط » ، الذي كان احد معلّمي الاخلاق ، وله مدرسته الاخلاقية الخاصّة به ، وهو الذي وضع اساس اخلاقه على الحسن والقبح . امّا الاخلاق الاسلامية فهي ليست كذلك ، لانها لا تؤمن بقاعدة الحسن والقبح ، ولو كان هناك اشكال ، فهو ينصبّ على مبادىء « سقراط » الاخلاقية .

هذا ما تطرّقت اليه سابقاً ، وبقي الاساس الثاني الذي رغب بعض الاصدقاء ان اتحدث عنه أيضاً لكنني اشرتُ له اجمالاً وقلت : انّ نسبيّة الحسن والقبح غير صحيحة أيضاً ، دون ان أُفــصّل فيه .. وما اريد ان اقوله الآن هو لندع الخوض في نسبيّة اساس الحسن والقبح ، غير الصحيحة ، ولننطلق من نقطة اخرىٰ في حديثنا عن هذا الموضوع حتىٰ يتّضح أكثر .

لابدّ انكم سمعتم بكلمة « الضمير » التي طالما يكرّرها الناس في تعاملهم اليومي حيث يقولون مثلاً : حكّم ضميرك ، هل انّ الموضوع هو نفس ما ذكرت ؟ أو للقاضي الفلاني ضمير حيث حكم بهذا الشكل ، وهكذا تتكرر هذه الكلمة ، فما معناها ؟

هذا ما أردت أن انطلق منه وأجعله أساس بحثي بدل الخوض في قاعدة الحسن والقبح . فما معنىٰ الضمير ؟ وهل يتطور تبعاً لتطور العصور ؟ وهل يتبدّل بتبدّلها ؟ وهل انّ ضمير الناس هذا اليوم يختلف عن ضميرهم قبل عشر سنوات ، أو قبل قرن ، أو عشرة قرون ؟ وهل يخضع الضمير لسنن التطوّر كما تخضع الازياء ، ووسائط النقل ، ووسائل الاضاءة ؟ .

انّ في داخل كلّ انسان حسّاً ، وهذا الحسّ هو القوّة الكامنة بين جوانحه ، والتي يمكن ان تحكم ضدّه في يوم من الايّام ، وهذه القوّة هي الضمير نفسه ، فالضمير هو السلطة الخفيّة التي تتحكّم بالانسان ، وهو صوت الله في داخل الانسان كما عبّروا ...

ينقل انّ للفيلسوف الالماني الشهير « كانت » ، وهو من مشاهير فلاسفة العالم ، عبارة ، كتبت على قبره بعد وفاته ، يقول فيها : شيئان يثيران اعجاب الانسان هما : السماء المليئة بالكواكب والنجوم التي تُظلّنا ، فكلما نظر فيها الانسان يزداد معرفة بعظمة الكون ،

والثاني هو: الضمير المستقرّ في باطن الانسان .

اجل ، انّ الضمير يثير الدهشة والاعجاب حقّاً ، لاننا نجد انّ الانسان أحياناً يدين نفسه فيما لو كان هناك اختلاف بينه و بين شخص آخر ، وقد لا يتنازل في الوهلة الاولىٰ ، وقد يغمط حقّه ، لكنّه سرعان ما يتعرض لتأنيب تلك القوّة التي بين جوانحه بمجرد ان يتأمّل و يفكّر بما بدر منه ، و يشعر عندها انّه خجل أمام نفسه .. فما هذا الوازع الذي يجعل الانسان خجلاً أمام نفسه ؟ هل هناك غير الضمير شيئاً ؟ انّه هو الذي أنّب ذلك الطفل الذكي الذي رأى اجّاصة في غرفة ولم يأكلها ، فلمّا خرج من الغرفة ، سألوه : هل كان معك أحد ؟ فقال : لا فقيل له : لِمَ لم تأكل الاجّاصَة اذن ؟ قال : ان لم يكن معي احد فقد كان معي ضميري .

وهذا الضمير الذي يؤنّب صاحبه هو الذي عبّر عنه القرآن الكريم «بالنفس **اللّوّامة**»[1] فالضمير هو تلك القوّة التي تتخذ موقفاً من الانسان فيما اذا اقدم على رذيلة من الرذائل أو عمل من الاعمال غير الطيّبة ، فتحدّثه وتؤنّبه ، وكأنّ لسان حالها يقول : أيّها القلب الغافل ! لم **ارتكبت** هذا العمل ؟ وما أقبحه وأشنعه من عمل ؟ ووو... اطلاقاً منها لعبارات التأنيب التي تنفثها بحرقة وألم .. فهذا هو الضمير ، الوجود الطبيعي في الانسان ، ولا ادري هل هناك من ينكر وجوده ؟ لا ، ولا أحسبه عاقلاً من كان له هذا التوجّه ! فالضمير موجود بالضرورة ، وهو حديث العالم كلّ العالم ، حيث يقرّ بوجوده جميع **أبناء** المعمورة ، بما فيهم الملاحدة البعيدون عن اشعاع السماء والمنكرون لوجود الخالق العظيم ، حيث لا يستطيعون إنكاره مع **انكارهم** لله جلّ شأنه ، ولا يجرأون على جحده ، والتنكّر لحقيقته .. انهم يدّعون انّهم انصار الحقيقة ولو كانت في غير صالحهم ، وانّهم أصحاب شعور انساني ، وأصحاب عدالة ، وانّهم يذعنون للحقيقة و يعترفون بها أينما وجدت ، و يطلقون عنوان الانسانية على هذه التوجهات زاعمين انّ الانسانية توجب عليهم ان يكونوا أنصار المظلومين وحماتهم ..

فهذه التوجّهات سائدة حتّىٰ بين الماديّين والشيوعيّين .. والضمير مع الانسانية هو القوّة التي ترتكز على الحقّ والحقيقة .. ولو رأى احدنا انّ الحقّ ليس معه ، فعليه ان يكون عادلا منصفاً ، و يعطيه لصاحبه قائلاً له : انت صاحب الحق ، ولست أنا انطلاقاً من منطق الضمير

---

(١) القيامة / ٢ .

الذي يُملى عليه ذلك ..

فالضمير موجود لدى انسان اليوم ، وكان موجوداً لدىٰ انسان العصور المنصرمة ، و يظلّ موجوداً عند انسان المستقبل ، فهو واحد لم يتبدل ، فمثلما كان موجوداً في الماضي ، فهو موجود اليوم ، وسيبقىٰ على وجوده مستقبلاً ، لانه شعور لا يخلو منه أحد .. ونحن عندما نقرّع الظلمة والطغاة ونعنّفهم ، فاننا نفعل ذلك بنفس المستوىٰ مع من غبر منهم ، ومن هو موجود اليوم فلا فرق في تأنيبنا للطغاة، وكما نؤنّب طغاة اليوم ، كذلك نفعل مع طغاة الأمس وذلك اننا نصفهم بانعدام الضمير، إذ كانوا اناساً قد تصرّفوا خلاف الضمير الانساني ، وداسوا على ضمائرهم .. من أمثال جنكيزخان والقياصرة ، فانّ هؤلاء من الاشرار سيّىء الصيت لانهم معدومو الضمير.

فالذي يظهر من ذلك كلّه انّ جميع افراد النوع الانساني يتمتعون بوجود الضمير الانساني .. وهل هناك غير الضمير يحكم بالعدل ، وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه ؟ وهل هناك غير الضمير يستقبح قتل الابرياء ، سواء كان ضمير قبل خمسة آلاف سنة أو ضمير اليوم ؟ وهل غير الضمير يمتعظ من قتل الطفولة البريئة ؟ فالضمير موجود وهو واحد لا يتغيّر ولا يتبدّل ، ولو كان الحسن والقبح المطلقان نسبيين متغيرين فالضمير أيضاً نسبيّ متغيّر، وله في كلّ عصر موقف يختلف عن موقفه في عصر آخر، علماً انّه لم يقل بهذا أحد حتىٰ الـذين ذكروا ذلك في فلسفاتهم ، لم يطبّقوه عمليّاً ، ومنهم الشيوعيون مثلاً الذين يؤمنون باصالة المادّة في الفلسفة والقضايا الاجتماعية وكلّ شيء ... و يرون انّ العامل الاقتصادي هو أساس كلّ شيء ، وهو الذي يوجد الضمير، والضمير الانساني تابع للعامل الاقتصادي ، فاذا تطوّر هذا العامل يتطوّر معه الضمير.

و بناءً على كلامهم هذا ، لا يبقىٰ ايّ معنى للضمير أو الانسانيّة لانهم قد افرغوهما من محتواهما ، وهذا اجحاف منهم بحقّ هذه المفاهيم لانّنا عندما ندقّق في الوجود الانساني نجد انّ الضمير حقيقة ثابتة في الانسان في كلّ العصور .. وهذا ما اكّد عليه القرآن الكريم في كثير في آياته ، وممّا جاء في هذا الصدد قوله في سورة القيامة : «لا أُقسم بيوم القيامة . ولا أُقسم بالنفس اللوامّة »[1] فالقسم هنا وارد رغم انّ « لا » زائدة ، ومثل ذلك قولنا : « لا وحقّك » ،

---

(١) القيامة / ١-٢.

فالقسم متحقق والموضوع في مستوى القسم ، هذا اوّلاً ، وثانياً . انّ الموضوع قطعيّ يقينيّ الى الحدّ الذي يستوجب فيه القسم !

فكم اهتمّ القرآن بأمر النفس اللّوامّة حيث ذكرها مرادفة ليوم القيامة ، والقيامة يوم تشكيل محكمة العدل الالهيّ لجميع الخلائق .. وقد خلق الله في نفس الانسان ميزاناً يشبه ميزان يوم القيامة «والسماء رفعها ووضع الميزان»[1] (وهذا الميزان هو الضمير الذي أقسم به الله تعالىٰ لانه يؤدّي دوره في الانسان كما يؤدّي الميزان دوره يوم القيامة) فما يريد ان يقوله الباري تعالى هنا هو انّه خلق في الانسان هادياً لوّاماً ليدقّق في الحقيقة ، و يستوعبها .

و يقول القرآن في موضع آخر : «والشمس وضحاها . والقمر اذا تلاها . والنهار اذا جلاّها . والليل اذا يغشاها . والسماء وما بناها . والارض وما طحاها . ونفسٍ وما سوّاها . فالهمها فجورها وتقواها»[2] .

وهنا جاءت موارد القسم كثيرة بحيث لم يذكر مثلها في الكثرة في موضع آخر من القرآن ، وان دلّ هذا على شيء فانما يدلّ على أهمية الموضوع .. فيقسم القرآن هنا بتلك الاشياء الى ان يصل الى النفس فيقسم بها وبما فيها من اعتدال من خلال الالهام الفطري الذي أودعه فيها لعمل الخير أو عمل الشر. و بواسطة هذا الالهام يتعرّف الانسان على عمل الخير أو الشّر، ولا حاجة أن يعلّمه أحد لانّ وجدانه يتكفّل هذه المهمّة حيث يدلّه عليهما .

و يقول في آية اخرىٰ : «واوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة»[3] ولم يقل : واوحينا اليهم ان افعلوا الخيرات واقيموا الصلاة ، لانّ المراد : انّنا اوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وألهمناهم ذلك ، لا المراد : اننا أمرناهم به .

ونقل حديث قوله تعالىٰ ، «وتعاونوا على البرّ والتقوىٰ ولا تعاونوا على الاثم والعدوان»[4] وهو مرفوع الىٰ النبيّ (ص) عن وابصة بن معبد الاسديّ : انّ رسول الله (ص) قال لوابصة : «جئتَ تسأل عن البرّ والاثم» .

---

(١) الرحمن / ٧ .

(٢) الشمس / ١ - ٨ .

(٣) الانبياء / ٧٣ .

(٤) المائدة / ٢ .

قال : قلتُ : نعم . قال : فجمع اصابعه فضرب بها صدره : وقال : «استفتِ نفسك ، استفتِ قلبك يا وابصة (ثلاثاً) . البرّ ما اطمأنّت اليه النفس واطمأنّ اليه القلب . والاثم ما حاك في النّفس وتردّد في الصدر، وان افتاك النّاسُ وافتوك»(١) . فكما يُستفتى المجتهد ، فكذلك يُستفتى القلب ، فهو بمثابة مرجع تقليد . وقد أورد الشاعر مثنوي تلك العبارة «استفتِ قلبك» في شعر يقول في بعضه : قال النبيّ : استفتوا القلوب .

ونلاحظ في الاسلام مفاهيم تدلّل على انّه يعتقد باصالة الضمير، فقد جاء في الحديث الشريف : «الصدق طمأنينة والكذب ريبة» فالاصالة تكمن في انّ قلب الانسان يقبل الصّدق بسرعة ، ولا يقبل الكذب الّا متردّداً مع وجود القرينة عليه . وقد ذكر الشاعر مولوي هذا المعنىٰ حيث قال : (في حديث الصدق طمأنينة القلب ، والصدق يأسر القلب ويجذبه كما تجذب حبّات الطعام في المصيدة فريستها) .

انّ امثال هذا الشعر في غاية الروعة ، وقيمته تفوق الوصف .. وفي أدبنا الفارسي من الحكم العميقة القيّمة ما يبهر العقول ، وأين تجد اديباً من ادباء العالم عاش قبل ستة أو سبعة قرون قد صاغ ذلك الحديث الشريف في قالب شعري جميل كمولوي ! ؟ ومن أين أخذ مولوي وامثاله من عباقرة الادب الفارسي ؟ وما سرّ الروعة والجمال في أدبهم ؟

انهم اخذوا ذلك عن النبيّ الاعظم -صلّى الله عليه وآله- إمام البلاغة والفصاحة والبيان الذي عبّر عنه الامام عليّ عليه السلام بقوله : «كلامه بيان وصمته لسان» ، وذلك هو سرّ الروعة والجمال في أدبهم . ولا يخفىٰ فانّ ادبنا زاخر بامثال تلك الحكم والمفاهيم القرآنية النبويّة السامية ، ولكن يعبّرون عنه بالادب الفارسي ، وهو الحقّ ، وله قيمته الكبيرة ، امّا اعلامه الكبار من أمثال سعدي ، وحافظ ، ومولوي ، وسنائي وغيرهم الذين ملأوا الآفاق بحكمهم ، فانّ ما كانوا عليه من عظمة وعبقريّة هو بسبب تعلقهم بالاسلام ، وولعهم فيه ، وفي افكاره ومفاهيمه التي صاغوها في قالب شعريّ عذب بالفارسيّة .

وجاء في كتب الحديث كلام ذكره الشيخ الانصاري في رسائله ، و يبدو انّه حديث نبوي شريف ، ونصّه : «انّ لكل حقّ حقيقة وعلى كلّ صواب نوراً» اي : انّ الحق والباطل

(١) سنن الدارمي ٢/٢٤٥-٢٤٦ .

ليسا سواء ، والنور الموجود في كلّ صواب هو النور الذي يكشفه القلب ، والحقيقة هي الضمير ، فالضمير في وجود الانسان حقيقة لا بدّ منها ، ولكن هل صحيح ما يقولون عنه انّه يتطور و يتبدّل ؟ و بعبارةٍ أُخرىٰ : هل يخضع الضمير لسنن التغيير كما يخضع غيره من الاشياء ؟

وهنا موضوعان عليّ أن اتعرض لهما بالحديث . الاول : لا نقاش في انّ الضمير يتغيّر عموماً ، ولكن ما هو لون هذا التغيّر ؟ وماذا يعني انّه يتغيّر ؟ هل يتغيّر بذاته مثل سائر الاجهزة التي تتغيّر أحياناً ولا تؤدّي عملها بالشكل المطلوب ؟ واذا ما كانت سالمة فانّها تؤدّي عملها على أحسن وجه ؟ ولكن إذا عطبت فانّها لا تؤدّي عملها بالصورة المطلوبة ، كالعين التي تبصر وترىٰ و يأتيها وقت تفقد فيه دورها . وعندما يعتلّ الانسان تصفرّ عينه فيرىٰ الدنيا صفراء ، ولكن هذا لا يعني انّ عينه غير ثابتة في ابصارها ، كما لا يعني انها قد انحرفت عن مسارها فتصبر قليلاً ، أو ترىٰ الشيء شيئين ، أو ترىٰ كل شيء مسودّاً ..

فهل الضمير يتغير كما تتغير العين مثلاً أو هو ثابت كثباتها ؟

ان الضمير ثابت لا يتغيّر ولكن بعض الحمقىٰ يقولون انه متغير أساساً . ومنطقنا في ثبات الضمير هو منطق القرآن الكريم حيث يرىٰ ان الضمائر ثابتة ، ويمكن أن تعتلّ . واذا اعتلّت فلا تؤدّي دورها على النحو المطلوب ، وكلامنا هذا يختلف عن كلام اولئك القائلين بتغير الضمير ، وهو بعيد عنه بعد السماء عن الارض . والآية الكريمة التي تلوتها في اول المحاضرة تؤكّد المعنىٰ الذي نقصده «أفمن زُيّن له سوء عمله فرآه حسناً» فالقرآن يقرّ انّ الانسان احياناً يرىٰ عمله القبيح حسناً جميلاً ، ولكنه لا يقرّ بأنّ الضمير متغير ذاتاً ، وما يريد ان يقوله هو انّ الضمير كسائر الاشياء ، يصيبه ما يصيبها من أعراض ، وعندما يكون سليماً فانه يعمل بالصورة المطلوبة ، وعندما يكون مريضاً معتلاً فانه لا يعمل كذلك .

جاء في باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر حديث سمعتموه مراراً ، ينقل انّ النبيّ صلّى الله عليه وآله قاله امّا في حجة الوداع أو في عمرة من العمرات حيث دخل الكعبة فوقف عند بابها واضعاً يده على الباب ، و بدأ يتحدّث الى الناس .. وكان حديثه عن المستقبل وما ستظهر فيه من تطورات ، قال في بعضه ما مضمونه : «يأتي على الناس زمان لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر» وكان سلمان ـ رضوان الله عليه ـ حاضراً فقال : أو يكون ذلك يا رسول الله ؟

فقال صلّى الله عليه وآله : «واكثر من ذلك ، يأتي على الناس زمان يأمرون بالمنكر و ينهون عن المعروف» فزاد تعجب سلمان ، وقال : أو يكون ذلك يا رسول الله ؟ فقال صلّى الله عليه وآله : «واكثر من ذلك ، يأتي على الناس زمان يرون المنكر معروفاً ، والمعروف منكراً» .

وهذه العبارة الاخيرة تتعلق بالضمير لانّه اذا اسودّ الضمير ، فانه يرى المنكر معروفاً ، والمعروف منكراً وهذا يعني **انّه يمسخ وتُمسخ** معه الفطرة الانسانية ، واذا مُسخ الضمير ، فالويل كلّ الويل للبشريّة ، علماً انّه قد وردت تعابير مختلفة عن الفطرة الممسوخة . منها : ما يتعلّق بقضيّة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر سالفة الذكر ، ومنها ما يتعلّق بالقلب حيث ورد في المأثور انّ قلب الانسان نقطة بيضاء في وسطها نقطة سوداء ، وعندما يرتكب الانسان ذنباً فانّ النقطة السوداء تكبر ، وكلما تمادى في ذنبه تكبر تلك النقطة ، وقد تصل حداً تغطي فيه على كل البياض الكائن في القلب، ولا يبقىٰ **إلّا الإسوداد** نفسه .. ولكن اذا اذنب الانسان ثم تاب وعمل صالحاً ، فكلّما استمرّ في عمله تصغر تلك النقطة السوداء ، وتكبر النقطة البيضاء . وورد انّ القلوب ثلاثة : قلب متلألىء ، وقلب أسود ، وقلب منكوس ، والمنكوس هو الذي لا يرىٰ الاشياء على حقيقتها بل يراها معكوسة منكوسة ، فالضمير ـ من وجهة نظرنا ـ يتغيّر ولكن لا بمعنىٰ انّه متغير غير ثابت **أساساً** بل بمعنىٰ انه كسائر القوىٰ الروحيّة والبدنيّة ، يمكن ان يكون سليماً ، ويمكن أن يكون منحرفاً ، واذا ما انحرف فلا يعمل بالصورة المطلوبة . **وخلاصة** الكلام انّه ثابت لكنه يتغيّر بانحرافه واعوجاجه .

هذا بالنسبة الى الموضوع الاول ، امّا الموضوع الثاني :

فانّ الاشياء التي نعتبرها حسنة جيّدة على قسمين : قسم منها جيّدة بالذات ، وقسم منها جيّدة على اعتبار انها وسيلة الىٰ الاشياء الجيّدة ، كما انّ الاشياء القبيحة ، منها قبيحة بالذات ، ومنها قبيحة باعتبارها وسيلة الى الاشياء القبيحة والرديئة . ونحن نعبّر احياناً عن الشيء انه جيّد **لأنّه** مقدمة لشيء جيّد آخر ، وانّه رديء لانه مقدّمة لشيءٍ رديءٍ آخر ، وعندما تتفاوت أفكار الناس تبعاً لعاملي الزمان والمكان ، فانّ الاشياء الجيّدة **والرديئة** فيها لا تتبدل هي نفسها ، بل تتبدل مقدّماتها ، اي : يمكن ان يكون حكم الناس في زمان معين على شيء من الاشياء انّه وسيلة جيّدة لأمر جيّد ، ويمكن أن يتغيّر هذا الحكم في زمان آخر ، ولكن حكمهم

على الامر الجيّد أو الرديء نفسه لا يتبدّل ، بل الذي يتبدّل هو حكمهم على الوسيلة . ولا ننكر القول انّه يمكن ان يخطأ الانسان ، ولكن هذا غير مسألة تغيير الضمير . وأذكر لكم مثالاً يذكره هؤلاء أنفسهم .

يقولون انّ الحجاب حسن عند قوم وقبيح عند قوم آخرين ، والتبرّج كذلك ، فالحسن والقبح ـ اذن ـ امران متغيّران غير ثابتين . وهنا لا بدّ أن نجيب هؤلاء انّ المسألة ليست مسألة الحجاب والتبرج بل المسألة أعمق من ذلك حيث ترتبط بالفطرة البشرية وهي مسألة العفّة ، والله ـ تعالىٰ ـ خلق الانسان مجبولاً على احترام الحقوق العائلية ، وأودع في ضمير المرأة أن لا تخون زوجها ، وفي ضمير الرجل أن لا يخون زوجته .

وانا قلت ذلك مراراً ان لا تخن المرأة زوجها ، ولا يخن الرجل زوجته بالعمل مع امرأة اخرىٰ ، لانّ ما يتمخض عن هذه الخيانة يؤثّر على النسل ، لا سيّما وانّ للرجل حساباً يختلف عن حساب المرأة ، لانّ المرأة اذا انجبت طفلاً بالطريق المشروع أو غير المشروع فهو ابنها ، امّا الرجل فليس كذلك لانه لا يعتبر ولداً له اذا كان بالطريق غير المشروع ، لذلك اودعت فيه حالة من الغيرة تجعله يراقب زوجته دائماً ليضمن انتساب نسله اليه .

فالعفّة قضيّة فطريّة مودعة في ضمير كلّ رجل وامرأة . وما الحجاب الّا مقدّمة و وسيلة لها . ومن يقول انّ الحجاب حسن ، هل يقصد انّ الحجاب بما هو حجاب حسن دون اخذ العفّة بنظر الاعتبار؟ أإذا كانت المرأة محجّبة وهي غير عفيفة أفضل أم كانت سافرة متبرّجة افضل ؟ ومن يستحسن الحجاب ، هل يستحسنه كمقدّمة للعفّة وحامياً لها ، أو لا ؟ **ومن يستقبحه فهل** يستقبح العفّة أيضاً ؟ ولو سألناه عن العفّة هل هي قبيحة مذمومة ؟ لأجاب بالنفي . . وكلّ انسان نزيه شريف يستهجن اللاعفّة و يستقبحها ، وحتى أفسد نساء الدنيا وأفسقهن يستقبحن ذلك ، ولكن لو سألت منهم عن سبب ممارستهن للرذيلة لأجبن بانّ الجو العام كلّه موبوء بالرذيلة ، وانّ الاخريات مثلهن لكن لا يعرفهن احد ، أمّا نحن فيعرفوننا . . وحتى الشيوعيين يؤمنون بعفّة المرأة ، وقد عجزوا عن مسألة تحقق الاشتراك في الجنس بل الشيوعية الجنسيّة كما يعبّرون ، ولم عجزوا عن تحقق ذلك بعدما نادوا به وطبقّوه فترةً ؟ والجواب هو : انّهم رأوه يصطدم مع الفطرة والضمير الانساني ، و يتنافىٰ مع الفضيلة لذلك تراجعوا والغوا قرار الاشتراك في الجنس منذ عام (١٩٣٦) كليّة ، واقرّوا الاشتراك في المال فقط . فالمرأة وعرضها يجب ان يحفظا .

وهناك مثال اودّ ان اذكره : كان الناس في فترة من الفترات يوصون بالقناعة في وقت كانت فيه جيّدة جداً ، اما اليوم فلا يوصون بها و يرونها رديئة قبيحة ، فالقناعة كانت جيّدة وأصبحت رديئة .. والمهم هنا ان نعرف ما هو القصد من القناعة ؟ ما معنى القناعة اساساً ؟ انّ القناعة تقف في نقطة مضادّة للطمع «عزّ من قنع وذلّ من طمع» فليقنع الانسان بما عنده ، ولا يطمع بما عند الآخرين . فهذه هي القناعة ، وهي حسنة محمودة اليوم ، وكذلك هي بالأمس . ولكن البعض يتصور انّ القدماء عندما يوصون بالقناعة فانهم يقصدون الاكتفاء بالقليل حيث يأخذ الانسان مقداراً قليلاً من المال الحلال ، و يلقى الباقي في البحر !

كلاّ فالقناعة ليست بهذا المفهوم ، بل هي كما ذكرنا سلفاً حيث يكتفي الانسان بما عنده ولا ينظر الى الآخرين بعين الطمع . والضمير الانساني في جميع العصور يقضي بان لا يذلّ الانسان نفسه . فالقناعة ـ في ضوء ما تقدم ـ مقبولة سواءً كانت في الماضي أو تكون اليوم .

و يوجد مثال آخر حول ترك الدنيا حيث يقول البعض : انّ ترك الدنيا كان جيّداً في الماضي ورديئاً هذا اليوم . والحال ان الترك الجيد الذي كان ، رديء هذا اليوم . والترك الرديء هذا اليوم كان جيّداً بالأمس اذا كان المقصود من ترك الدنيا **الكسل** والاتكال والاعتزال والاكتفاء بمظاهر الحياة البدائية .

يقول القرآن الكريم : «ورهبانية ابتدعوها»[1] اي انّ الله لم يأمر برهبانيّة من اللون الذي تمّ اختراعه في زمان عيسى وهي بدعة بهذا المعنى .. والترهب **مرفوض** شرعاً وعقلاً وعرفاً اذا كان **كذلك** . امّا اذا كان المقصود من ترك الدنيا ، ترك عبادتها ، فهذا مقبول مستساغ اذا كان اليوم أو كان بالأمس .

فكلّ ما يحكم به الناس لا يرتبط بالاشياء الجيّدة أو الرديئة بل بوسائلها ، و يتبدّل حكمهم بالنسبة الى الوسائل لا بالنسبة الى الاشياء نفسها .

وهناك مثال يذكره هؤلاء حول قضيّة تعدّد الزوجات فيقولون انّ تعدد الزوجات كان جيّداً في الماضي اما اليوم فهو قبيح مستهجن ، ونحن نقول اذا كان الهدف من تعدّد الزوجات الهوس ، فهو قبيح مستهجن في كلّ زمان ، واما اذا كان الهدف لمصلحة موضوعيّة منطقيّة فهو حسن جيّد مستساغ في كلّ زمان أيضاً ، فحسنه أو قبحه يتوقّف على ظروفه أو مقدّماته .

(١) الحديد / ٢٧ .

الحتمية التاريخية والعدالة

الحتمية التأريخية والعدالة

قال تعالىٰ : «لقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط»[1] .

سوف اتحدث الليلة عن موضوع آخر يتعلق بمتطلّبات العصر و يدور حول نوع من التفسير للتأريخ ، وهو بحث مهم يحظى باهتمام بالغ في عالم اليوم .

من الكلمات التي تطرق الأسماع كثيراً و يستعملها الكتّاب في كتبهم ومقالاتهم مراراً كلمة «الحتميّة التأريخيّة» وهي تعني انّ الاسباب والحوادث الواقعة في التأريخ تخضع لسنن الحتميّة التأريخيّة فلا بدّ أن تقع ، وظهورها حتميّ لامناص منه .

ولنا أن نسأل ، هل انّ هذا المبدأ صحيح ، أو لا ؟

أعتقد انّنا يمكننا أن نفسّر الحتميّة التأريخيّة بشكلين : احدهما : صحيح ، والآخر : غير صحيح . والشكل الصحيح لتلك الحتمية على النحو التالي :

انّ للحتمية التأريخية مفهوماً فلسفياً كلياً ، حيث انّ كلّ حادثة من الحوادث الواقعة في العالم سواء في المجتمع البشري أو غيره معلولة لحوادث اخرىٰ حتميّة ، أي : انّ لكلّ حادثة علّة ، وهل يمكن ان تكون هناك حادثة من دون علّة ؟ لا ، اذ انّ هذا من المستحيلات العقليّة ، ولا يقرّ به ايُّ فيلسوف مادياً كان أم الٰهياً . ونحن نثبت وجود الله تعالىٰ عن هذا الطريق حيث نقل انّ في العالم حوادث قد ظهرت ولم تكن موجودة من قبل فلابدّ لها من علّة

---

(١) الحديد / ٢٥ .

أوجدتها ، وفي عالم الوجود حقيقة غير حادثة ، أي ليس لها علّة إذ كلّ المعلولات بعللها التسببيّة تنتهي اليها ، وهذه العلّة هي الله ـ تعالىٰ ـ و يتمخّض قانون العلّة والمعلول عن ضرورة وحتميّة لا بدّ منهما ، بل انّ من مميزات هذا القانون وجود مبدأ الحتميّة فيه .

كيف يكون هذا ؟

لكلّ حادث وجود لا محالة اذا كانت علّته موجودة ، واذا لم تكن موجودة فليس له وجود . وللحكماء الاقدمين قاعدة مفادها : « الممكن محفوف بالضرورتين و بالامتناعين » ولا اريد ان اتعرض لتفاصيلها وانما اكتفي بذكر شيء مجمل عنها ، فكلّ ممكن الوجود تكتنفه امّا ضرورتان او امتناعان ، فاذا وجد ، فهذا يعني انّه قد احاطته الضرورتان أو الحتميّتان ، والاّ فالامتناعان ، والضرورة أو الحتميّة تحدّد لها وقتاً لا بدّ منه (أو كما تسمّىٰ الضرورة الوقتيّة) اي : انّ التلازم بين الحادث وزمانه قائم ، وكلّ حادثة توجد ، يجب أن توجد في زمانها ، و يستحيل ان توجد في زمان آخر ، كأن تتقدّم أو تتأخّر لحظةً واحدة ، فكلّ حادثة لها زمانها المخصوص بها وكما قيل : « الامور مرهونة باوقاتها » وجاء في القرآن الكريم حول قرب موعد الامم قوله تعالىٰ : «فاذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون»[1] وحول السنن الكونيّة وانها ثابتة لا تتغيّر ولا تقبل التخلّف قوله تعالىٰ : «سنّة الله ولن تجد لسُنّة الله تبديلاً ولن تجد لسنّة الله تحويلا»[2] فلا تبديل ولا تحويل في سنّة الله جلّ شأنه. فمثلاً عندما نرىٰ تحرّك اوراق الشجرة ، نلاحظ انها قد تحركت اوّلاً ، وانها تحركت في لحظة معيّنة ثانياً ، ومن المستحيل ان لا تتحرّك في هذه اللحظة ، أو تكون لها نفس الحركة في لحظة اخرىٰ وذلك ان تحرّكها معلول بوجود الرياح ، وعندما تهبّ هذه الرياح فلابدّ لتلك الاوراق من تغيير في وضعها .. وكذلك الرياح فانها معلولة لعلّة اخرىٰ ، ولولاها ما كان لها وجود ، وهذه أيضاً معلولة للتغيير الحاصل في اتّجاه الرياح الحارّة والباردة ، فالرياح المنخفضة تكون حارّة ، وبما انّ الحرارة اذا لامست شيئاً تؤدّي الى تمدّده ، فانّ الهواء سوف يتمدّد و يكون اخف مما كان عليه ، امّا الرياح المرتفعة فهي اثقل واكثر برودةً ، وعندما تضغط على التي اسفل منها ، وهذه تضغط

---

(١) الاعراف / ٣٤ .

(٢) فاطر / ٤٣ .

عليها ، يظهر تخلخل في الهواء يؤدّي الى هبوب الرياح .. والرياح المنخفضة التي ذكرنا انها تكون حارّة فانّ حرارتها معلولة لعلّة اخرى كأن تكون مثلاً بسبب وصول اشعة الشمس الى نقطة معيّنة ، وهذه أيضاً معلولة لعلّة اخرى ، وهكذا تستمرّ العلل ....

فالحتميّة التأريخيّة أو ما يسميّها الفلاسفة « بالضرورة الوقتية » صحيحة من وجهة نظر الفلسفة حيث انّ لكلّ شيء ضرورة في وقته ، وامتناعاً في غير وقته ، ولا يخفى فان كثيراً من الاشياء نقولها وفق تصوّراتنا وليس وفق حساب دقيق لاننا لسنا مشرفين على نظام العالم ، وغير مطّلعين على حساباته الدقيقة ، ولو كنّا كذلك لسخرنا من انفسنا وما قلنا : ما المانع اني اكون في عصر سعدي ، وسعدي يكون في عصري مثلاً ، أو يقول أحد شخصين جالسين هنا في المسجد ، ما ضر لو كنت جالساً في غرب المسجد ، وصديقي في شرقه .. فهذه تصوّرات ، وهي تطرأ على الزمان أيضاً ، ولو خاض أحد في حسابات الفلسفة الدقيقة لرأى انّها من المستحيلات كالذي يقول انّ هذه الاعداد التي تبدأ بواحد وتستمر الى ما لا نهاية ، ما المانع ان يكون العدد ٣ مكان العدد ٧ أو بالعكس ؟ ولو فكّر الانسان بهذا لوجده غير معقول لانّ العدد ٣ يكون ثلا ثة اذا كان في مكانه الحقيقي بين الا ثنين والاربع ، ولو كان بين الست والثمان لم يعد ثلا ثة بل سبعة ، وكذلك لو كان السبع بين الا ثنين والاربع لم يعد سبعة بل ثلا ثة ، فلا يمكن أن تبقى ذاته محفوظة و يتبدّل مكانه ، ولو تبدّل مكان لما ظلّت ذاته على وضعها .

فهذا بحث فسفي لم أجد بدّاً من التعرض له تجاوباً مع من يرى صحّة الحتمية التأريخية في هذا الاطار ، وكما ذكرنا سلفاً انّ هذا هو الشكل الصحيح للحتمية التأريخية ، وهو ما نتّفق به مع أصحابه ، ولكن نحن لا نتّفق مع من يرى انّ للحتميّة التأريخيّة مفهوماً آخر ، وهو الشكل غير الصحيح لها والذي نوّهنا عنه في بداية الحديث ، اذ لا حتميّة تأريخيّة عندنا بهذا الشكل .

لقد عاش في العالم اناس يفكّرون ماديّاً ، و يفسّرون كلّ شيء في الحياة تفسيراً ماديّاً أيضاً سواء تعلّق ذلك بالكون أو بالانسان ، فبالنسة الى الكون يرون انّ المادّة أساسه ولا يعتقدون بوجود أصل غير مادي له ، وليس هو الاّ ماكنة آليّة لا غير . وامّا بالنسبة الى الانسان فيعتبرونه موجوداً ماديّاً من الناحية الاخلاقية ، و يرون انّ محركه في جميع أعماله وممارساته هي الاهداف الماديّة ، وانّه لا يمارس ايّ عمل الاّ وفق هذا المنظار وذلك من أجل تأمين معيشته .

توجد بعض الأعمال التي يمارسها الانسان وهي مادية صرفة كالزراعة حيث يقوم الفلاّح بحراثة الارض وزرعها ، و بعد ذلك يقوم بحصد محصولها وجمعه ثمّ دوسه وتذريته ، ولو سألته عن سبب قيامه بهذا العمل ، لأجاب من اجل تأمين معيشته .

وكذلك الامر بالنسبة الى بقيّة الأعمال إذ لو سألت العامل مثلاً عن سبب قيامه بفلان عمل لأجاب : من أجل استلام الاجور ، واذا ما استملت الاجور ماذا تفعل ؟ لقال : أريد ان يكون عندي شيء من المال لتأمين حاجاتي ..

فهذه الأعمال أعمال ماديّة لكن توجد هناك أعمال اخرى يمارسها الانسان وهي غير ماديّة كما لم تعرف دوافعها الى حدّ ما ، مثل طلب العلم سواء كان في المدرسة أو كان الانسان يطالعه في المكتبة ، ولو سئل طالب العلم عن هدفه من وراء طلب العلم ، فيمكن ان يقول : لا هدف عندي من وراء ذلك ، واريد ان اعرف فقط ماذا كتب في هذا الكتاب ، ولو كان كتاباً تاريخياً لقال : اريد ان أعرف ماذا حدث في الماضي من أحداث ، ولو سئل عن فائدة ذلك ، لاجاب : فائدته انّي اريد أن افهم ما فيه ! وأراه تفكيراً سقيماً عندما يرى الانسان انّ المال هو كل شيء في الحياة .

ينقل انّ ابا ريحان البيروني كان ذا همّة عالية عجيبة في طلب العلم ، وكان علاّمة عصره وأحد المعدودين من عباقرة البشريّة كما كان انساناً مسلماً متديّناً جدّاً . مرض مرضه الاخير الذي ودّع فيه الحياة ، وكان يعيش لحظات الاحتضار فدخل عليه جاره وهو من الفقهاء حيث قصد عيادته ، وكان ابو ريحان مطروحاً على فراشه يحتضر لكنّه لم يفقد وعيه بعد ، فلمّا رأى الفقيه سأله مسألة في الفقه ، لانّه لم يكن متخصّصاً في الفقه بل كان متخصصاً في الرياضيات والفلسفة وعلم الاجتماع ، كما كان منجّماً عجيباً . فقال له الفقيه : لات وقت سؤال يا أبا ريحان ! فأجابه ابو ريحان : انّي اعلم انّي في الاحتضار ولكن أن اموت وانا اعرف تلك المسألة خير لي من أن اموت وانا لا أعرفها .. فأجابه الفقيه على مسألته ثم ودّعه وما ان خرج من بيته حتى علا البكاء والنحيب حيث انتقل ابوريحان الى رحمة ربّه .

فطلب العلم بهذه الصورة ليس من الأعمال الماديّة لانّ دوافعه غير ماديّة .. وحقّاً فانّ كمال الانسان في العلم . ولكنّنا نقرّ أيضاً انّ هناك من يطلب العلم مقدّمة لامور وأهداف ماديّة كطلاب المدارس والجامعات في عصرنا الحاضر اذ لو سئل أحدهم مثلاً عن سبب دراسته

لأجاب : أُريد ان اصبح مهندساً أو طبيباً واقبض راتباً جيّداً من وراء ذلك ، ولكن هل هذا هو حظّ العلم من المنزلة **والتقويم**؟ وهل يصيّره الانسان وسيلة للامور المادّيّة دائماً أو انّه يطلب العلم من أجل العلم فقط ؟ وهذا هو التوجّه الصحيح في طلب العلم ، والعلماء الحقيقيّون الذين ساهموا في تطوّر العالم وتقدّمه هم الذين طلبوا العلم من أجل العلم فقط ، لا من أجل الماديّات . ولم لا يكونوا كذلك وهم قد تجشموا كلّ عناء من أجله حتىٰ بلغوا به ماهو عليه الآن .

واودّ ان اذكر هنا نموذجين من هؤلاء العلماء الافذاذ أحدهما : السيّد محمد باقر الشفتي المعروف «بحجّة الاسلام» ، وهو من العلماء الاسلاميّين الكبار ، والثاني : باستور ، العالم الفرنسي المعروف الذي اكبّ على دراسة الامراض السارية . ولكلّ من هذين العالمين الكبيرين قصّة طريفة مفيدة عن تعلّقهما بالعلم وولعهما بهِ .

امّا قصّة الاول فكانت في ليلة زفافه حيث جلبوا له عروسه محفوفة **بلُمّة** من النساء ، وأقاموا لها المراسيم المعهودة في الزواج ،**وعندما** كانت النساء عندها في الغرفة وجد السيّد الفرصة مناسبة للمطالعة حيث صمّم علىٰ استثمارها ، فذهب الى مكتبته وشرع في المطالعة ، وانهمك فيها الى الحدّ الذي نسي فيه انّه في ليلة زفافه ، وكانت النساء قد خرجن من غرفة العروس على أمل ان يدخل عليها زوجها ، وظلّت العروس المسكينة تنتظر زوجها على احرّ من الجمر ، لكنّه لم يأتها الىٰ ان حان وقت اذان الصبح ، ولما سمع المؤذّن يقول : الله اكبر ، تذكر انّ الليلة هي ليلة عرسه ، فجاء الىٰ زوجته يعتذر منها على غفلته ونسيانه ، واخبرها انّه كان منهمكاً في المطالعة الى الحدّ الذي نسي فيه انّه في ليلة زفافه .

وامّا قصّة الثاني فهي نفسها كقصّة الاول حيث كان باستور منهمكاً في اجراء تجاربه ليلة زفافة حتىٰ اسفر الصبح ولم يأت زوجته ، وينقل انّه كان طالما يعد زوجته بأخذها الىٰ الكنيسة في ايّام الآحاد أو الىٰ النزهة في العطلة الاسبوعيّة ، وعندما تريد أن تعد نفسها للخروج كان يقول لها : انتظري حتىٰ امرّ على المختبر ، ويبقى في مختبره حتى المساء دون أن يحسّ انّه قد وعد زوجته بأخذها الى الكنيسة أو النزهة .

فهؤرء العلماء كانوا مولعين بالعلم ، وولعهم هذا هو**الّذي** ساهم في تطوير العلم والسير به قدماً ، ولو كان جميع الناس يطلبون العلم من اجل لقمة العيش ، لما تقدم العلم بهذا الشكل الذي نراه اليوم .

و ينقل انّ ابن سينا كان وزيراً ، فوشوا به الى السلطان ، فغضب عليه ، ولما علم ذلك اختفى عن الانظار ، فسنحت له فرصة عظيمة في مخبأه حيث بدأ بالتأليف . وكان بعض طلابه يتردّدون عليه سراً فيلقى عليهم دروسه .. وظلّ على حاله هذا الى أن صدرت الاوامر بالعفو عنه . وطُلب منه الخروج والعودة الى منصبه لكنّه لم يعبأ بكلّ هذا ، ولم يخرج من مخبأه قائلاً : انّ انشغالي بالعلم خير لي من الوزارة وما فيها ، وكان يعلم انّه لو خرج لاستوزروه ثانية لذلك امتنع عن الخروج .. وكم أصرّعليه خدمه وعمّاله المنتفعون بوزارته بالخروج فرفض الى ان دلّوا على مخبأه واخرجوه منه بالقوّة .

فهذا هو شأن العلماء المتحرّرين من الماديّات ، وهذا هو ديدن العلم الخالي من الشوائب الماديّة .

وهناك أعمال اخرى يمارسها الانسان لا تحمل هدفاً ماديـاً في طيّاتها كالأعمال الاخلاقية المحمودة ، مثل الأعمال والمؤسسات الخيريّة التي يهدف الانسان من وراءها خدمة الآخرين ، وليس عنده هدف آخر ، ولو سأل احد عن دوافع الانسان من وراء قيامه بتلك الأعمال ، لأجاب : الانسانية وحبّ الخير للآخرين ، ولكن أصحاب النظرية الماديّة لا يؤمنون بهذا التوجه و يتجاهلون كلّ شيء الّا المادة التي يرونها هي الحاكم الاول والاخير في حياة الانسان ، و يعتقدون انّ الانسان يمارس بعض الأعمال للبروز والاطراء فيشتري مثلاً سيّارة فخمة جدّاً ، وعندما يظهر طراز آخر يبيعها بسعر زهيد و يشتري غيرها بسعر غالٍ وهكذا . فالانسان في نظر هــؤلاء يندفع نحو الاشياء ماديـاً . ونسأل هؤلاء عن دافع العبادة ، هل للانسان هدف ماديّ من وراء عبادته التي يمارسها و يلتذّ بها ؟ ولعلّ هناك من يقول انّ هذا الانسان يمارس عبادته على امل الحصول على شيء ماديّ في الآخرة ، ولكن ليس جميع أهل العبادة على هذا المنوال . وقد ورد عن الامام عليّ ـ عليه السلام ـ قوله في مخاطبة ربّه جلّ وعلا : «ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنّتك بل وجدتك اهلاً للعبادة» وقال ابن سينا : «العبادة عند غير العارف معاملة ما كأنـهُ يعمل لاجرةٍ يأخذها في الآخرة هي الاجر والثواب وعند العارف رياضة ما لهممه وقوا نفسه المتوهمّة والمتخيّلة ليَجُـرَّها»[1] .

---

(١) الاشارات ، ج ٣ ، ص ٣٧٠ .

فأصحاب النظرة المادية يقيّمون الانسان من الناحية الاخلاقيّة تقييماً ماديّاً و يرون دافعه في كلّ عمل يقوم به دافعاً ماديّاً ، وعلى هذا الاساس فانا الذي اتحدث لكم وانتم الذين تسمعون ، ننطلق في عملنا انطلاقاً ماديّاً ، ورحم الله الاستاذ محمد نجمي أحد الاساتذة الجامعيين ، واحد طلاب الحوزة العلمية في قم ، وقد توفى قبل سنة .. رحمه الله إذ نقل شعراً يناسب هذا الموضوع لسعدي يقول فيه : انّ اساس حياة الانسان بطنه ، فلا غمّ عليه ما دام بخير، و يصلهُ و يكفيه من الطعام .

انّ اصحاب النظرة الماديّة يقولون : ليس المعدة اساس حياته فقط ، بل واساس فكره ومشاعره وأحاسيسه .. فهم يذهبون أبعد من ذلك و ينكرون اَصالة الفكر والعقل والقلب والمشاعر، ولا يرون الانسان الّا من خلال بطنه ، ولا يرون القلب والمشاعر والعقل والفكر الّا آشياء تابعة له ، فهو أساس كلّ جانب من جوانبه الحياتيّة ، كما لا يتصورّرون الانسان الّا موجوداً ماديّاً من حيث الانطلاق والهدف والاخلاق ، وهذا ما يعتقد به الماركسيّون الذين تشكّل ماركسيّتهم اساس الشيوعية . وعندما ينظر الانسان الى التقدّم الصناعي والتطوّر التكنولوجي الذي أحرزته البشريّة يتصورّها قد تقدّمت وتطوّرت في كلّ الحقول والميادين ولا يدري انّها تعيش كارثة حقيقيّة في بعض الميادين !

ولعلّ نصف سكّان العالم يحملون نفس التصوّر الماديّ حيث يرون ان اساس كلّ شيء في حياة الانسان بطنه ، فما أفدحه من خطأ حين يُنظَر الى الانسان من خلال بطنه ! وما أجهل هؤلاء عندما يربطون بين هذا التصور الخاطيء و بين التقدّم الصناعي حيث يقولون : لو كان هذا التصوّر خاطئاً لما حصل هذا التقدّم الصناعي والتطوّر التكنولوجي ، ولا أدري فما هي علاقة التقدّم الصناعي بهذا التصور؟ وقد غاب ممن هؤلاء انّ هذا التصور في طريقه الى الانحدار (وهو مندحر منذ البداية) ، فحتى الماديّين لم يقيموا له وزناً هذا اليوم . لا سيّما وقد برزت الى الوجود مدرسة ماديّة اخرى ترى غير ما تراه اختها ، واذا كان ماركس واتباع مدرسته يرون انّ البطن هو اساس كلّ الابداعات البشريّة ، فانّ فرو يد عالم النفس النمساوي جاء بنظريّة مغايرة إذ يرى انّ الاساس هو الجنس وليس البطن ، وانّ البطن وغيره من الاشياء الماديّة وجدت من أجل الجنس ..

و يريد في الحقيقة أن يقول : انّ اساس حياة الانسان فرجه ، ولمّا رأى انّ رفيقه قد

ارتفع بالانسان كثيراً قام هو بانزاله شبرين أو ثلاثة أشبار!

انّ الحتمية التاريخية التي يعتقد بها الشيوعيون في العالم هي غيرها في مفهومها الفلسفي العام الذي ذكرناه في بداية الحديث. فهؤلاء يرون انّ كلّ ممارسات الانسان ونشاطاته تخضع للعامل الاقتصادي، وانّ هذا العامل مبدأ كلّ شيء بل هو البنية التحتيّة والاساس لكلّ شيء في الحياة، وما الانسان في كيانه الّا موجود اقتصادي بحت حيث يمارس نشاطاته و يزاول أعماله لأجل اهدافه الاقتصاديّة، وهوواقع تحت تأثير العامل الاقتصاديّ في جميع نواحيه.. وانّ الاقتصـــاد جذر واساس كل حادثة في العالم.. فالحتمية التأريخية التي يؤمن بها هؤلاء هي الحتمية الاقتصادية، اي الحتمية النابعة من العامل الاقتصادي. كما يقصدون بها الحتمية الاجتماعية ايضاً حيث انّ وقوع الحوادث الاجتماعية حتميّ لا بدّ منه في وقت من الاوقات وفي عصر من العصور.. و يفسّرون جميع الحوادث التاريخية -اذاً- تفسيراً اقتصادياً، فلو سألتهم عن سبب هجوم الاسكندر على ايران وفتحه ايّاها، لقالوا: العامل الاقتصادي هو السبب، وكذلك لو سألتهم عن سبب ظهور عيسى -عليه السلام- أو نبيّنا صلّى الله عليه وآله، كلّ في عصره، لقالوا: العامل الاقتصادي. وايضاً لو استفسرت منهم عن سبب ظهور عصر النهضة في العالم، لقالوا: العامل الاقتصادي.. وهكذا فالعامل الاقتصادي وحده هو سبب ظهور الاحداث والتيارات المختلفة. ولكن الحتمية التاريخية (التي القاها الشيوعيون في افواه الناس لتلوكها السنتهم) والتي ترى انّ جميع مقدّرات البشرية بيد الاقتصاد، مبدأ خاطىء وتفسير غير صحيح للاشياء، وذلك للدليل الذي ذكرته والذي يدور حول رؤيتهم للانسان وتفسيرهم لأعماله حيث ظهر خطأ هذا التصور جليّاً، كما انّنا لا يمكننا ان نعثر هذا اليوم على ايّ فيلسوف حر -حتى لو كان ماديّاً- يؤمن انّ الانسان آلة اقتصاديّة بحتة، فهذا برتراند رسّل الفيلسوف الانجليزي المعروف، وهو ماديّ التصور، ولا يؤمن بالله والاديان جميعها، ومن انصار الاشتراكية، وله ميول قويّة نحو الشيوعية، لكنّه لا يؤمن بتلك الفلسفة وأباطيلها، و يرى انها خاطئة. ولو ثبت لنا هذا القدر المتيقن من خطأ التفسير الاقتصاديّ للاشياء، فانّ خطأ الحتميّة التأريخيّة يتجلّى اكثر. فيجب ان لا نبحث عن تفسير الاشياء في العامل الاقتصاديّ فقط بل نبحث عنه في عوامل اخرى أيضاً، لانّ الاقتصاد عامـــل من العوامل وليس كلّ شيء، فهناك مثلاً حبّ التفوق على الآخرين، وحبّ التحكم في رقاب

الناس ، وهذا عامل مهمّ نجده في هجوم المغول على ايران ، ولعلّ هناك من يقول انه يمكن ان يكون لهذا الهجوم سبب اقتصاديّ ، لكن التاريخ يحكي خلاف ذلك .. فكما انّ الانسان يقع تحت تأثير العامل الاقتصاديّ فكذلك يقع تحت تأثير حبّ الذات . ويحدّثنا التاريخ عن هجوم المغول على ايران قائلاً : في البداية لم يكن في نيّة المغول الهجوم على ايران ولكن جنكيزخان هو الذي حرّضهم على ذلك فتشجعوا . والسبب الذي دعاهم لذلك هو انّ عدداً من تجّارهم جاؤا الى ايران فاقتيدوا الى بلاط السلطان ، وتمّ حجزُ اموالهم .. ، فامتعض حكّامهم وأرسلوا عدداً من مأموريهم الى السلطان ليستوضحوه عن سبب حجز اموال تجّارهم ، فقام هذا بقتل المبعوثين في حين لم يكن متعارفاً في العالم آنذاك ان يقتل مبعوث دولة أو قوم مهما كانت العداوة والخصومة ، وعندما بلغ المغول قتل مبعوثيهم جنّ جنونهم وثارت ثائرتهم لانّهم شعروا انّ هذا التصرف قد مسّ كرامتهم وأساء الى سمعتهم فغضبوا ، وهاج شعور حبّ الذات والجاه الذي كان يعتمل في جوانحهم كأيّ احد من الناس ، فهجموا على ايران كالسيل المتدفق .. فلم يكن الدافع اقتصاديّاً اذاً بل كان دافع الكرامة وحبّ الذات والسمعة علماً انّه كان على سلطان ايران ان يعتذر منهم بسبب قتل مبعوثيهم لكنّه لم يقم بهذا العمل فشُنّت الحرب ، وكان منها كان .

وهناك مثال آخر يُبيّن لنا خطأ التفسير الاقتصادي للاشياء ، وهو قدوم الفاتحين المسلمين العرب الى ايران حيث لم يكن وازعهم اقتصاديّاً ، وهذا ما تتحدّث به كلّ التواريخ .. فالوازع كان دينيّاً ، والدافع لهم هو العقيدة الاسلامية ، وهذا ما يظهر لنا جليّاً من خلال المفاهيم التي بشّروا بها والتوجّهات التي كانوا عليها حيث اعلنوا انهم جاؤوا ليخرجوا الناس من عبادة الاصنام الى عبادة الواحد القهّار ، وانهم جاؤوا للقضاء على كلّ ظاهرة صنميّة ، وسمحوا للديانات الاخرى التي كانت توحّد الله أن يُمَارس اتباعها طقوسهم وشعائرهم بكلّ حريّة ، كما تركوا الناس المجبورين المقهورين تحت نير حكوماتهم أحراراً . لقد قالوا : «جئنا لنخرج عباد الله من عبادة الناس الى عبادة الله» فالدافع ديني عقائدي .. وهكذا مئات بل آلاف الامثلة التي تفنّد رأي أصحاب التفسير الاقتصادي ونظريتهم . فهذا التوجّه مرفوض عقلاً وشرعاً وذوقاً وعرفاً .. ولأدْخُل منه في رحاب الموضوع الذي اردت ان اتطرق اليه :

لا معنى للعدالة عند من يفسّر التاريخ تفسيراً ماديّاً ، ولم يذكر هذا المفهوم في مقولات ماركس والماركسيّين الـّذين يدّعون انّهم من جانب الطبقة العاملة ، بل ذُكرت كلمة الاشتراكية لكن لا بمعنىٰ انّها تتّفق مع العدالة . وهؤلاء الذين يضربون على وتر الاشتراكيّة يخطّئون أنصار العدالة و يعتبرونهم اشتراكيّين خياليّين ، وذلك لانّهم يعتقدون بالاشتراكيّة المنبثقة عن الحتميّة التاريخيّة لا عن العدالة ، ايّ : انّ الاوضاع الاقتصاديّة هي التي تجعل من المجتمع اشتراكيّاً .. و يذكرون المراحل الخمس التي تفرضها الحتمية التاريخية ، والتي مرّت بها المجتمعات في مختلف فترات حياتها .. فاوّل مرحلة هي مرحلة الرق ، ونتيجة عوامل اقتصاديّة معيّنة ظهرت مرحلة الاقطاع ، ثم تلتها مرحلة الرأسمالية التي لم تبق على حالها وذلك بسبب التطوّر الحاصل في وسائل الانتاج لذلك تبدّلت اوتوماتيكيّاً الىٰ مرحلة الاشتراكيّة ..

وفي ضوء هذا الاعتقاد يطلب أنصار الاشتراكيّة البحث عنها بالطريق العلميّ الـّذي يسمّونه الحتميّة التاريخيّة . فهو الـّذي يقتضي ظهورها وليست العدالة تقتضي ذلك .

ولا اريد أن اتطرّق الى تفاصيل هذا الموضوع ، واكتفي بالاشارة اليه قائلاً : انّ كلام هؤلاء خاطيء من جانبين : الاول : لم تتمخّض الاشتراكية عن تطوّر وسائل الانتاج كما يدّعون ، حيث ظهرت في العالم طرق حل كثيرة تستطيع الرأسمالية من خلالها المحافظة على وجودها من جهة ، والوقوف بوجه الاشتراكية الآتية من جهة اخرى . الثاني : يتعلّق بالعدالة .. فانّ هؤلاء لا يؤمنون بها أبداً ، ولا يشجعون على اشتراكية تنبثق عنها لانها ستكون خيالاً في تصورهم .

ونحن نقول : ليس الامر كذلك لان العدالة ـ من وجهة نظرنا ـ تُشبه الحالة الصحيّة عند الانسان .

وكما ذكرت في احدىٰ المحاضرات الماضية بانّ المجتمع مركّب من الافراد ، وهذا التركيب كأي تركيب حي له حالتان : السلامة والانحراف ، وحالة انحرافه تعني حالته المرضيّة ، واذا ما اشتدّت فهي تعني الموت . وامّا حالة السلامة والصحة ففيها البقاء والحياة ، علماً انّ التركيب الاجتماعي سليم في ذاته ، وخلوده منوط بسلامته ، والاّ فالانحراف نصيبه ، كمـــا قال سعدي في بعض أشعاره : «انّ في البدن اربع طبائع رغم اجتماعها فيه لكنها

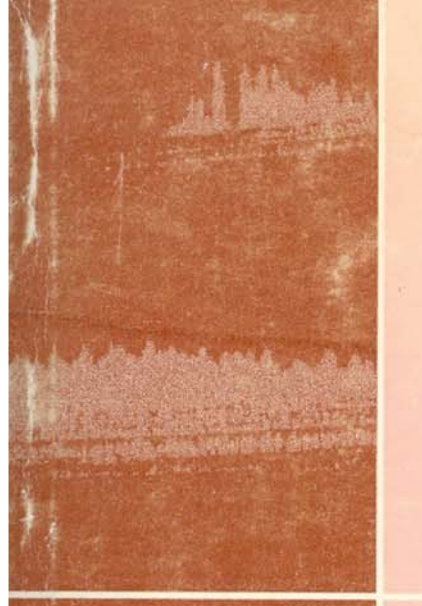
متضادّة فيما بينها ، واذا ما قُدّر لاحداهن ان تخرج عن حدّها الطبيعي فان ذلك يعني موت الانسان ، اي انّ فقدان التوازن في كلٍّ منها يؤدّي الى الموت» .

لقد ذكر الشاعر الطبائع الاربع في شعره وهي «الصفراء ، والسوداء ، والدم ، والبلغم» وانّ عليها المدار في جسم الانسان ، ويمكننا ان نذكر شيئاً آخر غير ما ذكره الشاعر فنقول ان جسم انسان مثلاً يحتاج الىٰ عدد من العناصر والمواد ، آلية وغير آلية ، ويحتاج كذلك الىٰ عدد من الخلايا تكون في الدم ، فله نظام تركيبي إذن لا يرتبط بعامل الزمن ، وهو موجود في الجسم اليوم كما كان موجوداً فيه قبل ألفي سنة ، وتتوقف سلامة الجسم على ثباته . فعندما يُحلّل دم الانسان مثلاً ، فيجب ان يبقىٰ تركيبه محفوظاً ، وكذلك فانّ الكالسيوم يجب ان يبقىٰ بمقداره الطبيعي في الجسم ، والّا فانّ الانسان يتعرض للمرض .

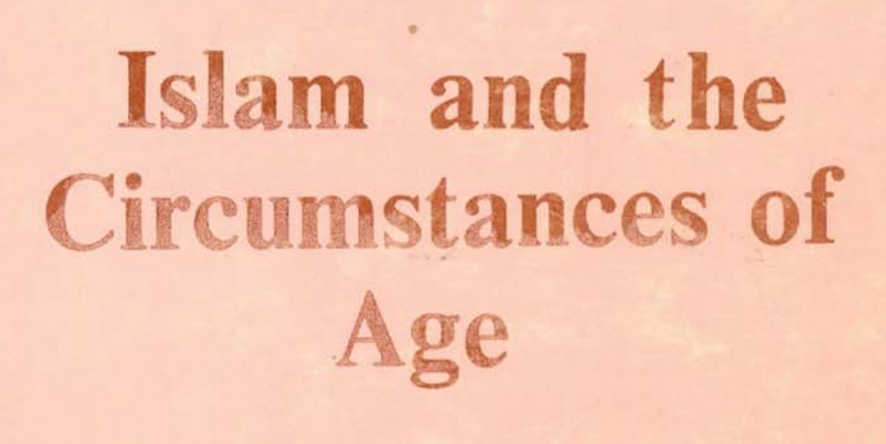
فالعدالة بالنسبة الىٰ المجتمع كالاعتدال الذي عليه الجسم ، علماً انّ هذا الاعتدال ثابت وليس له حدّ معيّن ، وهو «عرض عريض» كما يعبّرون اي انّ في وسطه تذبذباً ، واذا كان هذا الاعتدال عند نقطة الوسط بصورة دقيقة جدّاً فهو كامل ، اما اذا مال الى احد الجانبين فانه يتناقص حتىٰ يبلغ حدّاً يكون فيه الموت . ولكن هذه الاوساط ـ مهما كانت ـ فهي الحياة ، وكلّما كان الاعتدال اكمل ، كانت السلامة اكثر ، وكذلك الامر بالنسبة الىٰ التركيبة الاجتماعية .

اننا نعتقد انّ الزمن يتكامل ولكن نحو العدالة والاعتدال ، علماً انّ العامل الاقتصادي هو أحد العوامل المؤثّرة في ذلك وليس هو كلّ شيء لانّ هناك عوامل اخرى كثيرة ولها تأثيرها ، ولكلٍّ من هذه العوامل نسبة معيّنة من الوجود والتأثير ، واذا كانت هذه النسبة محفوظة فانّ المجتمع يكون سالماً والّا فيكون معرّضاً للمرض .

اكتفى بهذا المقدار حيث أشعر بالتعب رغم انّي لم اكمل الموضوع واسأل الله تعالىٰ ان يجعل عواقب امورنا خيرا .



Prof. M. Muṭahharī



Islam and the Circumstances of Age

Translated to Arabic by:

Alī Ḥāshim

Islamic Research Foundation
Astan Quds Razavi
Mashhad - IRAN
1991